دستور الصدقات

فى الإسلام

بقلم

عبد البديع عبد السميع كفافي



دستور الصدقات

في الإســـلام

دستور الصدقات
في الإسلام

بقلم

عبد البديع عبد السميع كفافي



دستور الصدقات في الإسلام

عبد البديع عبد السميع

الكتـــــاب: دستور الصدقات في الإسلام

المـــؤلـــف: عبد البديع عبد السميع

تاريخ النشر: [illegible] ٢٠ م

رقم الإيداع: ٢٢٦[illegible] / ٢٠١٠

الترقيم الدولي: I.S.B.N 978-977-463-085- 9

الناشـــر:

دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع

الإدارة والمطابع:

١٢ شارع نوبار لاظوغلى (القاهرة)

تليفون: ٠٠٢٠٢٢٧٩٤٢٠٧٩ فاكس: ٠٠٢٠٢٢٧٩٥٤٢٢٤

التوزيـــع:

٣ شارع كامل صدقى الفجالة - القاهرة

تليفون: ٠٠٢٠٢٢٥٩١٧٩٥٩

www.darghareeb.com

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، وقائد الغر المحجلين، المبعوث رحمة للعالمين سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

أما بعد

تعاني الأمة الإسلامية في هذه الأيام من التفكُّك والفُرقة، والخلافات والاختلافات، ما يجعل أصحاب الضمائر المؤمنة في قلق دائم على مصيرها، وخوف شديد عليها، مما يهددها بخطر الاحتراق والضياع، وهذا القلق الذي يساور أصحاب الضمائر المؤمنة في حقيقته موروث عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم الذي سبق له أن صرّح بما ساوره من قلق يبدو واضحًا جليًا في حديثه الشريف الذي يقول فيه عليه الصلاة والسلام: «توشك أن تتداعى عليكم الأمم، كما تتداعى الأكلة إلى قصعتها، قالوا: أومن قلة نحن يومئذ يارسول الله؟ قال عليه الصلاة والسلام: لا، بل أنتم يومئذ كثرة، ولكنها كثرة كغثاء السيل».

إن هذه الفرقة ، وهذه التصدعات في جدار الوحدة الإسلامية بين شعوب ودول هذه الأمة الإسلامية قد ولدت مآسي متعددة، ما إن تشغل بال أصحاب الضمائر المؤمنة حتى يتولد عنها ما يشبه اليأس من بعث أسباب النهضة من هذه الكبوة التي تكاد تدفن لآلئ مجدها، وجواهر عظمتها في تراب الانهزامية والخلود إلى الأرض، حيث ينسحق هذا المجد، وتندثر إلى الأبد هذه العظمة.

غير أن بوارق نهوض هذه الأمة الإسلامية من كبوتها، وعوامل إقالتها من عثرتها، مازالت تضيء لها الطريق، وتبعث في عروقها الطاقة والأمل.. في إشراق وجد يحملها على جناحيه حتى يفيء الناس من سكرتهم، ويفيقوا من غفوتهم، وينهضوا من كبوتهم، ويسطع في هذا الظلام الدامس بريق الأمل في قوله عز من قائل:

﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٩٢] .

ثم يهيج عواطف الإيمان في قلوبهم، ويؤجج حماس المخلصين من أبناء هذه الأمة.. الوعد الصادق والبشرى الساطعة في قوله عز من قائل في الآية رقم (٥٥) من سورة النور:

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥] .

إن أولى الثمرات المرة التي جناها المسلمون من هذا التفكك في المجتمع الإسلامي هي معاناة الفقراء من الفقر والجوع، وهذه الثمرة المرة في ذاتها كافية لضياع الأمة وهوانها الذي وصلت إليه وقد وهنت عظامها، وذهبت قوتها فهانت على غيرها من الأمم، وأصبحت ترسف في قيود الذل وأغلال الضياع، والتهم أعداؤها أجزاء غالية من جسدها طريح الأرض.. أرض الذل والهوان.

ويكفي أن تنظر الأمة إلى فلسطين والمسجد الأقصى لتتجرع حسرة لا يذهب مرارتها إلا يوم تصحو فيه من غفوتها لتسترد القدس والمسجد الأقصى معًا إن شاء الله تعالى.

فإذا نقلت بصرها إلى أفغانستان وباكستان والسودان والصومال، وتشاد فإنها ستجد أمرًا عجبًا .

المسلم يقتل أخاه المسلم، ويضحك ضحكة بلهاء زاعمًا أنه انتصر !!! وهو يغفل أو يتغافل عن حقيقة مرة المذاق هي أن عدوهما المشترك هو الذي يحرضه ويساعده على قتل أخيه مرة في خفية ومرة في ظهور، وأخرى في وقاحة.. وفي كل الأحوال هذه نرى العدو هو الذي يجني ثمرة هذا الانتصار الكاذب في صورة كئيبة وهي نهب ثروات المجتمع الإسلامي المتعددة الأنواع والأشكال.

وهذا القاتل المتوهم النصر لم يقرأ الآية الكريمة التي تسطع في سورة آل عمران برقم (٢٨) حيث يقول الله سبحانه وتعالى فيها:

﴿لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلاَّ أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ [آل عمران: ٢٨].

وهذان المتقاتلان يغفلان تمامًا عن نتائج هذا الصراع الدامي من تشريد الأطفال والشيوخ والنساء، وكلهم هم المستضعفون الذين تعنيهم الآية الشريفة في القرآن الكريم في سورة النساء برقم (٧٥) حيث يقول الحق عز وجل فيها:

﴿ وَمَا لَكُمْ لا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾ [النساء: ٧٥].

هؤلاء المستضعفون من الرجال والنساء والولدان هم الذين شيّد الله سبحانه وتعالى ورسوله ﷺ لهم دستورًا في القرآن والسنّة يشتمل على قواعد محكمة شرعًا فيه الصدقات حماية لإيمانهم وحماية لهم وصونًا لأركان المجتمع الإسلامي، وحفظًا لكيان الأمة الإسلامية.

فإلى الصفحات القادمة لنسمع ونرى ونشهد ونشاهد ما بني عليه هذا التشريع الجليل الجميل من قواعد راسخة هدفها كل هذا وأكثر.

عبد البديع عبد السميع كفافي

الزهراء - مصر القديمة - ٧ شارع حسن فريد

الجمعة ٢٧ من شهر شوال ١٤٣٠هـ

١٦ أكتوبر سنة ٢٠٠٩م



تمهيد

موضوع هذا البحث - إن شاء الله تعالى- هو الصدقات، والمعني بها صدقات التطوع، وليس هو زكاة الفريضة التي هي الركن الثالث من أركان الإسلام، والتي تأتي في القرآن الكريم دائمًا مقترنة بالصلاة، وكذلك في السنة المطهرة، فبالنسبة لها يقول الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم:

١- في سورة التوبة في الآية رقم (١٠٣):

﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١٠٣].

٢- وقوله سبحانه وتعالى في سورة الحج في الآية رقم (٤١):

﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ﴾ [الحج: ٤١].

٣- وقوله تعالى في سورة التوبة الآية رقم (٧١):

﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٧١].

٤- وقوله سبحانه وتعالى في سورة البينة في الآية رقم (٥):

﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٥].

وفي السنة المطهرة : جاء ذكر الزكاة مقترنة بالصلاة:

١- روى الجماعة عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم لما بعث معاذ بن جبل رضي الله عنه إلى اليمن قال:

«إنك تأتي قومًا أهل كتاب، فادعهم إلى شهادة ألاَّ إله إلا الله، وأني رسول الله، فإن هم أطاعوا لذلك، فاعلمهم أن الله عز وجل افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة، فإن هم أطاعوا لذلك فاعلمهم أن الله تعالى افترض عليهم صدقة في أموالهم تؤخذ من أغنيائهم، وترد على فقرائهم، فإن أطاعوا لذلك فإياك وكرائم أموالهم، واتق دعوة المظلوم، فإنه ليس بينها وبين الله حجاب».

[البخاري: كتاب الزكاة - باب وجوب الزكاة (٢ / ١٣)، وباب أخذ الصدقة من الأغنياء وترد إلى الفقراء حيث كانوا (٣ / ١٥٨)، وكتاب المظالم مختصراً - باب الاتقاء من دعوة المظلوم (٣ / ١٦٩)، ومسلم كتاب الإيمان باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام برقم (١٢٩ / ٥٠). وأبو داود كتاب الزكاة - باب في زكاة السائمة برقم (١٥٨٤) (٢ / ٢٤٢)، والترمذي كتاب الزكاة باب كراهية أخذ خير المال برقم (٦٢٥) (٣ / ١٢)، والنسائي كتاب الزكاة- باب وجوب الزكاة برقم (٢٤٣٥) (٥ / ٤٠٣)، وابن ماجه كتاب الزكاة باب فرض الزكاة برقم (١٧٨٣) (١ / ٥٦٨)، ومسند الإمام أحمد (١ / ٢٣٣)]

٢- روى البخاري ومسلم وغيرهما عن جرير بن عبد الله قال: «بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم على إقام الصلاة وإيتاء الزكاة، والنصح لكل مسلم».

[البخاري: كتاب الزكاة- باب البيعة على إيتاء الزكاة ﴿فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم في الدين﴾ الآية (١١) من سورة التوبة، وبمعناه كتاب الأحكام، باب كيف يبايع الإمام الناس؟ (٩ / ٩٦)، ومسلم كتاب الإيمان، باب بيان أن الدين النصيحة برقم (٩٧)، والترمذي، كتاب البر والصلة، باب ما جاء في النصيحة برقم (١٩٢٥) (٤ / ٣٢٤)، والدارمي، كتاب البيوع، باب في النصيحة (٢ / ٢٤٨)، ومسند الإمام أحمد (٤ / ٣٥٨، ٣٦١، ٣٦٤، ٣٦٥)].

وهذه النصوص تبين أن الزكاة وإن كانت قد سميت في بعضها صدقة، إلا أنها فريضة شرعها الله أختًا للصلوات الخمس، وصيام رمضان، وحج البيت لمن استطاع إلى ذلك سبيلاً، أي أنها ركن من أركان الإسلام، وهي

قرنت بالصلاة في اثنتين وثمانين آية، وهي فرضت بالقرآن وبالسنة المطهرة، وبإجماع الأمة.

أما الصدقة موضوع هذا البحث فهي صدقة التطوع وهي تقابل صلاة النفل التي يصليها المسلم بعيداً عن الصلوات الخمس المفروضة كصلاة الضحى وصلاة الليل والسنن قبل وبعد الصلوات المكتوبة.

فصدقة التطوع هذه هي موضوع هذا البحث إن شاء الله تعالى، وأدعو الله سبحانه وتعالى أن يأخذ بيدي ويوفقني إلى دراستها دراسة وافية، وتوضيح دورها الرائع في بناء المجتمع وفي تنميته بجميع أنواع التنمية سواء التنمية البشرية أو التنمية الاقتصادية والعلمية والثقافية والمحافظة على قوام المجتمع الإسلامي، وتطهيره من جميع الآفات، وحمايته من التآكل، ومن التفكك، ومن الأمراض الخُلقية، وتمكينه من التغلب على عوامل الانهيار والترهل، وتمكينه من الاحتفاظ بأسباب القوة البناءة ونشر الحبّ والسلام، والعمل على ازدهار الحضارة، وإرساء قواعد المجد والعزة والكرامة للأمة الإسلامية، والاحتفاظ بهيبتها وجلالها بانتسابها إلى الإسلام الحنيف. وذلك يتم بإذن الله وتوفيقه بما يأتي:

أولاً: تعريف هذه الصدقة وبيان أركانها وشروط صحتها.

ثانيًا: عرض النصوص الواردة في شأنها في القرآن الكريم والسنة المطهرة.

ثالثًا: بيان منزلتها من فريضة الزكاة.

رابعًا: دورها المنشود في حفاظ كيان المجتمع الإسلامي وتنقيته من العواطف السلبية.

خامسًا: العمل على تنظيم جمعها وصرفها وتوجيهها إلى بناء حضارة تأخذ بيد البشرية إلى طريق الخير وإلى الصراط المستقيم.

ونخصص لكل بند من هذه البنود فصلاً على حده ، وبالله التوفيق، وعليه التكلان.

الفصل الأول
تعريف الصدقة وبيان أركانها وطبيعتها

أولاً: تعريف الصدقة:

قال الفخر الرازي في تفسيره المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، المجلد الرابع، طبعة دار الفكر ص (٧٧):

«قال أهل اللغة: أصل الصدقة (ص . د. ق) على هذا الترتيب موضوع للصحة والكمال، ومنه قولهم: رجل صدق النظر، وصدق اللقاء، وصدقوهم القتال، وفلان صادق المودة، وهذا خَلٌ صادق الحموضة، وشيء صادق الحموضة، وصدق فلان في خبره إذا أخبر به على الوجه الذي هو عليه صحيحًا كاملاً. والصديق يسمى صديقًا لصدقه في المودة. والصداق سمي صداقًا لأن عقد النكاح به يتم ويكمل، وسمى الله تعالى الزكاة صدقة؛ لأن المال بها يصح ويكمل، فهي سبب إما لكمال المال وبقائه، وإما لأنه يستدل بها على صدق العبد في إيمانه وكماله فيه».

هذا معنى الصدقة لغة.

أما في الاصطلاح فهناك تعريفان:

التعريف الأول: قال به أستاذنا الجليل المغفور له الدكتور محمد مهدي علام رحمه الله رحمة واسعة في بحثه القيم (الصدقة في الإسلام):

«الصدقة في هذا البحث هي الإنفاق في سبيل الله تبرعًا زائدًا على ما هو مفروض في ركن الزكاة».

وإني آخذ بهذا التعريف الذي قال به أستاذنا رحمه الله تعالى لدقته التي تحكم هذا البحث، وإن كان مفهوم الصدقة يتسع ليشمل الكلمة الطيبة

والأفعال الجميلة التي تصدر عن المسلم حتى تدخل فيها إماطة الأذى من الطريق، ومنها أيضًا عمل المسلم بيده لينفع نفسه وإعانة الملهوف، والعمل بالمعروف، والإمساك عن الشر، وكل خطوة يمشي إلى الصلاة وغير ذلك من أعمال البر.

ومع كل هذا فإني أرى أن تعريف أستاذنا الدكتور محمد مهدي علام رحمه الله رحمة واسعة في هذا المقام أبلغ وأدق والله أعلم؛ لأن البلاغة هي مطابقة الكلام لمقتضى الحال.

•• بيان أركان الصدقة وطبيعتها:

لا ريب في أن الصدقة عبادة يتقرب المسلم بها إلى الله تعالى، ومادام الأمر كذلك فإن هذه الصدقة باعتبارها عبادة لها أركان ولها شروط صحة، وكل ذلك واضح في النصوص القرآنية وفي الأحاديث الشريفة علي الوجه الآتي:

الركن الأول: وهو النية:

النية هي الركن الأول الذي تقوم عليه عبادة المسلم لله عز وجل وسند ذلك ما يأتي:

(أ) حديث سيدنا رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم الذي رواه الإمام البخاري والإمام مسلم في صحيحهما عن سيدنا عمر بن الخطاب ﷺ، وافتتح به الإمام البخاري في صحيحه قال: قال رسول الله ﷺ:

«إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله، فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه». [رواه البخاري ومسلم].

قال الحافظ العالم ابن رجب الحنبلي في كتابه القيم «جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثًا من جوامع الكلم، الجزء الأول، منشورات المؤسسة السعيدية

بالرياض، لصاحبها فهد بن عبدالعزيز السعيد، طبعة مطبعة الكيلاني، ٢٢ شارع غيط العدة- باب الخلق - بمدينة القاهرة، ص١٩ ما يأتي:

والنية في كلام العلماء تقع بمعنيين:

أحدهما: تميز العبادات بعضها عن بعض كتمييز صلاة الظهر من صلاة العصر مثلاً، وتمييز صيام رمضان من صيام غيره، أو تمييز العبادات من العادات، كتمييز الغُسل من الجنابة من غُسْل التبرء والتنظف ونحو ذلك وهذه النية هي التي توجد كثيراً في كلام الفقهاء في كتبهم.

والمعنى الثاني: بمعنى تمييز المقصود بالعمل وهل هو لله وحده لا شريك له، أم لله وغيره؟ وهذه هي النية التي يتكلم فيها العارفون في كتبهم في كلامهم على الإخلاص وتوابعه، وهي التي توجد كثيراً في كلام السلف المتقدمين». انتهى كلام ابن رجب الحنبلي.

وهذا المعنى الثاني هو الذي اختاره في تعريف النية في هذا البحث المتعلق بالصدقة، إذ هو الذي يكشف قصد المتصدق من تقديم صدقته هل هو يقصد التطوع بها لأعمال الخير يبتغي بها وجه الله عز وجل ويدعوه قبولها؟ أم أنه يقصد بذلك الظهور في المجتمع بأنه رجل من رجال البر والإحسان، ويحصل بذلك على هذا اللقب، مع ما يثمره من منزلة رفيعة عند المجتمع؟ أو يريد أن يصل بذلك إلى منصب من مناصب الحكم؟ أو تحقيق مآرب دنيوية وأغراض شخصية؟ أو يقصد بذلك اتقاء بطش السلطان به؟

فالإجابة على هذه الأسئلة هي التي توضح على سبيل اليقين ما يقصده من وراء تقديمه هذا التبرع، فإن كان يقصد بذلك وجه الله طمعًا في ثوابه فيكون تبرعه صادراً عن الإخلاص. والإخلاص مناط القبول عند الله، فتكون النية هنا بمعنى الإرادة، والسند في ذلك ما جاء في القرآن الكريم الذي عبَّر عن النية بمعنى الإرادة فيما يأتي في قوله تعالى:

١ -﴿منكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمنكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ﴾ [آل عمران: ١٥٢] .
٢- ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ﴾ [الأنفال: ٦٧] .
٣- ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا﴾ [الإسراء: ١٨] .
٤ - ﴿ وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ [الإسراء: ١٩] .
٥- ﴿وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ [الأنعام: ٥٢] .
٦- ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الكهف: ٢٨] .
٧- ﴿وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾ [الروم: ٣٩] .

وقد يعبر عن النية بكلمة ابتغاء في القرآن الكريم، ويتضح ذلك فيما يأتي:

١- في قوله عز من قائل: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [البقرة: ٢٦٥] .
٢- وفي قوله سبحانه: ﴿وَمَا تُنفِقُونَ إِلاَّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٧٢] .
٣- وقوله: ﴿لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ [النساء: ١١٤] .

ب- وأما ما ورد في السنة من تسمية هذا المعنى بالنية (هي تساوي الإرادة) وكذلك في فقه السلف فهو من الكثرة بمكان مما يفيد اتحادهما في المعنى، وإن اختلفا في اللفظ؛ إذ إن الإرادة والنية معناهما واحد، فأمثلته كثيرة، نذكر منه ما يأتي:

١- خرّج الإمام أحمد والإمام النسائي رضي الله عنهما من حديث (عبادة بن الصامت رضي الله عنه)، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال:

«من غزا في سبيل الله ولم ينو إلا عقالاً فله ما نوى».

٢- خرَّج الإمام أحمد من حديث (عبد الله بن مسعود رضي الله عنه) عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

«إن أكثر شهداء أمتي أصحاب الفرش، وربّ قتيل بين صفين، الله أعلم بنيته».

٣- خرَّج ابن ماجة من حديث (جابر بن عبد الله رضي الله عنه) عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

«يحشر الناس على نياتهم».

٤- ومن حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

«إنما يبعث الناس على نياتهم».

٥- وخرَّج (ابن أبي الدنيا) من حديث عمر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

«إنما يبعث المقتتلون على نياتهم».

٦- وفي صحيح مسلم عن أم سلمة رضي الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

«يعوذ عائذ بالبيت، فيبعث إليه بعث، فإذا كانوا ببيداء من الأرض خسف بهم» فقلت: يا رسول الله، فكيف بمن كان كارهًا؟ قال: «يخسف به معهم، ولكنه يبعث يوم القيامة على نيته».

٧- وفي صحيح مسلم أيضًا عن أم المؤمنين سيدتنا عائشة رضي الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم معنى الحديث السابق، وقال فيه:

«يهلكون مهلكًا واحدًا، ويصدرون مصادر شتى، ويبعثهم الله على نياتهم».

٨- وخرّج الإمام أحمد وابن ماجة من حديث زيد بن ثابت رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

«من كان همَّه الدنيا فرَّق الله شمله (وفي لفظ: «أمره»)، وجعل فقره بين عينيه، ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب له، ومن كانت الآخرة نيته جمع الله له أمره، وجعل غناه في قلبه، وأتته الدنيا وهي راغمة».

٩- وفي الصحيحين (البخاري ومسلم)، عن سيدنا سعد بن أبي وقاص ﷺ عن سيدنا رسول الله ﷺ قال:

«إنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا أثِبْت عليها حتى اللقمة تجعلها في فم امرأتك».

١٠- ومن أقوال سيدنا عمر بن الخطاب ﷺ:

«لا عمل لمن لا نية له، ولا أجر لمن لا حسبة له».

يشرح ذلك ابن رجب الحنبلي بقوله: «يعني لا لمن لم يحتسب ثواب عمله عند الله عزَّ وجلَّ».

ومن أقوال العلماء:

أ- عن يحيى بن أبي كثير قال:

«تعلموا النية فإنها أبلغ من العمل».

ب- عن زيد الشامي قال: «إني لأحب أن تكون لي نيّة في كل شيء حتى في الطعام والشراب».

جـ- داوود الطائي قال: «رأيت الخير كله إنما يجمعه حسن النية، وكفاك بها خيراً، وإن لم تنصب» أي: تتعب.

قال داود الطائي: «والبرّ همة التقى، ولو تعلقت جميع جوارحه بحب الدنيا لردته يومًا نيته إلى أصله».

د- وعن سفيان الثوري قال: «ما عالجت شيئًا أشد عليّ من نيتي، لأنها تتقلب عليّ».

هـ- وعن يوسف بن أسباط قال: «تخليص النية من فسادها أشد على العاملين من طول الاجتهاد».

و- وعن مطرف بن عبد الله قال: «صلاح القلب بصلاح العمل، وصلاح العمل بصلاح النيّة».

هذه هي النصوص القرآنية، والأحاديث النبوية الشريفة وأقوال العلماء والحكماء التي وردت في تعريف النية، وهي كلها تجتمع في أمرين:

الأول: أن يكون العمل في ذاته عملاً صالحًا حميداً موافقًا للكتاب والسنة في ظاهره.

الثاني: أن يكون في باطنه يقصد به وجه الله عز وجل كما تضمنه حديث سيدنا عمر بن الخطاب ﷺ من قول سيدنا رسول الله ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات».

ولذلك قال الإمام الفضيل بن عياض ﷺ في قوله تعالى في أول سورة الملك: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ [الملك: ٢]، قال: أخلصه وأصوبه، وقال: إن العمل إذا كان خالصًا ولم يكن صوابًا لم يقبل وإذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا لم يقبل حتى يكون خالصًا وصوابًا.

قال: والخالص إذا كان لله عز وجل، والصواب إذا كان على السنة.

وعلى هدي ما سبق يمكن أن نعرف النية في موضوع البحث كالآتي:

النية في الصدقة هي أن تتجه إرادة المتبرع بها على تقديمها ابتغاء وجه الله قاصداً في ذلك وجه الله وإعطاءها لمتلقيها لينتفع بها انتفاعًا كاملاً، ولا ينتظر مقابل ذلك من الناس جزاء ولا شكوراً.

ويتضح من هذا التعريف أن النية وحدها هي التي تضفي على التبرع صفة الصدقة، إذ إنها في هذه الحالة توصف بالإخلاص، والإخلاص كما هو وارد في الأثر سرّ من أسرار الله سبحانه وتعالى يستودعه قلب عبده المؤمن، فلا يطلع عليه ملك فيكتبه ولا يطلع عليه شيطان فيفسده.

وبهذا أيضًا تستوي إذا كبر حجمها أو صغر حجمها، فالصدقة في حجم الجبل تكون صدقة، وإذا كانت في حجم شق التمرة فهي صدقة تثقل ميزان حسنات العبد يوم القيامة، فالعبرة بالدافع الذي دفع المتطوع إلى تقديمها، ألا

هو الإخلاص، وهذا يستقيم مع ما جاء في الحديث الشريف الذي رواه النبي صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم:

«إن الله لا ينظر إلى صوركم ولكنه ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم».

وتأتي الآية الشريفة رقم (١١٤) من سورة النساء لتجمع خصائص الصدقة كلها في كلمة واحدة أو كلمات قليلة جامعة مانعة حيث يقول الحق سبحانه وتعالى فيها:

﴿لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٤].

وإذن فإن ركن الصدقة الأول هو النية باعتبارها نوعًا من العبادة وإن كانت نفلاً.

وإذن فلكي نعرف الصدقة فلا بد أن نضمن هذا التعريف الحدّ الذي يميزها عن أعمال التبرعات فنقول: الصدقة هي الإنفاق في سبيل الله وابتغاء مرضاته، تبرعًا زائدًا على ما هو مفروض في ركن الزكاة.

●● ثمرات في اعتبار النية ركنًا أول للصدقة:

أولى الثمرات:

إن أولى الثمرات لاعتبار النية الركن الأول للصدقة هي نبذ الإنفاق الذي يقع من الشخص مصحوبًا بالمن والأذى ورئاء الناس. فهذا النوع من الإنفاق غير معتبر في نظر المشرع الحكيم، والدليل على ذلك هو ما جاء في الآية الشريفة رقم (٢٦٤) من سورة البقرة، يقول الحق سبحانه وتعالى فيها:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَىٰ كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لاَّ يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٦٤].

فأنت ترى أن الله سبحانه وتعالى قد جمع بين آفتي المن والأذى ورئاء الناس ودمغهما بحكم واحد وهو إبطال الصدقة، فكأنها لم تكن، إذ إنها ردّت على صاحبها طريدة من مجال القبول من الله إلى حيث تكون حسرة على من قدمها لا ينفع معها الندم.

إن الذي يلوِّث الصدقة بالمن والأذى ورئاء الناس يُنَفِّرُ منها الملائكة، ويسلمها للفائف الحجب التي تحجبها عن الصعود إلى الله سبحانه وتعالى.

ولقد شبَّه الله الذي يتبع صدقاته بالمن والأذى بمن ينفق ماله رئاء الناس، أي بقصد أن يراه الناس فيثنوا عليه ويشكروه، فهو لا يقصد الخير قط، بل يقصد الرياء والسمعة.

وبحكم هذه الآية الشريفة على كل من المانِّ والمؤذي والمرائي قد أُبْعِدَ كل منهم من مجتمع المتقين في سبيل الله، وحجبت صدقاتهم فلم تقبل.

ثانية الثمرات:

الجزاء الأوفى للمنفقين في سبيل الله وابتغاء مرضاته، وهذا الجزاء يكمن في قبول الله لهذه الصدقات التي يقدمونها وفي مضاعفة الأجر والثواب.

وقد عبَّر القرآن الكريم عن ذلك في الآيتين الشريفتين (٢٦١،٢٦٢) من سورة البقرة، يقول الله سبحانه وتعالى فيهما:

﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٦١) الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لا يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا مَنًّا وَلا أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٢٦١،٢٦٢].

ثالثة الثمرات:

السلام الاجتماعي: وأول السلام الاجتماعي ذلك الأمن الذي يشعر به المنفقون في سبيل الله بردًا وسلامًا في قلوبهم، وتسري سكينته في عروقهم

نسمات من الرضا تعطر صدورهم، تفيح في أرجاء كياناتهم روحًا وريحانًا من رضا الله عليهم، ورضا ضمائرهم بحب الله لهم ومباركته لسلوكهم، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

وأما نهر الحبّ لهم والمتدفق في قلوب الفقراء رحيقًا فَيَّاضًا، وأما بريق السرور البادي في أعينهم أشعة الدعاء الصاعد من قلوب الفقراء إلى الله يلتمسون منه البركة والازدهار لهؤلاء الذين تفجرت ينابيع الرحمة في قلوبهم فاعطوهم ما نزل على قلوبهم بردًا وسلامًا وطمأنينة، فإن هذا لا يقدره حق قدره إلا الله سبحانه وتعالى، وما يعقله إلا العالمون .

وكذلك التكافل الاجتماعي الذي يكتنف بجناحيه الفقراء والمساكين فيشعرون بحقيقة الأمن والطمأنينة، ويسعدون بعمق الشعور بالانتماء، ويتحقق بهذا كله مجتمع سعيد.. تسري في أوصاله نفحات الحب والسلام.

رابعة الثمرات:

التقدم والحضارة والازدهار، كل ذلك يتحقق بواسطة الصدقات التي يتناولها الفقراء، ويتم تداولها في المجتمع، وتقع في يد التجار الذين يتعاملون في السلع الاستهلاكية سواء منها الطعام والشراب، وكذلك الكساء يتقاضون ثمنها من أيدي الفقراء نقودًا، وهم بدورهم يسلمونها لأصحاب منشآت الإنتاج في دورة اقتصادية رابحة.

وأما من يتولى صلة الفقير واليتيم وذي الحاجة وابن السبيل وهم يتربون عليها تربية صالحة وتتكون منهم قافلة عمل وإنتاج يكتسب المجتمع منه النمو والازدهار بالإضافة إلى أن هذه المبالغ تدفع عن المجتمع أضرارًا قد تعوق حركة التقدم في البلاد.

ونكتفي بما قدمناه من ثمرات لأن لنا عودة إلى ذلك كله في الصفحات القادمة إن شاء الله تعالى، وقد أسهبت بعض الشيء في تعريف الركن

المعنوي للصدقة وهو النية التي تخلص في القصد والإرادة حتى تتجلى حقيقتها أمام القارئ يهتدي عندما يعقد العزم على التبرع بالصدقة التي تعرف طريقها إلى الله سبحانه وتعالى، وتعرف دورها ووظيفتها في التصدي لأمراض المجتمع من الفقر والجهل والمرض، وأسأل الله التوفيق والرشاد.

الثمرة الخامسة:

إصلاح النية هو مناط قبول الله لها، فمادام المتصدق يقصد بالصدقة وجه الله وينبغي بهارضاه عز وجل، فإن ذلك يكفيه لقبولها عند الله. وهذا النظر يؤيده حديث سيدنا رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم الذي رواه الإمامان البخاري ومسلم في صحيحيهما ومعهما الإمام النسائي ﷺ عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ :

«قال رجل: لأتصدقنَّ بصدقة، فخرج بصدقته فوضعها في يد سارق، فأصبحوا يتحدثون: تصدَّق الليلة على سارق، فقال: اللهم لك الحمد على سارق، لأتصدَّقَنَّ بصدقة، فخرج بصدقته فوضعها في يد زانية، فأصبحوا يتحدثون: تصدق الليلة على زانية!!، قال: اللهم لك الحمد على زانية!! لأتصدقنَّ بصدقة فخرج بصدقته فوضعها في يدي غنيّ، فأصبحوا يتحدثون: تصدق الليلة على غنيّ!! قال: اللهم لك الحمد على سارق وزانية وغني!! فأتي فقيل له: أما صدقتك على سارق فلعله أن يستعفّ عن سرقته، وأمّا الزانية فلعلها تستعف عن زناها، وأما الغني فلعله أن يعتبر فينفق مما أعطاه الله» رواه البخاري ومسلم والنسائي، وقال مسلم والنسائي : «فأتى فقيل له: أما صدقتك فقد تقبلت».

وهذا الحديث الشريف يجلي وجه الحق في دور النية في الصدقة حيث جعلها الله مناط القبول وسببه، فسبحان الله الرحمن الرحيم.

❀❀❀

الفصل الثاني
الركن الحسي للصدقة

أقصد به الركن المادي وهو المال الذي ينفقه المسلم في سبيل الله وابتغاء مرضاته.

مقدمة:

هذا المال محل التبرع في حقيقته مال الله هو الذي يملكه سبحانه وتعالى، وأما المتبرع فهو حامل له مستخلف لله فيه.

إذن فهو ليس ملكًا خالصًا للمتبرع، بل إن يده عارضة عليه، ونستدل على ذلك بما ورد في القرآن الكريم وسنة أشرف الخلق سيدنا محمد صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم.

أولاً: الدليل من القرآن الكريم:

١ - قال الله سبحانه وتعالى في القرآن في سورة الحديد الآية رقم (٧):

﴿آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [الحديد: ٧].

قال الإمام الفخر الرازي رحمه الله في تفسيره (مفاتيح الغيب) في تفسير هذه الآية (طبعة دار الفكر، المجلد الخامس عشر، ص٢١٦،٢١٧):

«في هذه الآية مسائل:.....

المسألة الثانية: في الآية وجهان (الأول):

إن الأموال التي في أيديكم إنما هي أموال الله بخلقه وإنشائه لها، ثم إنه تعالى جعلها تحت يد المكلف، وتحت تصرفه لينتفع بها على وفق إذن الشرع،

فالمكلف في تصرفه في هذه الأموال بمنزلة الوكيل والنائب والخليفة، فوجب أن يسهل عليكم الإنفاق من تلك الأموال، كما يسهل على الرجل النفقة من مال غيره إذا أذن له فيه، والثاني أنه جعلكم مستخلفين ممن قبلكم، لأجل أنه نقل أموالهم إليكم على سبيل الإرث فاعتبروا بحالهم، فإنها كما انتقلت منهم إليكم فستنتقل منكم إلى غيركم فلا تبخلوا بها».

وإني مع الوجه الأول: إذ إن المال في الحقيقة هو مال الله، فهو سبحانه وتعالى مالكه ومليكه، ومن معه المال من الناس ما هو إلا حامل له فقط، ونائب وخليفة الله عليه ينفق منه بحسب ما يصدر عن الله من أوامر، وبحسب إذنه سبحانه وتعالى، أي أن حامل المال ليس حرًا في استعمال هذا المال كيف يشاء، ولكنه مقيد بحكم الله الذي خلق هذا المال ورزقه إياه.

يقول الأستاذ سيد قطب رحمه الله في كتابه (العدالة الاجتماعية في الإسلام، طبعة دار الشروق ص١١٩):

«إن المال الذي في أيدي البشر هو مال الله، وهم خلفاء لا أصلاء» اهـ.

٢- قال الله سبحانه وتعالى في سورة النور في الآية (٣٣):

﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ وَلا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٣٣].

في هذه الآية الشريفة ذكر الله سبحانه وتعالى الذين يساعدون المملوك في فك رقبته، بأن المال الذي بين أيديهم ليس مالهم، وإنما هو مال الله سبحانه وتعالى، وهم مأمورون من جانبه سبحانه أن يؤتوا منه هؤلاء المكاتبين ليتمكنوا من الحصول على حريتهم للوفاء لمواليهم بما التزموا به من أداء المال المتفق عليه لزوم عتقهم.

إذن فالمال مال الله سبحانه وتعالى وحاملوه مكلفون بتنفيذ أوامره وأحكامه عز وجلّ.

وليس معنى هذا أن الإسلام لا يحترم الملكية الفردية، فالإسلام يعترف بالملكية الفردية ويحيطها بسياج منيع من القواعد والأحكام الواردة في القرآن الكريم والسنة المطهرة، فهو يحكم إنشاءها ويحكم تداولها، ويحفظ حرمتها وإن كان يجعل منها وظيفة اجتماعية.

«فهو يقرر أولاً أن الملكية لا تكون إلا بسلطان من الشارع، فالشارع في الحقيقة هو الذي أعطى الإنسان الملك بترتيبه على السبب الشرعي، ولذا جاء في بعض التعريفات أن الملك حكم شرعي مقدر في العين أو المنفعة يقتضي تمكين من يُضاف إليه من انتفاعه بالشيء وأخذ العوض عليه».

[العدالة الاجتماعية في الإسلام، للأستاذ/ سيد قطب رحمه الله].

- الإمام الراحل شيخنا وأستاذنا العالم الجليل الشيخ محمد أبو زهرة يقول في كتابه (الملكية ونظرية العقد في الشريعة الإسلامية)، طبعة دار الفكر ما يأتي:

«وهذا المعنى وهو أن الملكية لا تثبت إلا بإثبات الشارع وتقريره، أمر متفق عليه بين فقهاء الإسلام؛ لأن الحقوق كلها، ومنها حق الملكية لا تثبت إلاّ بإثبات الشارع لها، وتقريره لأسبابها، فالحق ليس ناشئًا عن طبائع الأشياء، ولكنه ناشئ عن إذن الشارع وجعله السبب منتجًا لمسببه شرعًا» انتهى.

ثانيًا: الأدلة من السنة المطهرة (الحديث الشريف):

الحديث الأول: قال سيدنا رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم: «إن الدنيا حلوة خضرة وإن الله مستخلفكم فيها، فناظر كيف تعملون».

[رواه الإمام البخاري والإمام مسلم والترمذي وابن ماجة].

وفي هذا الحديث الشريف ينبه أشرف الخلق سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم الناس جميعًا أن الدنيا ليست ملكًا لهم، وإنما هي

مملوكة لله سبحانه وتعالى، وما الناس إلا خلفاء له عليها، استخلفهم فيها، وينتظرهم إلى يوم لا ريب فيه يحاسبهم على النقير والقطمير. ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨] .

وإن من يقرأ القرآن الكريم والحديث الشريف يعلم أن «الدنيا» بالنسبة لكل إنسان تعني في النهاية «المال والولد»، يجد ذلك في قوله تعالى في سورة الكهف في الآية (٤٦) حيث يقول سبحانه وتعالى:

﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلاً﴾ [الكهف: ٤٦] .

وفصلت هذا المفهوم الآية الكريمة رقم (١٤) من سورة آل عمران، يقول الحق سبحانه وتعالى فيها: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ [آل عمران: ١٤] .

والمتأمل في هذه الآيات كلها يعلم أن كل هذه العناصر ليست من صنع الإنسان حتى يدعي ملكيتها، وأن الإنسان نفسه لم يصنع نفسه وإنما الذي صنعه وصنع كل هذه العناصر التي تتشكل منها دنياه هو الله رب العالمين، فما بال الإنسان يتجرأ ويدعي أنه يملك منها شيئًا.

والشاهد على ذلك ما جاء في القرآن الكريم في سورة القصص من قصة قارون في الآيات من (٧٦ إلى ٨٢) حيث يقول جل شأنه:

﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (٧٦) وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (٧٧) قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ

الْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ [القصص: ٧٦-٨٢] .

والذي يهمنا في هذا البحث أن نشير إلى ما قام به المجتمع من تنبيه قارون إلى حقيقة عمي عنها قلبه، هذه الحقيقة تكمن في أن ما بين يديه من مال وكنوز إنما هي مملوكة لله سبحانه، آتاه إياها ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ﴾ وكذلك يهمنا أن نشير إلى الجحود الذي ظهر باديًا للعيان فيما قاله قارون ردًا على نصيحة قومه، حيث قال لهم: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي﴾ فهو نسي أن هذه الأموال والكنوز مملوكة لله آتاه إياها، وليبلوه أيشكر أم يكفر؟ واتضح أنه تعس فكفر، فأصبح من الخاسرين، إذ خسف الله به وبداره الأرض ﴿فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ﴾.

لقد نال قارون جزاءه!! حكم به عليه الله الحكم العدل سبحانه وتعالى إزاء ما فعل من جريمتين من أفظع الجرائم:

الأولى: ظاهرة في عريضة الاتهام الكامنة في قوله تعالى: ﴿فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ﴾.

الثانية: عندما تكبر على الله وأسند الفضل في حصوله على هذه الثروة الماثلة في الكنوز ﴿مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ﴾ [القصص: ٧٦] إلى نفسه بناء على علم عنده، وجحد فضل الله سبحانه وتعالى عليه، عندما ذكر قومه بهذا الفضل البادي في هذه الثروة الهائلة، فقال: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي﴾، فكان جزاءه ما فعله الله - سبحانه- به وهو القاهر فوق عباده، والبارز في قوله تعالى: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ﴾.

وهناك زميل له لقي جزاءه بحكم الله وقهره ورد ذكره في سورة الكهف في الآيات من (٣٢) إلى (٤٤)، وإن كانت العقوبة التي حاق بها صاحب الجنتين أخفّ من العقوبة التي نزلت بقارون، حيث إن صاحب الجنتين قد فقدهما، كما هو واضح في الآية رقم (٤٢) التي قال الله فيها: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ [الكهف:٤٢] للفارق الموجود بين جريمته وجريمة قارون، ويبدو هذا الفرق واضحًا في التعليق القرآني على ما صار إليه كل منهما:

١ - التعليق على ما نزل بقارون وارد في الآية (٨٣) من سورة القصص، يقول الله سبحانه وتعالى فيها: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣] .

٢- التعليق على ما نزل بصاحب الجنتين الوارد في سورة الكهف في الآية (٤٤) يقول الحق عز وجل فيها: ﴿هُنَالِكَ الْوَلايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ [الكهف:٤٤] .

إذن فالمال الذي يتدفق في أيدي حامليه بكافة أنواعه هو مال الله سبحانه وتعالى مملوك له وحده، وهم مجرد حاملين له فقط مستخلفين عليه.

٢- الحديث الثاني:

عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ :

«يقول العبد مالي مالي، وإنما له من ماله ثلاث: ما أكل فأفنى، أو لبس فأبلى، أو أعطى فاقتنى، ما سوى ذلك فهو ذاهب وتاركه للناس» رواه مسلم.

هذا الحديث الشريف نتعلم منه الحقائق الآتية:

الحقيقة الأولى: وهي الغرض في هذا البحث أن المال في حقيقته مِلْكُ الله وليس يملكه أحد سواه، فإذا استودعه أحدًا من عباده فهو يكون قد استأمنه عليه، فيجب على هذا المودع لديه المال أن يخضع لرقابة الله سبحانه وتعالى

عليه، ولا يطلق لنفسه العنان فيتصرف فيه عشوائيًا، وإنما عليه أن يتيقن من أن الله سبحانه وتعالى حدّد له على سبيل الحصر الأوجه التي ينفق المال فيها وهي أن يأكل منه، أن يلبس منه، أن يتصدق منه.

ففي الوجهين الأول والثاني فإنه مقيد بأوامر الله سبحانه وتعالى ونواهيه وهي أن في غير سرف أو تبذير، فلا يأكل حتى يجوع، وإذا أكل فلا يشبع، متأسيًا في ذلك بأشرف الخلق سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم الذي وضع حكم الله سبحانه وتعالى في الأكل موضع التنفيذ، فقال ﷺ فيما أخرجه الإمامان مسلم والترمذي رضي الله عنهما عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال:

«يا أيها الناس!! إن الله طيب لا يقبل إلا طيبًا، وإن الله تعالى أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [المؤمنون: ٥١]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٢] ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر، يمدّ يده إلى السماء: يا رب يا رب ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام، وغذي بالحرام، فأنى يستجاب لذلك!!» [أخرجه مسلم والترمذي (الشيباني جـ٤ ص١٣٧، ١٣٨، وأحمد والدارمي)].

وقال عليه الصلاة والسلام:

«كُل، والبس، وتصدق، في غير سرف ولا مخيلة».

ففي هذين الحديثين ينفذ حضرة النبي صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم حكم الله عز وجل في الآية رقم (٣١) من سورة الأعراف التي يقول فيها:

﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١].

ثم قال عليه الصلاة والسلام في صراحة ووضوح:

«نحن قوم لا نأكل حتى نجوع، وإذا أكلنا لا نشبع».

وترى معي أيها القارئ الكريم أن الإسلام لم يترك صاحب المال يأكل كما يشاء إسرافًا وتبذيرًا، وإنما وضع الإسلام لذلك ضوابط تحفظ حقوق أفراد المجتمع في الطعام والشراب، إن حامل المال إذا ترك لغرائزه العنان، فإنه سيكون سببًا في فساد الغذاء من طعام وشراب، ذلك أنه حاز ما هو زائد عن حاجته فإنه لن يتناوله وليس أمامه في ذلك الوقت إلا تركه يلقى في صناديق القمامة، وقد يشعر أو لا يشعر أنه بذلك يكون قد حرم غيره وخاصة الفقراء والمساكين من هذا الطعام أو الشراب الذي يكون قد أنتن تعافه النفوس، وأصبح مرتعًا للجراثيم والميكروبات تنتشر به الأمراض والأدواء والعياذ بالله، وتتضرر منه البيئة، وكل ذلك يحصده ذلك المسكين سيئات تسود بها صفحاته التي تنشر له يوم القيامة، ويقال له: ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ⑬ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٣، ١٤].

أظن أنك أيها القارئ الكريم قد عرفت معي معنى قوله تعالى:

﴿إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١].

إن ترشيد الاستهلاك في الطعام والشراب واللباس يحفظ للفقراء حقهم، ويحفظ للبيئة نظافتها، ويحفظ لأفراد المجتمع صحتهم النفسية والجسمانية، فتبارك الله خير الحاكمين!!!

وإن القيود والضوابط التي تحدد له ما يأكل فلا يزيد في ذلك على ما تحدده وتحدد ما يلبس فلا يزيد عما يحدده لا تترك له إلا نسبة ضئيلة من ماله يتخيل أنه قد امتلكها، في حين يبقى من هذا المال معظمه يؤول إلى الورثة، وهم في بعض الحالات يكونون خصومه أو يؤول إلى المؤسسات الخيرية إذا لم يوجد له ورثة، ويسخر لخدمة الفقراء، ولا يكون له أجر؛ لأنه أولاً كان ينكر حق الفقراء، وثانيًا: لأنه لم يكن في ذلك نيته، فتفقد الصدق ركن النية، فهو قد تحقق له الشقاء ثمرة دانية مرة بسبب النكران والجحود، إذن فإن المال عند حامله في قبضة الله سبحانه وتعالى باعتباره مالكه في الحقيقة لم يسمح

لحامله إلا بجزء منه فقط: ﴿فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس: ٨٣].

إن المسلم السعيد في هذه الحياة الدنيا هو الذي يعتقد اعتقاداً جازمًا أن ما بين يديه من مال إنما هو في الحقيقة هو مال الله عز وجل، وبالنسبة له شخصيًا فهو عبد لله سبحانه وتعالى، وأن العبد وما ملكت يداه لسيده فهو مكلف بالتصرف في هذا المال على وفق إذن الشرع الحنيف، إذ إنه يعتبر الوكيل والنائب والخليفة، وأن مثوله بين يدي الله المالك الملك المليك يوم الدين قادم لا ريب فيه.

إن المسلم السعيد يستشعر هذا كله، فيكون على حذر في تصرفاته، ويتحرّر من هذا المال مهما كثر، ويسلطه على وجوه البر والخير مبتغيًا وجه الله الكريم، وطالبًا رضاه.

عرف صحابة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم ورضي الله عنهم أجمعين- ذلك فقدموا للإنسانية من أنفسهم مُثلاً عليا، وجعل كل واحد منهم من نفسه قدوة حسنة، وفعلاً أصبحوا بذلك مصابيح الهدى، وأعلام التقى، وإني أقدم للقراء مثلين في هذا المقام مكتفيًا بذلك على وعد بتقديم أمثلة أخرى في الصفحات القادمة إن شاء الله تعالى.

المثال الأول

قال أمير المؤمنين عمر ﷺ: أمرنا رسول الله ﷺ أن نتصدق، فوافق ذلك مالاً عندي، فقلت اليوم أسبق أبا بكر إن سبقته يومًا فجئت بنصف مالي، فقال رسول الله ﷺ: «ما أبقيت لأهلك؟ فقلت: مثله»، وأتى أبو بكر ﷺ بكل ماله فقال له رسول الله ﷺ: «ما أبقيت لأهلك؟» فقال: أبقيت لهم الله ورسوله ﷺ، فقلت: لا أسابقك إلى شيء أبداً».

[رواه أبو داود، كتاب الزكاة، باب في الرخصة برقم (١٦٨٧) (٢/ ٢١٣)، والترمذي كتاب المناقب - باب في مناقب أبي بكر وعمر ﷺ كليهما برقم (٣٦٧٥) و(٥/ ٦١٤، ٦١٥) وقال: حديث حسن صحيح، والدارمي كتاب الزكاة، باب الرجل يتصدق بجميع ما عنده (١/ ٣٩١، ٣٩٢)].

المثال الثاني:

عن أنس ﷺ قال: «كان أبو طلحة أكثر الأنصار بالمدينة مالاً من نخل، وكان أحب أمواله إليه بيرحاء، وكانت مستقبلة المسجد، وكان رسول الله ﷺ يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب، قال أنس: فلما نزلت هذه الآية: ﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢] قام أبو طلحة إلى رسول الله ﷺ فقال: يارسول الله!! إن الله تبارك وتعالى يقول: ﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ وإن أحب أموالي إليّ بيرحاء، وإنها صدقة، أرجو برّها وذخرها عند الله!! فضعها يارسول الله حيث أراك الله!! ، قال: فقال رسول الله ﷺ : «بخ !! ذلك مال رابح، ذلك مال رابح».

[رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي مختصراً]. بيرحاء: بكسر الباء وفتحها ممدوداً اسم لحديقة كانت لأبي طلحة ﷺ صحابي من الأنصار.

هذا فارس من فرسان الخير والحبّ والسلام، تلميذ من تلاميذ أشرف الخلق سيدنا محمد ﷺ نقدمه بلا تعليق، بل نترك لكلماته المضيئة التي حدّث بها حبيبه ونبيه وأستاذه وهاديه إلى الصراط المستقيم، هذه الكلمات التي تشهد له وتشهد لسيدنا محمد ﷺ الذي ربّاه فأحسن تربيته، بشرف القصد، وشرف السلوك وشرف الغاية، وكل ذلك كنز للمسلمين عظيم، وخير للإنسانية عميم. رضي الله تعالى عن سيدنا أبي طلحة، وصلى الله وسلم على أشرف الخلق سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وذريته أجمعين.

وهذان المثالان قدمتهما لأنهما يمثلان المسلمين في صدر الإسلام عندما بزغ فجره فأضاء الوجود، فالأول يمثل المهاجرين، والثاني يمثل الأنصار، والمهاجرون والأنصار هما جناحا الإسلام اللذان حلّق بهما في سماء الوجود، فعم نوره المشرقين والمغربين.

الأول : سيدنا أبو بكر الصديق رضي الله عنه وأرضاه قدم ماله كله لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم مبتغيًا في ذلك مرضاة الله

سبحانه وتعالى، وليس غريبًا علمه فهو أول من آمن وهو ثاني اثنين إذ هما في الغار، وقال فيه الله سبحانه تعالى في سورة الليل في الآيات من (١٧ إلى ٢١):

﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الأَتْقَى ﴿١٧﴾ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ ﴿١٩﴾ إِلاَّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾ [الليل: ١٧-٢١].

وأما الثاني: هو من مقدمة الأنصار الذين عودونا على العمل الصالح، والسخاء الغامر، والكرم بلا حدود، والحب الذي لا يخبو أبدًا، بل يتوهج ليبث في عروق المجتمع الإسلامي الحياة تتدفق على أرض الإسلام فتكسبها الخصب والنماء، فتحيا القلوب بذكر الله سبحانه وتعالى، وترفع السواعد المؤمنة راية الإسلام في سماء الوجود، مكتوب عليها أحرف النور مجتمعة في كلمة «لا إله إلا الله، محمد رسول الله».

وفي الإشارة بهم وبأمجادهم نقرأ كلمات الله سبحانه وتعالى تسطع في سورة الحشر برقم (٩)، يقول الله سبحانه وتعالى فيها:

﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].

وفي الفريقين نقرأ الآية الكريمة التي تسطع في سورة التوبة برقم (١٠٠) حيث أشاد القرآن الكريم بهم حيث يقول سبحانه وتعالى:

﴿وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

هنيئًا لهم جميعًا هؤلاء المهاجرين والأنصار الذين شملتهم الآية الكريمة حيث عاينوا هذه الجنات تجري من تحتها الأنهار معاينة يقينية تنفي كل جهالة

بمقتضى هذه الآية الشريفة، وخلدوا فيها، وذلك هو الفوز العظيم، اللهم ألحقنا جميعًا بهم يا حيّ يا قيوم ، آمين، وصلِّ اللهم وسلم وبارك على سيدنا محمد النبي الأميّ، وعلى آله وأصحابه أجمعين.

سيبقى هؤلاء الصحابة من المهاجرين والأنصار مثلاً عليا، وقادة حكماء لمسيرة الإنسان المسلم على أرض الوجود، يسير فيها المصلحون مترسمين خطاهم، مقتدين بهم، مقتفين آثارهم، عارفين لأقدارهم، مطمئنين على مصيرهم إلى ما صاروا إليه من عفو ربهم وإلى نوالهم ما نالوا من كريم نزلهم، وحسن قبول الله لهم، ويبعث اليقين في صدورهم من هذا النوال لتابعيهم المحبين لهم، السائرين على دربهم، وهم يدعون الله بهذا الدعاء الذي سمعه الله منهم في قوله تعالى في سورة الحشر الآية (١٠) حيث يقول:

﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠].

❁❁❁

الفصل الثالث
شروط صحة الصدقة

أن يتصدق المسلم ويرجو من وراء هذه الصدقة قبوله عند الله، فلابد من توافر شروط معينة في هذا المال المتصدق به.

ومن هذه الشروط:

الشرط الأول: أن يكون هذا المال حلالاً من كسب حلال:

المال الحلال هو وعاء الصدقة المعتبر شرعًا، وهو أصل القبول عند الله سبحانه وتعالى، ولا يجوز التصدق بالمال الحرام. ومؤدى ذلك أن يكون صاحب الصدقة قد ملك هذا المال بسبب مشروع، فإن لم يكن كذلك فلا ينتظر القبول من الله سبحانه وتعالى، والسند في ذلك ما يأتي:

أولاً: القرآن الكريم:

قال الله سبحانه وتعالى في سورة البقرة في الآية رقم (٢٦٧):

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَلا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلاَّ أَن تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [البقرة: ٢٦٧].

يقول الإمام الجليل شيخنا الأستاذ محمد أبو زهرة في تفسير هذه الآية الشريفة (زهرة التفاسير) الجزء٢، ص٩٩٦:

«ابتدأ سبحانه بالنداء بالبعيد للدلالة على عموم النداء للمؤمنين لبيان أن من أخلاق أهل الإيمان أن يتصدقوا من الطيب لا من الخبيث، ومما تحبه النفس لا مما تزهد فيه، فليس من مقتضيات الإيمان في شيء أن يجيء الرجل إلى

أخبث ماله أو الخبيث فينفق منه لزهادته فيه، ولرغبته عنه وعدم اتجاهه إلى الانتفاع به؛ إذ لا يكون فيه معاناة لعمل الخير، ولا مصابرة في إرادته، ولا جهاد نفسي للحمل على الفعل والأجر على قدر كف النفس عن الهوى، ومشقة لإرادته في التغلب عليه».

وما المراد بالطيب؟

للعلماء في ذلك منهجان: قال بعضهم: إن المراد بالطيب الحلال: أي أن الإنفاق الذي يقبله الله سبحانه وتعالى هو الإنفاق من المال الحلال الذي كسب من طريق حلال، فإن الله سبحانه وتعالى لا يقبل إلا طيبًا، ولا يريد من العبد إلا خيراً.

فمن كان يريد بعمله وجه الله تعالى فلا يكسب إلا حلالاً، ولا ينفق إلا من حلال. ولقد روى الإمام أحمد ﵀ في ذلك أن رسول الله ﷺ قال:

«إن الله قسَّم بينكم أخلاقكم، كما قسَّم بينكم أرزاقكم، وإن الله عز وجل يعطي الدنيا لمن يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الدين إلا لمن أحبّ، فمن أعطاه الله الدين فقد أحبه، والذي نفسي بيده لا يسلم عبد حتى يسلم قلبه ولسانه، ولا يؤمن حتى يأمن جاره بوائقه، قالوا: وما بوائقه يا رسول الله؟ قال: غشه وظلمه. ولا يكسب عبد مالاً من حرام فينفق فيبارك له فيه، ولا يتصدق به فيقبل منه، ولا يترك خلف ظهره إلا كان زاده إلى النار، إن الله لا يمحو السيء بالسيء، ولكن يمحو السيء بالحسن، إن الخبيث لا يمحو الخبيث»

[رواه الإمام أحمد رقم ٣٤٩٠ في مسنده عن سيدنا عبدالله بن مسعود رضي الله عنه].

وعلى هذا التخريج يكون الاتجاه في الآية هو الحثّ على الإنفاق من الحلال دون الحرام، ويكون بالنتيجة اللازمة الحثّ على طلب الحلال؛ لأنه إذا كان الكسب الحرام لا يقبل في الصدقات، فأولى أن يكون الأكل منه إثمًا يلقى في نار جهنم، ومن يأكل منه كمن يأكلون في بطونهم ناراً.

فيكون على هذا القول المرمي يتجه إلى أمرين: الحث على طلب الحلال في الإنفاق، والحث على طلب الحلال من المكاسب دون المآثم منها.

هذا هو القول الأول في تفسير الآية وهو كلام في ذاته صحيح تؤيده الأحاديث والمعاني الدينية المقررة الثابتة، ولكنه لا يتفق مع سياق الآية، ولا موضوعها، ولا معنى كلمة الطيب في مقامها، ولذلك رجح أكثر العلماء التفسير الثاني لمعنى الطيب، وهو أن المراد به الجيد في نفسه؛ لأن كلمة طيب على وزن فَيْعل من طاب وهو ما تستطيبه النفس وتتجه إليه وتطلبه، وإن ذلك هو الأصل في معنى طيب، ولذا جاء في مفردات الراغب الأصفهاني ما نصه: «أصل الطيب ما تستلذه الحواس، وما تستلذه النفس».

وإطلاق الطيب بمعنى الحلال عرف إسلامي، لا معنى لُغوي لأن الله سبحانه لا يبيح إلا ما كان طيبًا في ذاته تستسيغه النفوس السليمة المستقيمة، ولا يحرم عليهم إلا ما كان خبيثًا في ذاته تعافه النفوس السليمة، فالله سبحانه وتعالى يحل الطيبات، ويحرم الخبائث، كما ورد بذلك النص القرآني الكريم.

وإن تفسير النص بذلك، وهو أن الطيب المستطاب المحبّب للنفس هو الذي يبدو بادي الرأي من الآية الكريمة فوق أنه الذي يتفق مع المعنى اللغوي، ولقد فسره ابن عباس ﷺ بذلك. فقد روي عنه أنه قال: أمرهم بالإنفاق من أطيب المال وأجوده وأنفسه، ونهاهم عن التصدق برذالة المال ودنيئه وخبيثه: «فإن الله طيب لا يقبل إلا طيبًا».

وعلى هذا المعنى المستقيم يكون توجيه الآية الكريمة:

إن الله سبحانه وتعالى يحثّ المنفقين على أن ينفقوا من الطيب النفيس، ابتغاء وجه الله تعالى، ولأن البرّ هو في إنفاق الإنسان مما يحب لا مما يبغض. ولقد قال سبحانه وتعالى: ﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢]، وقال تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ [الإنسان: ٨].

ولقد نهى النبي ﷺ المؤمنين عن أن يطعموا الفقراء إلا مما يطعمون، فقال ﷺ : «لا تطعموهم مما لا تأكلون».

[رواه أحمد في مسنده عن السيدة عائشة رضي الله عنها ٢٣٧٧٠]

وقال في خبر الصدقات: «أن تصدق وأنت صحيح شحيح ترجو الغنى وتخشى الفقر».

[رواه البخاري: الزكاة، فضل صدقة الصحيح الشحيح (١٣٣)، ومسلم (١٧١٣)]

هذا هو المعنى الصحيح الذي اختاره جمهور العلماء لهذا النص الكريم، وهو المعنى القويم الذي يتفق مع سياق الآية وموضوعها. ويزكيه قول الله تعالى: ﴿مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الأَرْضِ﴾. انتهى كلام شيخنا الجليل الإمام محمد أبو زهرة رحمه الله رحمة واسعة.

وإني - واستغفر الله سلفًا- أقول لا مانع من الأخذ بالتفسيرين بمعنى أن يكون المال وعاء الصدقة حلالاً من كسب حلال طيبًا لا يصيبه خبث يجعل النفس تعافه، ويبدو المتصدق وكأنه يتخلص من خبثه بالصدقة فيحرم الأجر والثواب.

وبهذا الجمع بين الحسنيين (طهارة المال وعاء الصدقة من دنس الحرام، ونقائه من الخبث الذي تعافه النفوس) يتحقق الكمال في العطاء، ويرجى له من الله القبول بفضله ورحمته.

إن المعنى المستفاد من هذا النص الكريم في الآية السامية تقرؤه روح المؤمن ويستوعبه قلبه، فيعلم المؤمن على وجه اليقين، أن يد الله سبحانه وتعالى في حالة الصدقة المقبولة، تكون قد سبقت يد المتصدق بأن منحت المتصدق هذا المال الحلال وعاء الصدقة رزقًا حلالاً طيبًا، وتكون قد سبقت يد السائل بأن تناولت الصدقة، وفي الحالتين يجب أن يكون المال طيبًا.

قال سيدنا رسول الله ﷺ : «لأن يتصدق أحدكم بتمرة من كسب طيب إلا أخذها الله بيمينه، فيربيها كما يربي أحدكم فلوه، أو فصيله حتى تكون مثل الجبل الأعظم».

[رواه بهذا اللفظ الإمام أحمد (٩٠٦٤) عن أبي هريرة رضي الله عنه، وبنحوه أيضًا رواه الإمام البخاري - الزكاة (١٣٢١)، والإمام مسلم (١٦٨٢)].

تعريف المال الحلال:

المال الحلال يدخل ذمة المؤمن بسببين:

السبب الأول:

بنشاط المؤمن وحده واجتهاده في طلبه من الأبواب المشروعة التي يمكن الله سبحانه وتعالى عبده من الأخذ بأسبابها باعتباره سبحانه وتعالى هو الرزاق ذو القوة المتين.

فالعبد يسعى على رزقه بالضرب في الأرض في الصناعة والزراعة والتجارة والمهن الحرة من الطب والهندسة والتمريض، والوظائف (العمل الأجير) في الحكومة والقطاعين العام والخاص. وكذلك الحرف من السباكة والنجارة والحلاقة ونحت الأحجار والصخور وغير ذلك مما يعتمد على جهد الإنسان سواء كان جهدًا بدنيًا أو ذهنيًا أجيراً كان عاملاً لحساب نفسه، أو جامعًا بين الذهن والمال وهكذا.

وقد أثنى سيدنا رسول الله ﷺ على كسب الإنسان من عمل يده، فقال ﷺ : «ما أكل ابن آدم طعامًا خير من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داود كان يأكل من عمل يده».

[رواه الإمام البخاري في البيوع، كسب الرجل وعمله بيده (١٩٣٠) بلفظ «ما أكل أحد»].

وفي هذا الحديث نرى أشرف الخلق سيدنا محمد ﷺ يعلي من قدر العمل الإنساني، ويرفع من شأن الإنسان العامل، ولا غرو، فإن العمل الإنساني هو أساس الحضارة وسبب التقدم، وعماد الازدهار.

إن الفلاح في حقله، والصانع أمام آلته، والمهندس بمسطرته، والعالم بمخباره وبوتقته، والطبيب بوسيلة فحصه، كل هؤلاء هم فريق العمل لإرساء حضارة الإنسان، أموالهم التي يكسبونها بكدّهم وعرقهم هي أطهر الأموال وأزكاها. فإذا آتوا منها الزكاة وقدموا الصدقات، فإن أموال الزكاة والصدقات

تكون أشرف الأموال التي تحقق للمجتمع التواصل والتكافل وهما يتولد عنهما الحبّ والسلام.

السبب الثاني الذي به يحصل المتصدق على المال:

وهو ما يخرجه الله سبحانه وتعالى من الزروع والثمار يكون منهما غذاء الإنسان من طعام وشراب تحملهما أعواد القمح والأذرة والأرز والبقول بأنواعها، وكذلك الفواكه الطيبة مما ضرب القرآن الكريم بها المثل في سورة عبس في الآيات من (٢٤) إلى (٣٢) يقول الله سبحانه وتعالى فيها:

﴿فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ (٢٤) أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا (٢٥) ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقًّا (٢٦) فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (٢٧) وَعِنَبًا وَقَضْبًا (٢٨) وَزَيْتُونًا وَنَخْلاً (٢٩) وَحَدَائِقَ غُلْبًا (٣٠) وَفَاكِهَةً وَأَبًّا (٣١) مَتَاعًا لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ﴾ [الأحزاب: ٢٤-٣٢] .

وكذلك ما ذكره الله في الآية رقم (٦٠) في سورة النمل حيث يقول سبحانه وتعالى:

﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ [النمل: ٦٠] .

٣- ما جاء في سورة البقرة في الآية رقم (٢١،٢٢) حيث يقول الله سبحانه وتعالى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٢١) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١،٢٢] .

٤- وفي الآية (٩٩) من سورة الأنعام حيث يقول سبحانه:

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ

وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ٩٩] .

٥- وفي الآيتين من (١٠،١١) من سورة النحل يقول الحق جل وعلا:

﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ⑩ يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١٠،١١] .

٦- وفي الآية رقم (١٤١) من سورة الأنعام يقول الله سبحانه:

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأنعام: ١٤١] .

٧- والآيتان (٣ و٤) من سورة الرعد حيث يقول الحق عز وجل:

﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ③ وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد: ٣،٤] .

وأما الصناعة فقد ورد ذكرها في القرآن الكريم في مواضع متعددة:

١- في الآيتين رقـمي (١٢٨، ١٢٩) من سـورة الرعد حـيث يقـول الله سبحـانه وتعـالى: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ⑫⑧ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ [الشعراء: ١٢٨،١٢٩] .

٢- في الآية (٨٠) من سورة الأنبياء يقول الحق سبحانه: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٨٠] .

٣- الآية (١٣٧) من سورة الأعراف يقول الحق سبحانه: ﴿وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٧].

٤- الآية (٣٧) من سورة هود، يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ [هود: ٣٧]

- الصيد:حرفة صحبت الإنسان من زمن قديم، لجأ إليها ليشبع حاجته إلى الطعام والكساء، ونتكلم عن نوعين منه هما البارزان في مسيرة الإنسان منذ أن درج على الأرض في أول خطواته عليها. هذان النوعان هما:

أ- صيد البر: وهو تقريبًا أول ما لجأ إليه الإنسان ليشبع حاجته إلى الطعام، وقد ورد ذكره في القرآن الكريم على الوجه الآتي:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الأَنْعَامِ إِلاَّ مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ۝١ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلا الْهَدْيَ وَلا الْقَلائِدَ وَلا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [المائدة: ١، ٢].

٢- الآيتان رقم (٩٤، ٩٥) من سورة المائدة، يقول الله سبحانه وتعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٩٤ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾ [المائدة: ٩٤، ٩٥].

﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [المائدة: ٩٦] .

وفي صيد البحر يقول الحق عزَّ وجلَّ في سورة فاطر في الآية رقم (١٢):

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [فاطر: ١٢] .

وعلى ذلك يكون صيد البر وصيد البحر من الكسب الحلال ويجوز التصدق منه إلا ما حرمه الله بنص صريح كما ورد في سورة المائدة.

ونلاحظ على السرد السابق من مصادر الكسب الإنساني ما يأتي:

أولاً: إن هذا السرد ليس حصريًا، وإنما هو على سبيل المثال.

ثانيًا: إن الله سبحانه وتعالى قد أضاف الكسب إلى عباده في نوع منه، وأضاف إليه سبحانه نوعًا آخر منه باعتبار أن الواضح في الأول جهد العبد نفسه، وأما الثاني فهو واضح فيه قدرة الله سبحانه وتعالى وحده وعمله بالذات.

ففي الأول أسند الكسب إلى الإنسان ليحثه على ما أراده منه من السعي في عمران الأرض وحسن خلافته لله في هذا السبيل، والله سبحانه وتعالى بهذا يبعث الثقة بالنفس في عبده حتى يتحقق رضاه عن نفسه، وإيمانه بأنه أصبح صاحب رسالة مكلفًا من الله سبحانه بالقيام بها. وهذا في ذاته محض فضل من الله على عباده، وفي الحقيقة فإن الله سبحانه هو الفاعل كما هو ثابت في قوله سبحانه في الآية رقم (٩٦) من سورة الصافات ، يقول الحق فيها:

﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦] .

وفي بعض الأحوال نجد أن الله سبحانه وتعالى يضيف العمل إليه وحده مع ظهور جهد للعباد في شأن هذه الأعمال. وذلك يظهر جليًا فيما

يتعلق بالزراعة، نجد الآيات الكريمة رقم (٦٣-٦٧) من سورة الواقعة حيث يقول سبحانه وتعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ (٦٣) أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ (٦٤) لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ (٦٥) إِنَّا لَمُغْرَمُونَ (٦٦) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ [الواقعة: ٦٣-٦٧] .

وبالنسبة للماء يقول الحق عز وجل في سورة الواقعة أيضًا في الآيات من (٦٨-٧٠): ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ (٦٨) أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ (٦٩) لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ [الواقعة: ٦٨-٧٠] .

وبالنسبة للنار يقول الله سبحانه وتعالى في سورة الواقعة في الآيات من (٧١-٧٣):

﴿ أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ (٧١) أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ (٧٢) نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِّلْمُقْوِينَ﴾ [الواقعة: ٧١-٧٣] .

ويعقب الله سبحانه وتعالى على كل ذلك بقوله في الآية رقم (٧٤) من نفس سورة الواقعة: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ [الواقعة: ٧٤] .

ومن البيان السابق يتضح لنا بجلاء أن الله سبحانه وتعالى يتفضل على الإنسان ويشعره بأن له دورًا في عمارة الأرض وتنمية الحياة، وازدهار الحضارة، وهذا الدور للإنسان ثابت بالقرآن الكريم، موثق في آياته وأحكامه ويكفي الإنسان شرفًا أن يظهر الله سبحانه وتعالى بأن له هذا الدور العظيم وأن يبوأه بذلك منصبًا رفيعًا، ومقامًا عليًا، وهذا المنصب العظيم والمقام العالي هو خلافته لله في الأرض الثابتة في الآية الشريفة رقم (٣٠) من سورة البقرة يقول الحق سبحانه وتعالى فيها:

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠] .

ومن عدل الله ورحمته سبحانه وتعالى أنه سلَّح هذا الخليفة بالعلم ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ وعقد سابقة بينه وبين الملائكة ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى المَلائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ فاعتذر الملائكة و قالوا: ﴿سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾. وعند ذلك ﴿قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [البقرة: ٣٣].

لقد بوأ الله آدم منصب الخلافة وأورثه لبني آدم، وعقد له لواء العلم والإيمان، فأصبح صالحًا لتكليفه بالواجبات وورث بنو آدم الخلافة والعلم والإيمان والواجبات والتكليف بأداء هذه الواجبات يعني المسئولية.

فبالنسبة لهذه المسئولية: فإن الله قد شرع في الأموال التي أتاح لبني آدم السيطرة عليها بامتلاكها حقًا معلومًا للفقراء والمساكين.

وإذن فهذه الأموال التي يكسبها العبد، ويتداولها مع غيره من الناس مثقلة بحق السائل والمحروم، قال تعالى في سورة الذاريات في الآية رقم (١٩):

﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ [الذاريات: ١٩].

وقال في سورة المعارج في الآيتين رقم (٢٤،٢٥):

﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ (٢٤) لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ [المعارج: ٢٤،٢٥].

أصبح واضحًا أمام القارئ المشهور من مصادر الأموال التي يتكون منها وعاء الصدقات، ووضح معها الشرط الأول وهو أن تكون من كسب حلال.

حكم التصدق بالحرام؟

إن الله سبحانه وتعالى لا يقبل الصدقة إذا كان مصدرها حرامًا ذلك سنده في الشرع الحديث الشريف الذي [رواه الإمام مسلم في كتاب الزكاة- باب قبول الصدقة من الكسب الطيب وتربيتها رقم (٦٥) (٢/ ٧٠٣) والترمذي كتاب تفسير القرآن - باب ومن سورة البقرة رقم ٢٩٢٨ (٥/ ٢٢٠)، وأحمد في المسند (٢/ ٣٢٨)، والدارمي، كتاب الرقاق باب في أكل الطيب (رقم ٢٧٢٠) (٢/ ٢١٠)]

يقول فيه سيدنا رسول الله ﷺ :

«أيها الناس!! إن الله طيب لا يقبل إلا طيبًا ، وإن الله تعالى أمر المؤمنين بما أمر المرسلين ، فقال عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [المؤمنون: ٥١] ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر ، يمد يديه إلى السماء: يا رب !! يا رب!! ومطعمه حرام ، ومشربه حرام ، وملبسه حرام ، وغذي بالحرام ، فأنى يُستجاب له». [رواه مسلم].

وقال ﷺ : «من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب ، ولا يقبل الله إلا الطيب ، فإن الله تعالى يتقبلها بيمينه ثم يربيها لصاحبها ، كما يربي أحدكم فلوه ، حتى تكون مثل الجبل» .

[البخاري، كتاب الزكاة ، باب لا يقبل الله صدقة من غلول إلا من كسب طيب (٢ / ١٣٤) ، وكتاب التوحيد باب قول الله تعالى : ﴿ يوم تعرج الملائكة والروح إليه ﴾ [المعارج : ٤) ، (٩ / ١٥٤) ، ومسلم، كتاب الزكاة ، والترمذي، كتاب الزكاة ، باب ما جاء في فضل الصدقة ، وابن ماجة في كتاب الزكاة] .

الشرط الثاني: نقاء الصدقة من المن بها واتباعها الأذى واختلاطها بالرياء:

المنّ بالصدقة والأذى الذي يلحقه المتصدق بالمتصدق عليه، والرياء الذي يختلط بها كل هذا من مبطلات الصدقة، ومن الآفات التي تفرضها لدرجة الانعدام، وفي ذلك يقول الله سبحانه وتعالى في الآية رقم (٢٦٤) من سورة البقرة التي كشفت هذه الآفات الثلاث التي تعدم الصدقة وتصمها بالبطلان، ويقول الله سبحانه وتعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَىٰ كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لاَّ يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٦٤] .

يقول الإمام الشيخ محمد أبو زهرة رحمه الله رحمة واسعة في كتابه «زهرة التفاسير» الجزء الثاني ص ٩٧٩: «هذا نهي صريح واضح عن المن

والأذى، وقد تضمن هذا النهي الحاسم أن الصدقات يبطلها المن والأذى، ولا يكون له أجر من الله، ولا يكون لها شكر ممن أسدى إليه، سواء أكان الإنفاق في سبيل النفع العام، أم كان لبعض آحاد الأمة بسد الخلة، ودفع الحاجة. وقد أكد سبحانه النهي عن المن والأذى بثلاث توكيدات:

أولها: تصدير الآية الكريمة بنداء للبعيد، وفي ذلك فضل مبين، وبأن النداء للذين آمنوا، وفي هذا إشعار بأن الأذى في الصدقات ليس من صفات أهل الإيمان، إنما هو من صفات أهل الصلف والكبرياء والذين يمنون على الله وعلى الناس إن فعلوا الخير، وليست الكبرياء والاستطالة من صفات المؤمنين.

وثانيها: أنه صرح سبحانه وتعالى بأن المن يبطل الصدقة، ولا يجعل لها ثوابًا عند الله، ولا شكراً عند الناس، ولذا قال ﷺ :

«إياكم والامتنان بالمعروف؛ فإنه يبطل الشكر، ويمحو الأجر».

[ذكره القرطبي في تفسيره عن ابن شيرين رضي الله عنه]

وثالثها: أنه سبحانه وتعالى جعل المنفق مع المن والأذى كالمنفق رئاء الناس والمنفق للرياء والسمعة مشرك شركًا خفيًا. ولذا وصف سبحانه وتعالى الذي ينفق ماله رئاء الناس بأنه لا يؤمن بالله واليوم الآخر، فأفعاله كقلبه، وقلبه ليس قلب مؤمن يؤمن بالله واليوم الآخر، وإذا كان المنفق الذي يتبع صدقته بالمنِّ والأذى مثله، فإن إبطال الصدقات أقل ما يناله». انتهى كلام الإمام أبو زهرة رحمه الله .

إن المانَّ بما أعطى الذي يؤذي المتلقي للصدقة يصدر عن استعلاء واستطالة على الفقير والمسكين واليتيم والأرملة، ويتسبب لهم بالشعور بالهوان والذل والدونية، هذه المشاعر السلبية التي تتطور في وجدانه فتصبح سخطًا من القضاء الذي أصابهم بالفقر والفاقة اللذين دفعاه إلى المنفق يتجرعون من تصرفاته من غسلين الذل والضّعة ما يُسَعِّر في قلوبهم نار الحقد والبغضاء، وربما يجعل ذلك

منهم وحوشًا كاسرة تنقض عليه وعلى أمثاله ليلاً فلا يتركون له حتى الغطاء الذي يتدثر به ليلاً في الشتاء، أو أنهم يشعلون النار في منزله فتأكل النار في بيته الأخضر واليابس (!!!) والعياذ بالله، من هنا فإن الله سبحانه وتعالى بهذه الآية قد وضع في فم المتصدق ما يمنعه من المنِّ والأذى.

وقد صور الله حالة هذا المانّ تصويراً يجعل الذي يمن على الله وعلى الناس، فقال سبحانه وتعالى في نفس الآية: ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لاَّ يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا﴾ [البقرة: ٢٦٤] .

هذه الصورة التي ضرب بها الله سبحانه وتعالى المثل للذي يمن بالصدقة تجعل كل من يمن بما يعطي يفكر ألف مرة، وإلاّ فإنه سيكون مصيره هذا الهوان والتهوين الذي ينتظره إذا أصر على المن والأذى، يقول الشيخ الجليل الإمام محمد أبو زهرة في كتابه (زهرة التفاسير)، الجزء الثاني ص٩٨٠:

«إن الغنى والفقر أمران لا يخلو الوجود منهما، ولا يمكن أن تخلو أمة من غني وفقير، مادامت القوى متفاوتة، والفرص لا تواتى الجميع بقدر واحد، والأقدار لا تسعف الجميع في زمن واحد، ومادامت تلك حقيقة مقررة، فعمل الشرائع هو تخفيف ويلات الفقر، ومنع استطالة الغني، ولقد قال أبو بكر الصديق ﷺ: «إن الله امتحن عباده بالفقر، وأمرهم بالصبر، وامتحن الأغنياء بالمال، وأمرهم بالعطاء».

«ولقد شبه سبحانه وتعالى المن والأذى بالرياء في الصدقة كما أشرنا فقال: ﴿كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ [البقرة: ٢٦٤] .

وفي هذا التشبيه إشارة إلى أن الذي ينفق رئاء الناس، أي لأجل الرياء والسمعة وأن يقول الناس: إنه سخي جواد، أو لتملق ذي جاه- أسوأ حالاً عند الله من ذي المن والأذى؛ لأن المشبه به أقوى دائمًا من المشبه. ولقد ذكر سبحانه وتعالى حال المرائي بنقضه على أنه أمر مقرر سوءه. وليس في حاجة

إلى بيان؛ لأنه لا اشتباه في بطلان ما أنفق؛ إذ إنه ما قصد الخير حتى يبطل قصده. فالفرق بينه وبين الأول أن الأول قصد الخير واحتسبه، ولكنه أفسد عمله بما خالطه به من مَنٍّ وأذى، أما الثاني وهو المرائي فلم يقصد خيراً قط، حتى يبطله سواه؛ فشبه سبحانه حال قاصد الخير المنان في إبطال عمله بحال من لم يقصد خيراً قط. بل الرياء والسمعة، وهو من فعل الشرك الخفي، فقد قال النبي ﷺ : «من صلى يُرائي فقد أشرك، ومن صام يرائي فقد أشرك، ومن تصدق يُرائي فقد أشرك».

وبهذا الفارق الجوهري بين المنفق المنان، والمنفق رئاء الناس ذكر الله عمل الأول بأنه صدقة، فقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَىٰ﴾ [البقرة: ٢٦٤] ، ولم يصف عمل الثاني بأنه صدقة، ولا في سبيل الله، ولذا قال سبحانه: ﴿كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ﴾ [البقرة: ٢٦٤] فما الصدقة ابتغاها، ولا الخير الذي أراده، بل الشر كلّ الشر ما عمله.

ويواصل الإمام الجليل الشيخ أبو زهرة رحمه الله رحمة واسعة شرحه:

﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لاَّ يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا﴾ [البقرة: ٢٦٤] فيقول في (ص٩٨١):

«هذا تشبيه جديد، وقبل أن نذكر التشبيه ووجه الشبه نذكر معنى هذه الألفاظ: صفوان، وصلد، ووابل. فالصفوان: اسم جنس جمعي لصفوانه كشجر وشجرة وهو الحجر الأمس. وقال الأخفش: إن صفوان مفرد كحجر. والصلد: معناه الأجرد النقي، وقد قال الكسائي فيه: إنه (من صَلَدَ يصلد صلداً، وهو ما لا ينبت شيئًا، وقد قال النقاش الأصلد: الأجرد الذي لا ينبت شيئًا، والوابل: هو المطر الشديد، وقد وبلت السماء تبل الأرض موبولة».

والآن نذكر المشبّه به في الآية الكريمة؛ ويبدو بادي الرأي، أن التشبيه بين الذي ينفق ماله للرياء والحجر الصفوان الأملس الذي يكون على ظاهره قليل من

التراب الذي يبدو به خصبًا، ووجه الشبه هو ظاهر الخصب الذي يبدو على ظاهر الحجر، ثم انكشافه بمطر وابل وظهور حقيقته، وهو أنه لا يمكن أن يكون منبتًا، فالمعنى أن حال من ينفق للرياء والظهور بمظهر البر المعطي، وهو لا يقصد وجه الله تعالى ولا يبتغي رضاه، بل ينفق ليرائي الناس، هي كحال حجر أملس لا ينتج شيئًا، ولا ينبت نباتًا، ولكن عليه ظاهر من التراب يوهم الناظر إليه أنه خصب منتج، ثم تبين حاله بمطر يزيل ما ستره، ويكشف حاله، فالمرائي لا إنتاج لعمله مطلقًا كالحجر». انتهى كلام الإمام أبو زهرة رحمه الله.

إنَّ المنَّان والمرائي محرومان من الأجر والثواب، فالمنّان يؤذي الناس بمنه، والمرائي نسي الله فلم يتعامل معه، وذكر الناس فعاملهم. عندما نسي الله سبحانه وتعالى لم تصل صدقته إليه سبحانه، وإنما سقطت من حسابه. كالذي يتطوع بجزء من ماله بمقابل يكافؤه به المجتمع، فأن ينتخبه في المؤسسات التشريعية ومنها مجلس الشعب، فإن لم يحصل على هذا الهدف استرد تبرعه.

ولقد لاحظ صاحب الفضيلة الشيخ محمد محمد المدني عميد كلية الشريعة بالأزهر الشريف على تصرفات بعض الأغنياء من المصريين، وتبرعاتهم أنهم تزلفوا لبعض الحكام، وذلك كتابه القيم: (المجتمع الإسلامي كما تنظمه سورة النساء، الطبعة الثانية بالقاهرة ١٤١١هـ-١٩٩١م، ص٦١) قال:

«وقد دأب بعض الأغنياء على أن يقدموا بعض الهبات أو التبرعات، موافقة لبعض الحكام، أو اجتلابًا للمنزلة عندهم، أو رجاء في إقرار أمر، أو الموافقة على منفعة لهم، فهؤلاء ينفقون المال رئاء الناس. وقد شهدت بنفسي رجلاً من الأغنياء، قدَّم ذات يوم (تحويلاً) على أحد المصارف (شيك) إلى حاكم سابق ليعطيه تبرعًا إلى معهد علمي معروف، ثم تصادف أن هذا الحاكم خلع بعد أيام، فعاد يسترد تبرعه من الجهة التي تبرع لها دون أن يأخذه شيء من الحياء، فمثل هذا لا يبغي وجه الله، وإنما يبغي وجه الحاكم، فلما ذهب الحاكم استرد هبته) انتهى.

وللقرآن الكريم أسلوبه الرائع المتفرد لا يسمو إليه أي أسلوب يظهر هذا . في سياق الآيات من (٢٦٢ إلى ٢٦٤ من سورة البقرة المباركة):

فإنه في الآيتين السابقتين للآية التي نتشرف بالإشارة إليها والنهل من معانيها، وهي الآية (٢٦٤) المذكورة نقرأ ما يأتي:

﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لا يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا مَنًّا وَلا أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٦٢) قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٢، ٢٦٣] .

هاتان الآيتان تعتبران مقدمة للنصّ الوارد في الآية رقم (٢٦٤)، وذلك في القراءة الأولى لهاتين الآيتين الكريمتين، ولكن عندما نقرأهما للمرة الثانية بعد قراءة النص (٢٦٤) نتصورهما تعليقًا على الحكم الوارد بهذا النص؛ إذ إنهما يصلحان لذلك .

وبيان ذلك أن النص في الآية رقم (٢٦٤) تضمن حكم الله عز وجل بالبطلان على صدقة المانّ الذي يؤذي المتلقي للصدقة والاستعلاء عليه الذي يجعله يسخط على نصيبه في الحياة الذي يجره إلى احتقار نفسه ويجره هذا الاحتقار لنفسه إلى الاكتئاب الذي يمور في داخل كيانه يفرّخ فيه النزعة الإجرامية أو الشعور بالإحباط فيعتزل المجتمع، ويقع فريسة للشيطان يقتل نفسه أو يفكر في قتل الآخرين، وأولهم هذا المانّ. فتكون المقدمة في الآيتين السابقتين تؤدي دورها في لفت نظر القارئ أو المستمع إلى الهول الذي يتصف به هذا الجزاء الصارم الذي ينزل بالمان بهذه الصدقة.

هذا ما يستقر في ذهن القارئ لهذه الآيات القراءة الأولى، ولكن عندما يقرأ النصوص الثلاثة مرة أخرى يشعر بأنهما أعظم وأبلغ تعليق على ما حكم به ربّ العباد على تصرف المانّ، وعلى حبّ الظهور الذي سيطر على المانّ، وعلى استجلابه رضا الخالق سبحانه وتعالى. فيردد في قلبه وبلسانه هاتين

الآيتين تعليقًا يؤدي دوره بزرع اليقين في قلب القارئ فيفرح ويطمئن ويحصد المتعة الروحية والسداد والرشد والأمن واليقين، فيقرأ الآيتين بعمق الشعور وعلوّ الصوت .

﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لا يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا مَنًّا وَلا أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٦٢) قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٢، ٢٦٣] .

وليست هذه المرة الوحيدة التي تحدث فيها القرآن على صدى أفعال العباد في واقع الحياة قبل أن يذكر أحكامه على هذه الأفعال في سورة البقرة، وإنما سبق له ذلك في الآية (١٤٢) من هذه السورة التي يقول الله سبحانه وتعالى فيها:

﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلاَّهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ١٤٢] .

فهذه الآية الكريمة تحدثت عن موقف اليهود عند تحويل القبلة من المسجد الأقصى إلى المسجد الحرام قبل أن يحكم سبحانه وتعالى آمرًا سيدنا رسول الله ﷺ والمؤمنين معه بأن يولوا وجوههم شطر المسجد الحرام في الآيات من (١٤٤ إلى ١٥٠) في نفس السورة.

إن الله سبحانه وتعالى قد ذكر ما سيقوله اليهود عن تحويل القبلة بأنهم سيسألون سؤال إنكار عن الحدث الذي ولّى المؤمنين عن قبلتهم التي كانوا عليها، حيث كان المسلمون يولون وجوههم عند الصلاة إلى المسجد الأقصى، فما بالهم غيّروا الاتجاه، وأصبحوا يولون وجوههم شطر الكعبة «المسجد الحرام»، وبديهي أن أكثروا من الكلام والتعليقات حيث وصلوا إلى حالة الهرج والمرج... وأثاروا البلبلة التي أثرت على عدد غير قليل من المسلمين ضعاف الإيمان.

ذكر هذه النتيجة القرآن الكريم قبل أن يحكم الله بتحويل القبلة، وهذا أسلوب يتفرد به القرآن الكريم، ومما لاشك فيه أن القرآن الكريم تنزيل العزيز الحكيم الخبير بخلقه، العليم بما تنطوي عليه صدورهم، وهذا سبب ذكر نتائج الفعل قبل أن يقع، وبذكر صداه عند الناس قبل أن يحدث، وهذا ما تفرّد به القرآن الكريم لا يشاركه فيه عالم من علماء الدنيا؛ لأن الله وحده هو العليم الخبير. وقد حدث هذا في حياة حضرة النبيّ الخاصة جداً في قوله سبحانه وتعالى، إذ أسرّ إلى إحدى زوجاته حديثًا وطلب منها عدم التحدث به إلى ضرائرهن، فلما نقلت حديثه لبعضهن أخبره بذلك، فقالت: من أنبأك هذا، قال: نبأني العليم الخبير، قال سبحانه وتعالى في سورة التحريم في الآية رقم (٣):

﴿وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ﴾ [التحريم: ٣].

❁❁❁

الفصل الرابع
ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون

قال الله سبحانه وتعالى في سورة الإسراء في الآية رقم (١٠٠):

﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الإِنفَاقِ وَكَانَ الإِنسَانُ قَتُوراً﴾ [الإسراء: ١٠٠].

يقول الإمام ابن كثير في تفسير هذه الآية في كتابه (تفسير القرآن العظيم)، طبعة: عيسى الحلبي وشركاه، الجزء الثالث، ص (٦٦):

«يقول الله تعالى لرسوله صلوات الله وسلامه عليه: قل لهم يا محمد، لو أنكم أيها الناس تملكون التصرف في خزائن الله لأمسكتم خشية الإنفاق، قال ابن عباس وقتادة: أي الفقر، أي: خشية أن تذهبوها، مع أنها لا تفرغ، ولا تنفد أبدًا؛ لأن هذا من طباعكم وسجاياكم، ولهذا قال: ﴿وَكَانَ الإِنسَانُ قَتُوراً﴾. قال ابن عباس وقتادة: أي بخيلاً منوعًا، وقال الله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لاَّ يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيراً﴾ [النساء: ٥٣] أي: لو أن لهم نصيبًا في ملك الله لما أعطوا أحدًا شيئًا ولا مقدار نقير، والله تعالى يصف الإنسان من حيث هو إلا من وفقه الله وهداه، فإن البخل والجزع والهلع صفة له كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلاَّ الْمُصَلِّينَ﴾ [المعارج: ١٩-٢٢]، ولهذا نظائر كثيرة في القرآن العزيز، ويدل على (الله سبحانه وتعالى) وجوده وإحسانه، وقد جاء في الصحيحين: «يد الله ملأى لا يغيضها نفقة، سحاء الليل والنهار، أرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض، فإنه لم يغض ما في يمينه». انتهى كلام ابن كثير.

في هذه الآية الشريفة يكشف الله سبحانه وتعالى للإنسان حقيقته، ويظهر له خبيئة نفسه، ويضع يده على نقط الضعف في تركيبته النفسية، ولا غرو فإن الله سبحانه وتعالى هو الذي خلق هذا الإنسان، والله بكل خلق عليم، قال الله سبحانه وتعالى في سورة (ق) في الآية رقم (١٦):

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [سورة ق: ١٦].

وحيث إنه سبحانه عليم بتركيبة الإنسان النفسية، ويعلم أن البخل والشح بعض طبعه، يحجبه دائمًا عن فعل الخير، وهو هنا البذل والعطاء في سبيل الله، فالبخل أسوأ مستشار للإنسان، يقدم له أسوأ مشورة إذا همّ بتقديم صدقة لفقير أو مسكين أو يتيم؛ إذ هو في هذه اللحظة الفارقة يحذّره من الفقر بعد الغنى، وبالفاقة بعد الجِدَة، وبالعوز بعد الثراء، فيحجم عن التصدق، ويعيد هذا المال إلى مكانه في خزانته.

إن البذل والإنفاق في سبيل الله يمرّ في داخل الإنسان بغريزة من غرائز الإنسان قوية التأثير في حياته، وتسيطر عليه في غالب الأحيان، فيسعى حثيثًا وراء إشباعها، تلك الغريزة هي حب التملك، وهي دافع من الدوافع القوية، يقول عنها أستاذنا الكبير الدكتور محمد عثمان نجاتي أستاذ علم النفس بجامعة القاهرة وجامعة الكويت سابقًا رحمه الله رحمة واسعة في كتابه القيم (القرآن وعلم النفس)، طبعة دار الشروق ١٩٨٥م (ص٤١ و٤٢) ما يأتي:

«دافع التملك من الدوافع النفسية التي يتعلمها الإنسان أثناء تنشئته الاجتماعية، فالإنسان يتعلم من الثقافة التي ينشأ فيها، ومن خبراته الشخصية حبه لامتلاك المال والعقارات والأراضي والممتلكات المختلفة التي تشعره بالأمن من الفقر، وتمده بالنفوذ والجاه والقوة في المجتمع، وقد أشار القرآن في كثير من المواضع إلى دافع التملك، ويستشهد أستاذنا رحمه الله على ما قرره

بما جاء بالآية الشريفة من القرآن الكريم التي تسطع برقم (١٤) في سورة آل عمران، يقول الله سبحانه وتعالى فيها:

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ [آل عمران: ١٤].

وبالآية رقم (٢٠) من سورة الفجر: يقول الله سبحانه وتعالى فيها:

﴿وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ [الفجر: ٢٠].

وبالآية (٤٦) من سورة الكهف يقول الله سبحانه وتعالى فيها:

﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الكهف: ٤٦].

وبالآية (٢٠) من سورة الحديد يقول الله سبحانه فيها:

﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ...﴾ [الحديد: ٢٠].

ويقول أستاذنا: وكان دافع التملك أحد الدافعين الهامين اللذين أثارهما إبليس في نفس آدم عليه السلام؛ مما جعله يقع في المعصية بأكله من الشجرة التي نهاه الله تعالى عن الاقتراب منها.

﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لاَّ يَبْلَىٰ﴾ [طه: ١٢٠].

وهكذا يتضح لنا بجلاء قوة غريزة التملك، أو دافع التملك، كما يريد أستاذنا محمد عثمان نجاتي أن يسميها.

والذي يدل على قوة هذه الغريزة، وخطر سيطرتها على الإنسان أن الإنسان إذا تملكت منه، فإنها تأخذه من كل القيم، فيجمع المال حلالاً وحرامًا، وأنها لا تدع له وقتًا للراحة، وتجعله يركض ركض الوحوش في البرية بقصد

جمع المال لا يقنع ولا يشبع. وفي ذلك يقول أشرف الخلق سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم:

«لو كان لابن آدم واديان من مال لابتغى ثالثًا، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب، ويتوب الله على من تاب». [أخرجه الشيخان: البخاري ومسلم، والإمام الترمذي].

وقال عليه الصلاة والسلام:

«قلب الشيخ شاب على حب اثنين: طول الحياة وكثرة المال».

[أخرجه البخاري ومسلم، والإمام الترمذي].

إذن فالشيطان الذي يوسوس للإنسان ليمنعه من البذل والعطاء في سبيل الله في خدمة الفقراء والمساكين يدخل له من باب الخوف من الفقر؛ إذ لو داوم على هذه الفضيلة والخوف من الفقر إذا تملك الإنسان حرمة من طرق أبواب الجنة بما يحمله من الصدقات تطفئ غضب الله، وتطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار، عندما يسيطر عليه خوفه من الفقر ينسى كل هذه القيم، ويتذكر شيئًا واحدًا هو كنز المال طبقات زاعمًا بذلك أنه يحمي نفسه وأهله وولده من الفقر، ولكن هيهات!! هيهات!!.

إن الصدقة هي التي تفعل ما ينشد وهو الشعور بالأمن الذي هو دائمًا في حاجة إليه، بل إنه في الآخرة أحوج.

الجزاءات التي تصيب المنفقين:

أولاً: في حالة التطوع بالطيبات من الرزق:

قال الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم في الآية (٢٦٨) من سورة البقرة:

﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٨].

فمن يتطوع بالطيب من المال ينل من الله المغفرة والفضل، ومن يتيمم الخبيث فينفقه فإنه يكون قد أطاع الشيطان، فإن الشيطان يأمره بالفحشاء فيكون معرضًا للعذاب.

٢- وفي سورة البقرة أيضًا في الآية رقم (١٧٧) يقول الله سبحانه:

﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧] .

وهذه الآية تحكم للذين يؤتون المال على حبّه (الطيب المحبب إليهم ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب، بأنهم الصادقون الأتقياء وهم أهل الجنة؛ لأن الصدق يهدي إلى البرّ، والبر يهدي إلى الجنة، وكذلك ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر: ٥٤، ٥٥] .

٣- وفي سورة الإنسان في الآيات من (٥ إلى ٢٢) يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿إِنَّ الأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾ يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الأَرَائِكِ لا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلاً ﴿١٤﴾ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَ ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلاً ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلاً ﴿١٨﴾ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ

لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾ [الإنسان: ٥-٢٢] .

انظر معي أيها القارئ الكريم إلى هذا الوصف للجزاء الذي يناله هؤلاء الذين يطعمون الطعام على حبه لهؤلاء الذين يستحقون وهم المسكين واليتيم والأسير. إن هذه الآيات الكريمات تعرض على أرواح الناس وعلى قلوبهم وعلى عقولهم ما ينتظر هؤلاء الذين يوفون بالنذر ويطعمون الطعام على حبه أنواع النعم التي خصهم الله بها يوم القيامة، وتصفها وصفًا يأخذ بالألباب، ويشوّق ذوي الألباب إلى هذه الجنات التي وعد الله بها المتقين، بحيث عندما يقف المؤمن أمامها مستحضرًا عظمة الله في قلبه، ويكون إيمانه قويًا بالوصف الذي جاءت به الآية الكريمة رقم (١٧٧) من سورة آل عمران بحيث يكون مؤمنًا بالله وملائكته واليوم الآخر والكتاب والنبيين، فإذا كان المؤمن الذي يقرأ هذه الآيات الكريمات من سورة الإنسان على هذا المستوى من الإيمان، ويتربع على هذه القمة السامقة الرفيعة من الإيمان، ويكون بين يديه ملك كسرى وقيصر ومعهما المال الذي تداولته أيدي الملوك والقياصرة والفراعنة وأمثال قارون وتقع عينه على هذه العيون المتفجرة بمختلف أنواع الشراب وهذه الجنة وثياب الحرير، والآرائك، والأشجار ذات الظلال والثمرات قطوفها دانية، ورائحتها طيبة، وذكاؤها يعطر الصدور والأواني الفضية والقوارير المقدرة، والكئوس يفيض منها شراب الزنجبيل، وما يراه من عين السلسبيل، والولدان الطوّافين المخلدين يحملون الطعام والشراب بأبدانهم البراقة يحسبهم الرائي لؤلؤًا منثورًا، وإذا ثبت عينيه على ما حوله من رياض وحدائق وجد نعيمًا وملكًا كبيرًا، ووجد المتنعم بهذا كله يتدثر بثياب السندس القشيب، وثياب الإستبرق الفاخر، ووجده وفي يديه أساور من فضة ويمسك بهما كئوس الشراب الطهور، وحوله وحول أمثاله من الملائكة من يهنئوهم

بأن كل ذلك هو الجزاء الأوفى لما صنعوا بسعيهم المشكور في الحياة الدنيا. لو أن ذلك المؤمن أبصر ذلك كله وعاينه وعلم أنه سيمتع به كله إذا قام بإطعام المحتاجين إلى الطعام لبادر إلى إنفاق ذلك المال كله، وأعلن تنازله عنه فوراً، ووضعه في خدمة المسكين واليتيم والأسير!! ولا يتردد لحظة واحدة.

يا الله!! يا لعظمة الله!! أيكون هذا الجزاء الرائع الأوفى من نصيب من يطعم المسكين واليتيم والأسير؟!

أيكون إطعام الطعام سبب هذه السعادة الأبدية؟ هل إطعام الطعام له هذا الخطر العظيم، ألا ما أرحم الله بخلقه، وما أكرمه لعباده!!

سبحانك اللهم ما أعظمك!!

ولقد فطن لذلك أصحاب سيدنا رسول الله ﷺ ورضي الله عنهم أجمعين. فقدموا كل ما يتقنون من المال والثروات ودخلوا في هذا الصف السعيد وقدموا الطعام للمسكين واليتيم والأسير، يتقدمهم أهل البيت النبوي الكرام رضي الله عنهم وأرضاهم، وهذا نبأ من أنبائهم في هذا الشأن جاء ذكره في الحديث الشريف الذي رواه ليث عن مجاهد عن ابن عباس ﷺ في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ۝ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ قال: مرض الحسين والحسين فعادهما رسول الله وعادهما عامة العرب، فقال أبو بكر ﷺ: يا أبا الحسن!! لو نذر عن ولديك شيئًا!! وكل نذر ليس له وفاء ليس بشيء!! فقال ﷺ: إن برأ ولداي صمت لله ثلاثة أيام شكرًا، وقالت أمهما كذلك، وقالت خادمتهما كذلك».

فصاموا وشفى الله سبحانه وتعالى سيدا شباب أهل الجنة.

وتكملة الحديث: «إن الإمام عليًا ﷺ استعرض ثلاثة أصوع (جمع صاع) من شعير فاختبزته سيدة نساء العالمين فاطمة بنت سيدنا رسول الله صلى الله عليه وعليهم وسلم تسليمًا كثيرًا صاعًا، ووضعته أمام سيدنا عليّ

كرم الله وجهه ورضي الله تعالى عنهم أجمعين. فجاء مسكين فطلب الطعام فأعطاه قرصًا، وهكذا بالنسبة لليوم الثاني، فجاء يتيم فأعطاه قرصًا، وكذلك الأسير في اليوم الثالث، فأعطاه القرص الباقي».

يحكي هذا النبأ الأستاذ سيد قطب رحمه الله تعالى رحمة واسعة في كتابه «العدالة الاجتماعية في الإسلام» وهو يستعرض صور الإيثار تلك الصفة التي اتصف بها الأنصار والمهاجرون، ذكر الأنصار بالذات لأن إيثارهم موضوع الآية الشريفة رقم (٩) في سورة الحشر يقول فيها رب العزة سبحانه وتعالى:

﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩] ، قدم هذا النبأ الوارد في الحديث المذكور على أنه صورة لا تقل جمالاً وروعة عن نبأ الأنصار، فقال في (ص٨٧):

«وهناك صورة لا تقل عنها جمالاً ورقة وانعطافًا لجماعة من عباد الله، تذكر بعض المراجع أنهم عليّ وزوجته فاطمة بنت الرسول ﷺ وأهل بيتهما ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾ إلى آخر الآيات حتى الآية رقم (٢٢) من سورة الدهر «الإنسان»، وقد سبق ذكرها بالكامل في الصفحات السابقة.

وإني أرى أن الحديث الذي روي عن طريق سيدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما في هذا الشأن وجاء ذكره في تفسير الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبي رحمه الله في تفسير سورة الإنسان في الجزء الثامن منه من طبعة دار الشعب ينتهي عند الصدقة على المسكين واليتيم والأسير فقط، وأما ما جاء بعد ذلك من شعر فهو من إبداع أحد رواة الحديث من المحبين لأهل البيت الكرام.

أما صدر الحديث فيعرضه على القرآن الكريم، وعلى تاريخ سيدنا الإمام عليّ بن أبي طالب كرم الله وجهه، وسيدتنا فاطمة بنت سيدنا رسول الله صلى الله عليه وعليهم وسلم تسليمًا كثيرًا، فهو أمر مستساغ يقبله العقل، وذلك للأسباب الآتية:

- إن هذه الأسرة الكريمة قد نهلت من نهر النبوة على يدي أشرف الخلق سيدنا محمد صلى الله عليه وعليهم وسلم تسليمًا كثيرًا ما يغذي الإيمان في قلوب أفرادها بغذاء لا ينفد أبدًا، ويمدها بطاقة في فعل الخير ما تنفرد به وتسبق به في ميدانه كثيرًا من الناس، لاسيما وقد صادق هدي هذا النبي الكريم صلوات الله وسلامه عليه ما هو موروث لهم من آبائهم عبد المطلب وهاشم من بذور الشهامة والمروءة ما رواه سلسبيل هذا النهر فنمى وفرّع وازدهر وأثمر من كل زوج بهيج، فالكرم والسخاء والإيثار متأصل في قلوبهم، فهم مفطورون عليه، فهو جوهر من جبلتهم، وهو بعض خُلُقهم، وجزء لا يتجزأ من طبعهم.

- إن القرآن الكريم تسطع فيه آيات من آياته تحكي من آثارهم الطيبة ما يشهد بأن هذا النبأ الوارد في هذا الحديث بعض شأنهم، وإن الجود والكرم والإيثار كل ذلك قبس من مشكاة أخلاقهم.

- إن كتب التاريخ تطوي في أحشائها دررًا من كرائم صفاتهم وغوالي مناقبهم، وعوالي شمائلهم التي تتعب من يحاول أن يحصيها، أو يطمح إلى عدّها، ويشهد لهم بهذا الحديث الشريف الصحيح الذي رواه البخاري ﵀ في صحيحه يقول فيه حضرة النبي ﷺ: **«تركت فيكم الثقلين كتاب الله وذريتي أهل بيتي لا يفترقان حتى يردا على الحوض»** [رواه الإمام البخاري ﵀].

وإن أنس، لا أنس واقعة حال مع السيدة الجليلة المثل الأعلى لنساء العالمين فاطمة الزهراء بنت سيدنا رسول الله صلى الله عليه وعليهم وسلم تسليمًا كثيرًا، هذه الواقعة الجميلة العطرة تخلص في أن سيدنا رسول الله ﷺ كان

جالسًا في بيت سيدنا علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ورضي الله عنه مع سيدتنا فاطمة الزهراء، فطرق الباب سائل، فلما فتحت الباب وعرفت أنه سائل يطلب الصدقة دخلت إلى خدرها وأحضرت درهمًا فوضعته في وعاء المسك تكسبه رائحة طيبة، وناولته للسائل، فسألها سيدنا رسول الله ﷺ: «ما حملك على هذا يافاطمة؟ فوضعت الدرهم في وعاء المسك؟ فقالت له:

سمعتك يارسول الله تقول: إن الله يمدّ يده فيأخذ الصدقة قبل أن يتناولها السائل، فأحببت أن أضع في يد الله طيبًا!!

هذه هي أخلاق أهل البيت الكرام رضي الله عنهم أجمعين، فلا غرابة مطلقًا أن ينسب لهم القرآن الكريم جميل الصفات، وشريف الخصال، وكريم الفعال، فإنهم والله بهذا جديرون وأنهم لهذا أهلون فسلام عليهم في العالمين.

في النهي عن الإنفاق من الخبيث:

﴿وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلَّا أَن تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [البقرة: ٢٦٧].

اللائق بالمؤمن الذي طهر قلبه ورقت عاطفته، وصفت نفسه، ونقيت سريرته، واتسعت مداركه، وتأصلت حكمته أن يختار الطيب فينفق منه، وأن يتجنب الخبيث فلا تمتد يده به يعطيه لأحد؛ لأن الخبيث تمجّه النفس وتكرهه الطبائع النبيلة.

والخبيث يدرك الشيء فتبغضه النفس الزكية، والخبث لفظ جامع لكل ما يسوء النفس فيجعلها تعافه، فالخبث في الطعام فساده يتغير طعمه وتتغير رائحته، ويفقد لذّته، والخبث في اللحم نتانه، وتحوله إلى دود، والخبث في الفاكهة إصابتها بالعطب وحشرة الفاكهة، وإصابتها بالجراثيم التي تسبب الأمراض، وربما لا تكون إصابتها في ظاهرها مما يكون سببًا في انخداع الشخص فيها فيتناولها حتى إذا أكل منها يُصاب بالتسمم وهكذا.

كذلك يكون الخبيث في الأقمشة مرض (العتّه) الذي يلحق بالقماش فيسرع فناءه، وربما ينخدع المتلقي للصدقة بهذا المظهر حتى إذا وضع الثوب على جسده حصد من ذلك حساسية في جسمه تعكر عليه صفو حياته.

وبعض الناس ضعاف الإيمان يجدون في الصدقة تخلُّصًا من هذه الأشياء الخبيثة فهم يتصدقون بها حتى يسكت الناس عنهم. ولقد خاطب القرآن الناس بهذا الخطاب، خطاب الحكيم الخبير، فهو يعلم طبيعة الإنسان التي تتسم بشح النفس والبخل، فوضع لهم معيار يميز الخبيث من الشيء محل الصدقة وهي ﴿وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلاَّ أَن تُغْمِضُوا فِيهِ﴾ بمعنى أن الشيء الخبيث هو الذي قدمه لكم أحد فإنكم إذا قبلتموه ستغمضون أعينكم عما فيه من عيب حفاظًا على ماء وجه من يقدمه لكم ولولا هذا الحياء ما قبلتموه فبهذا الأسلوب البليغ أصاب القرآن الكريم خبيئة نفس المتصدق، وكشف له سلبيات هذا العطاء الذي يزمع أن يقدمه.

وبهذا يكون المشرع الحكيم قد ائتمن المتصدق على أخيه المتلقي للصدقة، وتركه لضميره إن شاء أحسن العطاء، وإن شاء أحجم.

إن هذه الآية الكريمة تعلم الإنسان الإحسان في هذه العبادة، وتذكرنا بالحديث الشريف الصحيح المتفق عليه من الشيخين عندما عرف سيدنا رسول الله ﷺ الإحسان، وقال للسائل وهو سيدنا جبريل عليه السلام: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك».

فقارئ هذه الآية عندما يتدبر معناها يتذكر هذا الحديث الشريف فينتقي للصدقة الطيب من الشيء المتصدق به ويتجنب الخبيث، وينال بذلك الثواب العظيم.

روى الإمام الترمذي رضي الله عنه عن البراء رضي الله عنه قال في قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ﴾ [البقرة: ٢٦٧] نزلت فينا معشر الأنصار، كنا أصحاب نخل، فكان الرجل يأتي من نخله على قدر كثرته وقلته، وكان

الرجل يأتي بالقنو (الصوبة ذات الشماريخ تدلى منها البلح) والقنوين، فيعلقه في المسجد، وكان أهل الصُّفة (وهم فقراء المهاجرين) ليس لهم طعام، فكان أحدهم إذا جاع أتى القنو فضربه بعصاه، فسقط البسر (البلح الذي لم ينضج) والتمر فيأكل، وكان الناس ممن لا يرغب في الخير يأتي الرجل بالقنو فيه الشليص، والحشف، والقنو قد انكسر فيعلقه، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلَّا أَن تُغْمِضُوا فِيهِ﴾ [البقرة: ٢٦٧] .

قال: لو أن أحدكم أهدى إليه مثل ما أعطى، لم يأخذه إلا على أغماض وحياء. قال: فكنا بعد ذلك يأتي أحدنا بصالح ما عنده».

[رواه الترمذي، وقال: حديث حسن صحيح غريب، الترمذي، كتاب التفسير، باب ومن سورة البقرة برقم ٢٩٨٧ (٥/ ٢١٨، ٢١٩)] .

هل يتصدق الرجل بكل ماله؟

نعم يجوز للرجل القوي القادر على الكسب أن يتصدق بجميع ماله.

«قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ: أمرنا رسول الله ﷺ أن نتصدق، فوافق ذلك مالاً عندي، فقلت: اليوم أسبق أبا بكر إن سبقته يومًا فجئت بنصف مالي، فقال رسول الله ﷺ : ما أبقيت لأهلك؟، فقلت: مثله. وأتى أبو بكر ﷺ بكل ماله، فقال ﷺ : وما أبقيت لأهلك؟ فقال: أبقيت لهم الله ورسوله، فقلت: لا أسابقك إلى شيء أبدًا».

[أبو داود، كتاب الزكاة، باب في الرخصة في ذلك برقم (١٦٧٨) (٢/ ٣١٣)، والترمذي في كتاب المناقب، باب في مناقب أبي بكر وعمر رضي الله عنهما برقم (٣٦٧٥) ، (٥/ ٦١٤، ٦١٥)، وقال: هذا حديث حسن صحيح، والدارمي- كتاب الزكاة - باب الرجل يتصدق بكل ما عنده (١/ ٣٩١،٣٩٢)] .

شروط يجب توفرها فيمن يتصدق بكل ماله:

يبدو من وقائع هذا الحديث الشريف أن التبرع بكل المال المملوك للمتصدق يتطلب شروطًا معينة منها:

١- أن يكون المتصدق قويًا؛ لأن الضعف يوحي بأنه أصبح غير قادر على الكسب، وحينئذ يخشى عليه من الفقر لتوقع عجزه عن الكسب، فحينئذ يكره أخذ ماله كله صدقة.

٢- أن يكون مكتسبًا: ومع القوة لابد من توفر القدرات والخبرة والملكات التي تمكنه من الكسب.

٣- أن يتمتع بالكفاءة النفسية والإيمانية التي تعينه على الصبر على عدم توفر المال لديه.

٤- ألا يكون المتصدق مدينًا دينًا يفقد معه ثقة الناس فيه، فتكون ديونه أولى بالأداء.

٥- أن يكون عنده من تجب النفقة عليه بمعنى ألاَّ يكون له من الأولاد أو الوالدين أو الأقارب ممن يجب عليه أن يعولهم ويرعاهم، وإذا وجد هؤلاء فيكون تصدقه بكل ماله مكروهًا.

والسند في ذلك هذا الحديث الشريف:

عن جابر ﷺ قال: بينما نحن عند رسول الله ﷺ؛ إذ جاء رجل بمثل بيضة من ذهب، فقال: يا رسول الله، ما أملك غيرها!! فأعرض عنه رسول الله ﷺ، ثم أتاه من قبل ركنه الأيمن، فقال مثل ذلك، فأعرض عنه، ثم أتاه من قبل ركنه الأيسر، فأعرض عنه، ثم أتاه من خلفه، فأخذها رسول الله ﷺ فحذفه بها (رماه بها)، فلو أصابته لأوجعته أو عقرته، ثم قال: «يأتي أحدكم بماله كله يتصدق به، ثم يجلس يتكفف الناس، إنما الصدقة عن ظهر غنى».

[رواه أبو داود والحاكم، أبو داود: كتاب الزكاة، باب الرجل يخرج من ماله برقم (١٦٧٣٢) (٢/ ٣١٠/ ٣١١)، والحاكم: كتاب الزكاة، باب خبر الصدقة ما كان على ظهر غنى (١/ ٤١٣)، وقال: حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي والدارمي باب كتاب الزكاة، باب النهي عن الصدقة بجميع ما عند الرجل (١/ ٩) والحديث ضعيف، ولكن آخره صحيح. إرواء الغليل (٣/ ٣١٦).

صدقة المرأة من مال زوجها:

جاء في كتاب فقه السنة للمرحوم الشيخ سيد سابق رحمه الله طبعة دار الفتح للإعلام العربي الجزء (١) (ص٤٨٦):

١- «يجوز للمرأة أن تتصدق من بيت زوجها إذا علمت رضاه، ويحرم عليها إذا لم تعلم».

عن عائشة أم المؤمنين ﵂ قالت: قال النبي ﷺ: «إذا أنفقت المرأة من طعام بيتها، غير مفسدة، كان لها أجرها بما أنفقت، ولزوجها أجره بما كسب، وللخازن مثل ذلك، لا ينقص بعضهم أجر بعض شيئًا».

[البخاري، كتاب الزكاة- باب من أمر خادمه بالصدقة ولم يناول بنفسه ٢ / ١٣٩، وباب أجر الخادم إذا تصدق بأمر صاحبه، غير مفسد (٢ / ١٤١)، وباب أجر المرأة إذا تصدقت من بيت زوجها غير مفسدة برقم (٨٠ و ٨١) (٢ / ٧١٠)، وأبو داود كتاب الزكاة - باب تتصدق من بيت زوجها برقم (١٦٨٥) (٢ / ٣١٥)، والترمذي كتاب الزكاة، باب في نفقة المرأة من بيت زوجها برقم (٦٧١) (٣ / ٤٩)، وقال: حديث حسن، وابن ماجه كتاب التجارات، باب ما للمرأة من مال زوجها برقم (٢٢٩٤) (٢ / ٧٦٩، ٧٧٠)، وأحمد في المسند (٦ / ٤٤، ٩٩، ٢٧٨).

٢- وعن أبي أمامة، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول في خطبة عام حجة الوداع:

«لا تنفق المرأة شيئًا من بيت زوجها إلا بإذن زوجها».

[الترمذي، كتاب الزكاة، باب في نفقة المرأة من بيت زوجها برقم (٦٧٠)، وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن، وأبو داود، كتاب البيوع، باب في تضمن العارية رقم (٣٥٦٥) (٣ / ٨٢٤)، وابن ماجه، كتاب التجارات، باب ما للمرأة من بيت زوجها برقم (٢٢٩٥) (٢ / ٧٧٠).

ويستثنى من ذلك النزر اليسير الذي جرى به العرف، فإنه يجوز لها أن تتصدق به دون أن تستأذنه؛ فعن أسماء بنت أبي بكر، أنها سألت النبيّ ﷺ فقال: «إن الزبير رجل شديد، ويأتيني المسكين فأتصدق عليه من بيته بغير إذنه، فقال رسول الله ﷺ:

«ارضخي - أي أعطي القليل - ولا توعي: أي لا تدخري المال في الوعاء، فيمنعه الله عنك فيوعي الله عليك».

[البخاري، كتاب الزكاة، باب الصدقة فيما استطاع (٢ / ١٤١)، ومسلم كتاب الزكاة، باب الحث في الإنفاق، وكراهة الإحصاء برقم (٨٩) (٢ / ١٨٤)، وأحمد في المسند (٦ / ٣٤٥، ٣٤٦، ٣٥٣، ٣٥٤).

يقول الإمام ابن حجر العسقلاني في فتح الباري، الجزء الثالث (دار الريان للتراث، القاهرة، ص ٣٥٦، باب أجر المرأة إذا تصدقت أو أطعمت من بيته زوجها غير مفسدة):

إنه فرق بين المرأة والخادم، بأن المرأة لها أن تتصرف في بيت زوجها بما ليس فيه إفساد للرضا بذلك في الغالب، بخلاف الخادم والخازن، ويدل على ذلك ما رواه المصنف من حديث همام عن أبي هريرة بلفظ: «إذا أنفقت المرأة من كسب زوجها من غير أمره فلها نصف أجره، للزوج بما اكتسب، ولها بما أنفقت غير مفسدة».

وكذلك في ضوء قول سيدنا رسول الله ﷺ لسيدتنا أسماء: «ارضخي» أي أعط القليل الذي جرت به العادة، والله أعلم.

❁❁❁

الفصل الخامس

من أسمى أحكام الإسلام حكم «الطعام لكل فم»

نعم من أسمى الأحكام التي قررها الإسلام حكم الطعام لكل فم.

وبذلك يتبوأ إطعام الطعام مكانته فوق القمة من أعمال البر، فهو من أفضل الفضائل، وذروة العطاء الإنساني في مجال التقرب إلى الله سبحانه وتعالى، وهو من أشرف السلوك الذي يرضى به الله على الصالحين من عباده، فبإطعام الطعام تحفظ الحياة كل كائن حي.. ويجزي الله عنه صاحبه أوفى الجزاء، ويعطيه من فضله أجمل العطاء، ولا غرو فالطعام دواء ينفي الداء، ويحقق الشفاء، ويصرع البلاء، ويذهب الشحناء، ويقضي على البغضاء، فيقلل الأعداء، ويكثر الأصدقاء، ويشيع على الأرض الحبّ والسلام، والوفاء والوئام، ويبسط عليها بساط الوفاء والوئام.

من أجل ذلك احتفل الإسلام بإطعام الطعام، فشرع له الأحكام في القرآن الكريم، وفي سنة سيدنا رسول الله عليه الصلاة وأزكى السلام.

أولاً: في القرآن الكريم:

أوضح القرآن الكريم في سورة قريش أن إطعام الطعام من جانبه منة عظمى، ونعمة كبرى على خلقه، فقال: بسم الله الرحمن الرحيم:

﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ﴿١﴾ إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ﴿٢﴾ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ﴿٣﴾ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾ [سورة قريش: ١-٤] .

وعندما أراد نبيّ الله سيدنا إبراهيم عليه وعلى نبينا سيدنا محمد الصلاة والسلام أن يبين لقومه عقيدته في ألوهية الله وربوبيته، ويوضح لهم قناعته بأنه عبد

لله سبحانه وحده لا شريك له، أسس هذه العقيدة على ما يقوم به الله سبحانه وتعالى من أعمال تشهد له بالألوهية والربوبية في حياة سيدنا إبراهيم باعتباره بشراً مثلهم تسري عليهم ما تسري عليه من أحكام، فقال لهم ما ورد في القرآن الكريم في الآيات من (٧٥-٨٢) من سورة الشعراء، يقول الله سبحانه وتعالى فيها:

﴿قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ [الشعراء: ٧٥-٨٢] .

انظر معي أيها القارئ الكريم:

إن نعمة الطعام تتألق بين النعم التي أراد سيدنا إبراهيم عليه وعلى نبينا أفضل الصلوات وأتم التسليمات أن يجليها لقومه متحديًا إياهم بأنها من مظاهر الربوبية الثابتة لله الحق سبحانه وتعالى، باعتبار أن الطعام يجري دمًا في عروقه وعروق سائر خلق الله جميعًا على وجه الأرض؛ لأن الطعام سبب جوهري من أسباب حياة الإنسان نفسه، فهو يفقد الحياة إذا فقد الطعام، وتلك سنة الله في خلقه.

من أجل ذلك نرى سيدنا إبراهيم عليه وعلى نبينا أفضل الصلوات وأتم التسليمات وهو يسند لله سبحانه وتعالى الفضل كل الفضل في إتاحة الطعام له نراه يشير إلى خطورة الطعام بالذات بالنسبة للإنسان، ويشير إلى ضرورته لاستمرار الحياة، ويشير في الوقت نفسه إلى عظمة الله سبحانه وتعالى، وإلى عظمة علمه بأن الإنسان يضع الطعام في مكانته الرفيعة بين حاجاته التي تصلح حياته بإشباعها وعلمه أيضًا بلزومه لاستمرار حياته، فبدأ به ذكر هذه الحاجات، وهذا الاهتمام بالطعام البادي في عبارة ﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ﴾ يتضح تمامًا في كلمتين اثنتين:

كلمة «هو» فهو ضمير الغائب، ولكنه بالنسبة لله سبحانه وتعالى، فإنه دائمًا حاضر لا يغيب، وقد أفاد هذه الضمير صيغة القصر، أي أن المنعم بنعمة الطعام ونعمة إتاحته لخلقه ونعمة تقديمه لهم، ونعمة إدخاله إلى جوف هذا المخلوق، ونعمة هضمه، ونعمة نفعه لهذا المخلوق، هو الله وحده لا شريك له في ذلك، وعلى ذلك فهو وحده المستحق لعبادة هذا المخلوق له، أي أنه لا معبود بحق إلا الله.

هذه الأهمية القصوى للطعام بالنسبة للإنسان دفعت هذا الإنسان إلى البحث عن الطعام وإنتاج مكوناته، بحيث تكون هذه المكونات قريبة من يديه تكفي لتغطية حاجته إلى هذا الطعام مهما كلفه ذلك من جهد وعناء.

هذا الاهتمام الشديد بالطعام يظهر في كل المجتمعات الإنسانية أفرادًا وجماعات، فالإنسان يصيبه الذعر إذا تخيّل عجزه عن توفير الغذاء لنفسه، ويصاب بالذعر أشد ما يكون إذا دهمه غيره مهددًا بسلب مكونات الموارد التي تقوم عليها صناعة الغذاء !!! حتى شاع في المجتمعات الإنسانية قول مأثور : «عض قلبي، ولا تعض رغيفي»، ولقد تعددت في الفترة الأخيرة من عمر الأرض البحوث الزراعية، وتعددت الاختراعات التي ينجز الإنسان بها أمنه الغذائي سواء تم ذلك عن طريق الأفراد، أو تم عن طريق الجماعات والحكومات .

وقد اصطلح المفكرون والعلماء والحكماء في هذا العصر على تسمية الغاية من البحوث في هذا المضمار، ومن الإجراءات التي تتخذها الجماعات والحكومات والأفراد والتي من شأنها توفير هذا الطعام (الغذاء) باصطلاح (الأمن الغذائي) مما يوحي بأن هناك هاجسًا يؤرق الإنسان المعاصر، هذا الهاجس هو الخوف من نقص الغذاء أو انعدامه، أو الجوع الذي يهدد حياة الإنسان نفسه على وجه الأرض؛ مما حدا ببعض الباحثين أن يُدبجوا البحوث والمقالات التي تحتوي سطورها على تهديد الإنسان بأن نصيبه من الماء في نقصان.

ومن الكتب التي تحمل هذا الإنذار للإنسان المعاصر كتاب «الأمن الغذائي للوطن العربي» من تأليف الدكتور محمد السيد عبد السلام وهو من ضمن سلسلة عالم المعرفة التي تصدر في الكويت، ورقم هذا الكتاب (٢٣٠) والذي جاء بالصفحة رقم (١٨) و(١٩) منه ما يأتي:

١- نقصت مساحة الغابات والأحراش بنحو ٣٢٩ هكتار نتيجة لتحويل جزء منها إلى أراض زراعية أو مراعي، وجزء آخر للاستخدامات الأخرى، ومن ثم نقص متوسط ما يخص الفرد الواحد بنحو ٣٨٪ .

٢- وبوجه عام لم تتغير المساحة الكلية للأراضي المستثمرة في المجالات الزراعية المختلفة، ومن ثم نقص متوسط ما يخص الفرد الواحد بنفس مقدار الزيادة السكانية، أي حوالي ٣٣٪ .

(وهكذا نجد على المستوى العالمي، عدم مواكبة عمليات استصلاح أراض جديدة وإدخالها في مجال الاستثمار الزراعي للزيادة السكانية الأمر الذي يعبر بصورة واضحة عن محدودية هذا المورد الطبيعي، وصعوبة إضافة أراض يمكن استصلاحها، أو عدم توافر مورد الماء اللازم لريها، أو عدم توافر الاستثمارات أو الظروف المناخية المناسبة، أو غيرها. ومن المرجح أن يستمر هذا الموقف مستقبلاً فتظل المساحة الكلية للأراضي المستثمرة زراعيًا على حالها، ويتناقص متوسط ما يخص الفرد الواحد من الأرض اللازمة لإنتاج ما يحتاج إليه من غذاء ومنتجات زراعية، ومن ثم يصبح المدخل الوحيد المتاح هو تكثيف استخدام مورد الأرض والارتقاء بإنتاجيته.

ومورد الماء، وكما هو الحال بالنسبة لمورد الأرض الزراعية، محدود بطبيعته، ونصيب الفرد منه آخذ في التناقص تبعًا للزيادة السكانية، والمصادر الرئيسية للموارد المائية المتاحة للزراعة ثلاثة:

١- الأمطار . ٢- الأنهار . ٣- الماء الجوفي.

ويلاحظ بوضوح الاتجاه نحو التناقص في جميع المناطق الجغرافية بالعالم التي تباينت كثيراً من متوسط ما يخص الفرد وفي معدّل التناقص.

ثالثًا: إنتاج الغذاء (يتحسن ببطء). هذا ما ورد بالصفحات (١٨، ١٩، ٢٠) من كتاب الأمن الغذائي للوطن العربي بتصرف.

وأحب أن أشير إلى أنني ما قصدت من نقل هذه الكلمات من هذا الكتاب إلا مقصداً واحداً هو الإشارة إلى الخوف والقلق الذي يصيب العلماء والمفكرين والمثقفين في العالم العربي من نقصان الغذاء طعامًا وشرابًا في هذا العالم، وينذر بالخطر، أما بالنسبة لي فعقيدتي في الله سبحانه وتعالى تجعلني استبعد من ذهني أن يكون سبب الجوع الذي نخافه جميعًا هو نقصان الماء أو الأرض الزراعية، وذلك لسببين:

١- بالنسبة للعالم كله: (الأرض كلها)، قال الله سبحانه وتعالى في الآية التاسعة والعاشرة من سورة فصلت:

﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ⑨ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ﴾ [فصلت: ٩، ١٠].

يقول الإمام ابن كثير في تفسيره لهذين الآيتين:

هذا إنكار من الله تعالى على المشركين الذين عبدوا معه غيره، وهو الخالق لكل شيء، القاهر لكل شيء، المقتدر على كل شيء، فقال:

﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ أي: نظراء وأمثالاً تعبدونها معه: ﴿ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ أي الخالق للأشياء هو ربّ العالمين كلهم.

وهذا المكان فيه تفصيل لقوله تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [الحديد: ٤]، ففصل ها هنا ما يختص بالأرض مما اختص بالسماء، فذكر

أنه خلق الأرض أولاً لأنها كالأساس والأصل أن يبدأ بالأساس، ثم بعده بالسقف كما قال عز وجل: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾ [البقرة: ٢٩].

فأما قوله تعالى: ﴿أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا (٢٧) رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا (٢٨) وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا (٢٩) وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا (٣٠) أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا (٣١) وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا (٣٢) مَتَاعًا لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ﴾ [النازعات: ٢٧-٣٣]

ففي هذه الآيات: أن دحو الأرض كان بعد خلق السماء، فالدحو هو مفسر بقوله: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا﴾، وكان هذا بعد خلق السماء، فأما خلق الأرض فقيل: خلق السماء بالنص، وبهذا أجاب ابن عباس رضي الله عنهما فيما ذكره البخاري عند تفسير هذه الآية من صحيحه فإنه قال: «وقال المنهال عن سعيد بن جبير قال: قال رجل لابن عباس رضي الله عنهما: إني لأجد في القرآن أشياء تختلف عليّ، قال: ﴿فَلا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلا يَتَسَاءَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١]، ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ [الصافات: ٢٧]، ﴿وَلا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٤٢]، ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣]، فقد كتموا في هذه الآية، وقال تعالى: ﴿أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا (٢٧) رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا (٢٨) وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا (٢٩) وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ [النازعات: ٢٧-٣٠]، فذكر خلق السماء قبل الأرض، ثم قال تعالى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [فصلت: ٩] إلى قوله: ﴿قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ فذكر في هذه خلق الأرض قبل السماء، قال: ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفتح: ١٤]، ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [الفتح: ١٩]، ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [النساء: ٥٨] فكأنه كان ثم مضى فقال ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿فَلا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلا يَتَسَاءَلُونَ﴾ في النفخة الأولى ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَاءَ اللَّهُ﴾ [الزمر: ٦٨] فلا أنساب بينهم عند

ذلك ولا يتساءلون بينهم في النفخة الأخرى ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾، وأما قوله: ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ ، ﴿وَلا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ فإن الله تعالى يغفر لأهل الإخلاص ذنوبهم، فيقول المشركون: تعالوا نقول لم نكن مشركين، فيختم على أفواههم فتنطق أيديهم فعند ذلك يعرف أن الله تعالى لا يكتم حديثًا وعنده ﴿وَلا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ فإن الله تعالى يغفر لأهل الإخلاص ذنوبهم، فيقول المشركون تعالوا نقول : لم نكن مشركين، فيختم على أفواههم فتنطق أيديهم، فعند ذلك يعرف أن الله تعالى لا يكتم حديثًا وعنده ﴿يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، وخلق الأرض في يومين، ثم خلق السماء، ثم استوى إلى السماء فسواهن في يومين آخرين، ثم دحى الأرض، ودحيها أن أخرج منها الماء والمرعى، وخلق الجبال والرمال والجماد والآكام وما بينهما في يومين آخرين، فذلك قوله: «دحاها»، وقوله: ﴿خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ فخلق الأرض وما فيها من شيء في أربعة أيام، وخلق السموات في يومين، يعني يوم الأحد ويوم الاثنين ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا﴾ أي: جعلها مباركة قابلة للخير والبذور والغراس، وقدر فيها أقواتها، وهو ما يحتاج إليه من الأرزاق والأماكن التي تزرع وتغرس يعني يوم الثلاثاء والأربعاء فهما مع اليومين السابقين، أربعة أيام، ولهذا قال: ﴿فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ﴾ أي: لمن أراد السؤال عن ذلك ليعلمه. وقال عكرمة ومجاهد: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾ جعل في كل أرض ما لا يصلح في غيرها، ومنه العصب في اليمن، والسابوري في سابور، والطيالسة بالري. وقال ابن عباس وقتادة والسدي في قوله تعالى: ﴿سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ﴾ أي: لمن أراد السؤال عن ذلك. وقال ابن زيد معناه: وقدّر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين، أي على وفق مراده من له حاجة إلى رزق أو حاجة، فإن الله تعالى قدر له ما هو محتاج إليه ﴿وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ [إبراهيم: ٣٤] ، والله أعلم، انتهى كلام ابن كثير رحمه الله.

وعقيدتي التي هي راسخة في قلبي رسوخ الجبال الرواسي، هي أن الله سبحانه وتعالى قدّر في الأزل أرزاق كل من كتبت لهم الحياة على أرض من هذه المعمورة. أحصاهم سبحانه وتعالى عددًا، وقدّر لهم الأيام والليالي والساعات والدقائق والثواني التي كتبت لهم الحياة فيها، وأحصي أرزاقهم إحصاءً حصريًا، وأودع أرزاقهم هذه في الأرض التي تقلهم، وقسّم هذه الأرزاق عليهم ولم ينس أحدًا منهم، وأبقى هذه الأرزاق في باطن الأرض كافية لهم مهما كان عددهم إلى يوم القيامة.

فبالنسبة لوطننا الغالي مصر الحبيبة فإن أرضها تطوي في باطنها أرزاق أهلها تكفيهم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها مهما كثر سكانها وحتى ولو وصلوا مليارًا (ألف مليون) .

ولا أسمع لمن يدعي أن في مصر أزمة طعام، أو أنها تعاني من فقر في الغذاء، أو أن أحدًا يموت جوعًا.

إنَّ الله سبحانه وتعالى يعلم بسابق علمه أن سكان مصر سيزيدون على مرّ الزمان، ويكثرون على مر الأيام والليالي، وهو سبحانه وتعالى قد أحصاهم عددًا قبل خلقهم عالمًا بما هم في حاجة إليه من طعام وشراب وكساء، وهو المتكفل بأرزاقهم ، فهو سبحانه وتعالى قد أعدّ لهم في باطن أرض مصر كل ما يحتاجونه من أرزاق، ولا يبقى إلا أن يسعى أهلها سعي المخلصين للحصول على هذه الأرزاق، وليعملوا عمل المؤمنين في سبيل تحصيله وهم مطمئنون واثقون فيما عند الله، وما عند الله دائمًا باق شاهدٌ على أنه سبحانه وتعالى الرزاق ذو القوة المتين.

وعلى كل حال فلنا عودة لهذا الموضوع إن شاء الله تعالى في الصفحات القادمة والله المستعان .

ولنعد الآن إلى حرص القرآن الكريم على تمجيد إطعام الطعام والشد على أيدي المطعمين الطعام وزجر من عنده الطعام، ويبخل به على مستحقيه فيما يأتي من آيات الذكر الحكيم:

١- ﴿لا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة: ٨٩].

٢- قال الله سبحانه وتعالى في الآية رقم (١٨٤) من سورة البقرة:

﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٨٤].

٣- وفي سورة الإنسان قال سبحانه وتعالى في الآيات من (٥) إلى (١٢):

﴿إِنَّ الأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ۝ يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ۝ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلا شُكُورًا ۝ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ۝ فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ۝ وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾ [الإنسان: ٥-١٢].

٤- وفي سورة الحج يقول سبحانه وتعالى في الآية رقم (٢٨):

﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنْ بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ﴾ [الحج: ٢٨].

٥- وفي سورة الحج أيضًا يقول الله سبحانه وتعالى في الآية (٣٦):

﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الحج: ٣٦] .

٦- في سورة المائدة في الآية (٩٥) يقول الله سبحانه وتعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾ [المائدة: ٩٥] .

٧- قال الله سبحانه وتعالى في سورة الحاقة في الآيات من (٢٥ إلى ٣٤):

﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ (٢٥) وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ (٢٦) يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ (٢٧) مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ (٢٨) هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ (٢٩) خُذُوهُ فَغُلُّوهُ (٣٠) ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ (٣١) ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ (٣٢) إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ (٣٣) وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ [الحاقة: ٢٥-٣٤] .

٨- قال الله سبحانه وتعالى في سورة الفجر في الآيات من (١٧) إلى (٢٠):

﴿كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ (١٧) وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ (١٨) وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا (١٩) وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ [الفجر: ١٧-٢٠] .

٩- سورة الماعون: بسم الله الرحمن الرحيم:

﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ (١) فَذَٰلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ (٢) وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ (٣) فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ (٤) الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ (٥) الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ (٦) وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ [الماعون: ١-٧] .

يقول الإمام ابن كثير رحمه الله في تفسير هذا السورة المباركة: «يقول الله تعالى: أرأيت يا محمد الذي يكذب بالدين وهو المعاد والجزاء والثواب ﴿فَذَٰلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ﴾ أي هو الذي يقهر اليتيم، ويظلمه حقه ولا يحسن إليه ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ كما قال تعالى: ﴿كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ (١٧) وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ [الفجر: ١٧، ١٨] يعني الفقير الذي لا شيء له يقوم بأوده وكفايته .

[الجزء الرابع من طبعة دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي].

•• ما جاء في الحديث الشريف خاصًا بإطعام الطعام:

أسمى الصدقات:

١- عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

«من تصدّق بعدل تمرة من كسب طيب - ولا يقبل الله إلا الطيب- فإن الله يقبلها بيمينه، ثم يربيها لصاحبها كما يربي أحدكم فلوّه حتى تكون مثل الجبل»

[رواه البخاري ومسلم والنسائي والترمذي وابن ماجه وابن خزيمة في صحيحه].

وفي رواية لابن خزيمة:

«إن العبد إذا تصدق من طيب تقبلها الله منه، وأخذها بيمينه، فربّاها كما يربي أحدكم مهره أو فصيله، وإن الرجل ليتصدق باللقمة فتربو في يد الله أو قال في كفّ الله حتى تكون مثل الجبل، فتصدقوا».

قال المازري: قد ذكرنا استحالة الجارحة على الله سبحانه وتعالى، وأن هَذا الحديث وشبهه إنما عبَّر به على ما اعتادوا في خطابهم ليفهموا، فكنّى هنا عن قبول الصدقة بأخذها في الكف، وعن تضعيف أجرها بالتربية، قال القاضي عياض: «لما كان الشيء الذي يرتضي ويعز يتلقى باليمين، ويؤخذ بها استعمل في هذا، واستعير للقبول والرضا».

قال الشاعر:

إذا ما رآية رفعت لمجد تلقاها معجري عرابة باليمين

وفي رواية صحيحة للترمذي: قال رسول الله ﷺ:

«إن الله يقبل الصدقة، ويأخذها بيمينه، فيربيها لأحدكم كما يربي أحدكم مهرة، حتى إن اللقمة لتصير مثل أحُد».

وتصديق ذلك في كتاب الله ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ﴾ [التوبة: ١٠٤].

والآيات من أولها يقول الحق سبحانه وتعالى في سورة التوبة (١٠٢-١٠٥):

﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٠٣) أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٠٤) وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ١٠٢-١٠٥]

٢- عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«بينا رجل في فلاة من الأرض فسمع صوتًا في سحابة: اسق حديقةفلان، فتَنَحَّى ذلك السحاب فأفرغ ماءه في حرة، فإذا شرجة من تلك الشراج قد استوعبت ذلك الماء كله، فتتبع الماء، فإذا رجل قائم في حديقة يحول الماء بمسحاته فقال له: ياعبد الله!! ما اسمك؟ قال: فلان بالاسم الذي سمع في السحابة، فقال له: يا عبد الله: لم سألتني عن اسمي؟ قال: سمعت في السحاب الذي هذا ماؤه، يقول: اسق حديقة فلان لاسمك فما تصنع؟ قال: أما إذا قلت هذا، فإني أنظر إلى ما يخرج فأتصدق بثلثه، وآكل أنا وعيالي ثلثه، وأراد ثلثه» [رواه مسلم].

٣- عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«إن الله عز وجل يقول يوم القيامة: يا ابن آدم!! مرضت فلم تعدني، قال: يارب كيف أعودك وأنت رب العالمين؟ قال: أما علمت أن عبدي فلانًا مرض

فلم تعده؟ أما علمت أنك لو عدته لوجدتني عنده؟ يا ابن آدم استطعمتك فلم تطعمني، قال: يارب كيف أطعمك وأنت رب العالمين؟ قال: أما علمت أنه استطعمك عبدي فلان فلم تطعمه؟ أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندي؟ يا ابن آدم!! استسقيتك فلم تسقني!! قال: يارب!! وكيف أسقيك وأنت رب العالمين؟ قال: استسقاك عبدي فلان فلم تسقه، أما إنك لو سقيته وجدت ذلك عندي» [رواه مسلم].

٤- روي عن معاذ بن جبل رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

«من أطعم مؤمنًا حتى يشبعه من سغب أدخله الله من أبواب الجنة لا يدخله إلا من كان مثله» [رواه الطبراني في الكبير].

هذا وليست الزكاة هي المصدر الوحيد لتمويل التكافل الاجتماعي ضمانًا لحاجة الفرد، وإقامة لمرافق الدولة، بل في المال حق سوى الزكاة. وفي هذا المعنى يقول سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم :

«إن الله فرض على أغنياء المسلمين بالقدر الذي يسع فقراءهم، ولن يجهد الفقراء إذا جاعوا أو عروا إلا بما يصنع أغنياؤهم، ألا وإن الله يحاسبهم حسابًا شديدًا، ويعذبهم عذابًا أليمًا».

[أخرجه الطبراني في الصغير ٤٥٣، وفي الأوسط ٣٥٧٩، من حديث علي رضي الله عنه، وجاء في المحلى (٦ / ١٥٦) لابن حزم تأكيداً لهذا المعنى التكافلي ما نصه: وفرض على الأغنياء من أهل كل بلد أن يقوموا بفقرائهم، ويجبرهم السلطان على ذلك إن لم تقم بهم الزكوات].

•• أشرف وليمة في تاريخ الإنسانية:

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «خرج أبو بكر بالهاجرة (وقت الظهر والحر شديد) إلى المسجد، فسمع عمرُ فقال: يا أبا بكر: ما أخرجك هذه الساعة؟ قال: ما أخرجني إلا ما أجد من حاق الجوع!! قال: وأنا والله ما أخرجني غيره، فبينما هي كذلك إذ خرج عليهما رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال:

«ما أخرجكما هذه الساعة؟».

قال: والله ما أخرجنا إلا ما نجده في بطوننا من حاق الجوع.

قال ﷺ: «وأنا والذي نفسي بيده ما أخرجني غيره فقوما»

فانطلقوا حتى أتوا باب أبي أيوب الأنصاريّ، وكان أبو أيوب يدخر (يحفظ) لرسول الله ﷺ طعامًا كان أو لبنًا، فأبطأ عليه يومئذ، فلم يأت لحينه، فأطعمه لأهله، وانطلق إلى نخلة يعمل فيه، فلما انتهوا إلى الباب خرجت امرأته فقالت: مرحبًا بنبيّ الله ﷺ، وبمن معه.

قال لها نبي الله ﷺ: «أين أبو أيوب؟»

فسمعه وهو يعمل في نخل له، فجاء يشتدّ فقال:

مرحبًا بنبي الله ﷺ، وبمن معه، يانبي الله!! ليس بالحين الذي كنت تجيء فيه؟ فقال ﷺ: صدقت، قال: فانطلق، فقطع عذقًا من النخل فيه من كل التمر والرطب والبسر. فقال ﷺ:

«ما أردْت إلى هذا؟ ألا جنيت لنا من تمره؟».

قال: يارسول الله!! أحببت أن تأكل من تمره ورطبه وبسره، ولأذبحن لك مع هذا!!.

قال ﷺ: «إن ذبحت، فلا تذبحن ذات در».

فأخذ عناقًا أو جديًا فذبحه، وقال لامرأته: اخبزي واعجني لنا، وأنت أعلم بالخبز.

فأخذ نصف الجدي فطبخه وشوى نصفه، فلما أدرك الطعام، ووضع بين يدي النبي ﷺ وأصحابه أخذ من الجدي فجعله في رغيف وقال:

«يا أبا أيوب!! أبلغ بهذا فاطمة، فإنها لم تُصب مثل هذا منذ أيام».

فذهب أبو أيوب إلى فاطمة، فلما أكلوا وشبعوا قال النبي ﷺ:

«خبز ولحم، وتمر وبسر، ورطب، ودمعت عيناه، والذي نفسي بيده، إن هذا هو النعيم الذي تسألون عنه يوم القيامة».

فَكَبُرَ ذلك على أصحابه، فقال:

«بل إذا أصبتم مثل هذا، فضربتم بأيديكم فقولوا: بسم الله، فإذا شبعتم فقولوا: الحمد لله الذي أشبعنا وأنعم علينا فأفضل، فإن هذا كفاف بهذا».

فلما نهض قال لأبي أيوب: «أئتنا غدًا».

وكان لا يأتي أحد إليه معروفًا إلا أحب أن يجازيه، قال: وإن أبا أيوب لم يسمع ذلك، فقال عمر ﷺ: إن النبي ﷺ يأمرك أن تأتيه غدًا، فأتاه من الغد، فأعطاه وليدته (خادمه)، فقال:

« يا أبا أيوب!! استوص بها خيرًا، فإنا لم نر إلا خيرًا مادامت عندنا».

فلما جاء بها أبو أيوب قال: لا أجد لوصية رسول الله ﷺ خيرًا له من أن أعتقها» . [رواه الطبراني وابن حبان في صحيحه، وكلاهما من رواية عبدالله بن كيسان عن عكرمة عن ابن عباس] (حاق الجوع: قاف مشددة هو شدته وكلبه) [الإمام الحافظ زكي الدين عبد العظيم بن عبد القوي المنذري في الترغيب والترهذي الجزء ٣، ص١٤٨-١٥٠]

● **الحديث برواية أخرى:** [الترغيب والترهيب الجزء الرابع ص١٣٥، ٢٠٥]

عن أبي هريرة ﷺ قال: «خرج رسول الله ﷺ ذات يوم وليلة، فإذا هو أبي بكر وعمر ﷺ فقال: ما أخرجكما من بيوتكما هذه الساعة؟ قالا: الجوع يا رسول الله! قال ﷺ: «والذي نفسي بيده أخرجني الذي أخرجكما، قوموا» فقاموا معه. فأتوا رجلاً من الأنصار، فإذا هو ليس في بيته، فلما رأته المرأة قالت: مرحبًا أهلاً وسهلاً!! فقال لها رسول الله ﷺ:

«أين فلان؟»

قالت: «ذهب يستعذب لنا الماء» إذ جاء الأنصاري فنظر إلى رسول الله ﷺ وصاحبيه، ثم قال: الحمد لله!! ما أحد اليوم أكرم أضيافًا مني!! فانطلق فجاءهم بعذق فيه بسر وتمر ورطب، وقال: كُلوا، وأخذ المدية .

فقال له رسول الله ﷺ: «إياك والحلوب».

فذبح لهم، فأكلوا من الشاة، ومن ذلك العذب، وشربوا، فلما أن شبعوا ورُووا قال رسول الله ﷺ لأبي بكر وعمر رضي الله عنهما:

«والذي نفسي بيده لتسألن عن هذا النعيم يوم القيامة» .

[رواه مالك بلاغًا باختصار، ومسلم واللفظ له، والترمذي بزيادة، والأنصاري المبهم: هو أبو الهيثم بن التيهاني بفتح المثناة فوق وكسر المثناة، وفي مسند أبي يعلى مصرحًا به في الموطأ، والترمذي، وفي مسند أبي يعلى، ومعجم الطبراني من حديث ابن عباس أنه أبو الهيثم، وكذا في المعجم أيضًا من حديث ابن عمر. وقد رويت هذه القصة من حديث جماعة من الصحابة مصرع في أكثرها بأنه أبو الهيثم وجاء في معجم الطبراني الصغير والأوسط، وصحيح ابن حبان من حديث ابن عباس رضي الله عنهما وغيره أنه أبو أيوب الأنصاري، والظاهر أن هذه القصة اتفقت مرة مع أبي الهيثم، ومرّة مع أبي أيوب، والله أعلم، وتقدم حديث ابن عباس في الحمد بعد الأكل. (العذق): هنا بكسر العين، وهو الكباسة والقِنو، وأما بفتح العين فهو النخلة. الترغيب والترهيب ص٢٠٦ من الجزء (٤)].

• الأسباب في ذكر هذه القصة بالتفصيل:

الذي حملني على الاستشهاد بهذه القصة بروايتها في مجال إطعام الطعام كواجب من الواجبات الاجتماعية التي فرضها الإسلام على المسلمين، هو أني حصلت منها هذه الدروس التي سعدت بها، وقد شرحت صدري للإسلام، وزاد تعلقي به، وتعمق شعوري بأن هذا الإسلام الحنيف هو وحده الذي يحقق الخلاص للإنسان المعاصر في مشارق الأرض ومغاربها مما يعانيه من حيرة وضلال، ومما يقاسيه من شقاء ينغص عليه حياته، ويحرمه من الأمن الذي أصبح منه بعيداً يتشوف إليه، ويفقده السلام الذي رحل عنه، وأصبح ينشده ويجده ويحلم به، فلا يصل إليه، بالرغم من حرصه عليه، وحاجته إليه، وبالرغم من أنه يسهر الليل ويكافح النهار من أجل تحقيقه على أرض الوجود، والغريب العجيب أن الإسلام يحمله له على يديه، ويقربه إليه، فيما ورد في القرآن من قواعد وأحكام، وفيما تنطوي عليه السنة الطاهرة من تعاليم... وهاكم هذه الدروس المستقاة من نبأ هذه الوليمة المباركة:

الدرس الأول:

إن صدقة إطعام الطعام ذات مفهوم واسع ليست قاصرة على إطعام الفقراء والبؤساء، إنما يتسع مفهومًا ليشمل إطعام الغني والفقر في الحالتين

صدقة يرضى عنها الله، ويجزي صاحبها أحسن الجزاء وأوفاه، وعلى هذا فإن الواقعة المنشئة للثواب عليها هي الجوع إنها حق لكل جائع مهما كانت درجته الاجتماعية، ومهما كان مركزه الاقتصادي.. فها هو أشرف الخلق سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم، وها هما صاحباه الأكرمان سيدنا أبو بكر الصديق (ثاني اثنين)، وسيدنا عمر بن الخطاب ﵄ وهما من أكرم سادات قريش، تحقق فيهم جميعًا شرط الجوع، بالرغم من وفرة المال عندهم جميعًا... إلا أنهم بالجوع أصبحوا أصحاب حق في تناول الطعام، ولم يجدوا حرجًا في النزول ضيوفًا على سيدنا أبي أيوب الأنصاري ﵁ وأرضاه، إذ إنه قد توفر لديه الطعام الذي هم في حاجة إليه.

الدرس الثاني:

إن المال وحده مهما كان قناطير مقنطرة من الذهب والفضة لا يستطيع في هذا المقام أن يؤدي وظيفة الطعام مهما كان هذا الطعام ضئيلاً. إن الطعام له صلة وثيقة بحياة الإنسان نفسها، فالإنسان إذا فقد الطعام مدة طويلة من الزمان يكون هلاكه محققًا، وإذن فإن الذي يطعمه إنما يمده بسبب من أسباب الحياة الرئيسية، وعلى ذلك فهو يحييه، وعندئذ يكون كما أحيا الناس جميعًا، وفي هذا إظهار لخطورة الجوع، وفي الوقت نفسه إظهار لخطورة إطعام الطعام.

الدرس الثالث:

هذه الصراحة والشجاعة الأدبية التي تجلت في شخصية أشرف الخلق سيدنا محمد ﷺ، وانعكست أضواؤها ووضاءتها في أحب خلق الله إليه سيدنا أبو بكر الصديق، وسيدنا عمر بن الخطاب ﵄، فلم يجد أحد منهم حرجًا في أن يصارح أخاه بما يعانيه من حاقِّ الجوع!!!

إن هذه الصراحة، وهذه الشجاعة الأدبية هما ثمرتان ناضجتان فياضتان للإيمان الذي أترعت قلوبهم به، وهذا شأن الإيمان إذا خالطت بشاشته القلوب.

هذا الإيمان ركز في قلب سيدنا رسول الله ﷺ، وانساب جدوله الرقراق في قلبي صاحبيه فشعر كل منهم بما يشعر الآخر، فشعور كل منهم بالجوع توحّد في طبيعته وتوحد في وقته، وتوحد في معالجته.. وهذا شأن المؤمنين كما وصفهم حضرة النبي ﷺ في هذا الحديث الشريف:

«مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعت له سائر الأعضاء بالحمى والسهر».

لقد قدَّم سيدنا رسول الله ﷺ وصاحباه ﷺ للمسلمين في كل زمان وفي كل مكان المثل الأعلى في تبادل الشعور والوجدان باعتباره التعبير الجميل عن حقيقة الإيمان، وحقيقة الإسلام.. اللهم حقق ذلك في المسلمين.

الدرس الرابع:

تلقيته من سيدنا أبي أيوب الأنصاري وزوجته:

أما زوجة سيدنا أبي أيوب الأنصاري، فقد أثبتت جدارة بثناء سيدنا رسول الله ﷺ على نساء الأنصار عندما هشّت للقائه وصاحبيه ﷺ. وإن دلَّ ذلك على شيء فإنما يدلنا على مروءة هؤلاء الصحابيات من الأنصار ﷺ، ويذكرنا أيضًا بما تتصف به الزوجة الصالحة، وبما تسببه من سعادة لزوجها الصالح المؤمن؛ إذ إنها أحسنت استقبال أشرف الخلق سيدنا محمد ﷺ وصاحبيه ﷺ؛ لأنها تعلم حبّ زوجها سيدنا أبي أيوب الأنصاري لهم.

وكانت بذلك موصلة جيدة للمودة الحميمة والحب العظيم الذي يكنه الأنصار لأشرف الخلق سيدنا محمد ﷺ.. فهنيئًا لها هذا السمو الروحي الذي وسم لقاءها لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم وصاحبيه الأكرمين ﷺ، هنيئًا لها بالإيمان العظيم الذي تميز بحلاوته تملأ قلبها عطر، وتملأ صدرها أريجًا، وفازت بهذه الثمرة الطيبة التي يحملها غصن حبّ الله سبحانه وتعالى، وحبّ سيدنا رسول الله ﷺ الموثق في الحديث الشريف الذي رواه الإمام البخاري ﷺ يقول فيه حضرة النبي ﷺ:

«ثلاث من كنَّ فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحبّ إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله ، وأن يكره أن يعود إلى الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف به في النار».

[رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي كلهم عن أنس ﷺ عن النبي ﷺ] .

وفازت أيضًا بما جاء في الحديث الشريف الصحيح الذي يقول فيه سيدنا رسول الله ﷺ :

« كل معروف صدقة ، وإن من المعروف أن تلقى أخاك بوجه طلق» .

[رواه أحمد والترمذي، وقال : حديث حسن صحيح، وصدره في الصحيحين]

الدرس الخامس:

إكرام الضيف من شعائر الإسلام:

إن إكرام الضيف من شعائر الإسلام، فهو صدقة من الصدقات التي يتعبد المؤمنون بها، فالصدقة عبادة.

ولقد هنأ سيدنا أبو أيوب الأنصاري نفسه بضيافة سيدنا رسول الله ﷺ وصاحبيه سيدنا أبي بكر الصديق، وسيدنا عمر بن الخطاب بقوله الوارد في هذا الحديث، قال فيه: «ما أحد اليوم أكرم أضيافًا مني».

وإكرام الضيف جاء ذكره في القرآن الكريم موصوفًا بالتمجيد، وعندما يتتبع الإنسان ذكر مناقب هذه الفضيلة في القرآن الكريم يجد هذه الفضيلة تتألق وصفًا لهذه الشعيرة، وكذلك في الحديث، ففي القرآن الكريم حديث عن ضيافة سيدنا إبراهيم الخليل عليه وعلى نبينا سيدنا محمد أفضل الصلوات وأتم التسليم منه ما جاء في سورة الذاريات في الآيات من (٢٤ إلى ٣٠) يقول الله سبحانه وتعالى فيها:

﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ

أَلا تَأْكُلُونَ (٢٧) فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلامٍ عَلِيمٍ (٢٨) فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ (٢٩) قَالُوا كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾ [الذاريات: ٢٤-٣٠] .

لقد كان سيدنا إبراهيم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام مشهوراً بإكرام الضيف، فكانت جائزته في هذه الآيات أن منحه الله الولد والذرية إلى أن كان من ذريته أكرم الأنبياء، وأشرف المرسلين سيدنا محمد ﷺ .

٢- الحديث الشريف:

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال:

«من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليصل رحمه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت» [رواه البخاري ومسلم].

الدرس السادس:

ما نتعاطاه درسًا مفيداً، يضيء سلوكنا، ويملأ بالسعادة حياتنا حينما نقرأ في هذا الحديث الشريف نبأ من أنباء سيدنا رسول الله ﷺ حينما وضع سيدنا أبو أيوب الأنصاري رضي الله عنه وأرضاه اللحم أمامه عليه الصلاة والسلام، وأخذ من الجدي فجعله في رغيف وقال:

- يا أبا أيوب أبلغ بهذا فاطمة، فإنها لم تصب مثل هذا منذ أيام.

فذهب أبو أيوب إلى فاطمة.

ما هذا الخلق الكريم!! يالهذه الشجاعة النادرة التي اتصف بها سيدنا رسول الله ﷺ ليس هناك من يتصف بهذه العظمة إلا أشرف الخلق سيدنا محمد ﷺ !! ذلك لأننا ونحن لسنا في عظمته ﷺ نتردد أن نأتي مثل هذا الفعل خشية تأويله من جانب بعض الناس الذين يتناولونه بالتفسير الذي

يسيء إلينا من أننا وصلنا إلى درجة من الفقر تجعلنا نحمل جزءاً مما يقدم لنا من طعام كضيوف لأولادنا.

إن سيدنا رسول الله ﷺ قد علمنا أن هذه المشاعر التي تنتابنا في مثل هذه المواقف هي مشاعر سلبية لا تدل إلا على كِبْر يساورنا ويشين سلوكنا، بينما يقيم تصرف سيدنا رسول الله ﷺ بأنه أرقى تصرف وأسمى سلوك وأعلى موقف، فهو قد رفع من قدر سيدنا أبي أيوب الأنصاري ؓ، ونفخ من روحه الطيبة ما جعل مودته لأهل البيت ومودتهم له مودة حميمة، وأظهر سموّ العلاقة التي تربطه عليه الصلاة والسلام بسيدنا أبي أيوب الأنصاري لصلة الرحم بينهما؛ لأنه نجاري من أخوال سيدنا عبدالله والد سيدنا رسول الله ﷺ.

وبهذا تتميز علاقة حضرة النبي ﷺ بسيدنا أبي أيوب الأنصاري.

ثم أخيراً وليس آخراً: إن المسلم إذا كان في بيت أخيه المسلم يشعر بأنه بيته له فيه ما لأخيه المسلم تماماً بتمام. وهذا يجعله صريحاً في أقواله وأفعاله، لا يكتم شيئاً عن أخيه، ولا يتعالى عليه كأنما هو نفسه يقف أمام المرآة ليرى نفسه فيها، فالمؤمن مرآة أخيه.

وهذا يدل على أن سيدنا رسول الله ﷺ كان واضحاً أمام أصحابه ظاهره كباطنه، متواضعاً معهم، وهو سيد المتواضعين صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم.

الدرس السابع:

إن وقائع هذا الحديث الشريف تذكرنا:

أولاً: يوم أن دخل سيدنا رسول الله ﷺ المدينة المنورة، على ناقته القصواء وكل بيوت الأنصار تهيأت لاستقباله، وحاول كثير منهم أن يمسك بخطام الناقة، وقال لهم: «دعوها فإنها مأمورة» وإذا بها تبرك أمام بيت أبي أيوب الأنصاري ؓ. وهذا يفيد أن الله سبحانه وتعالى قد اختار لحضرة

النبي ﷺ بيت أبي أيوب فخصه ﷺ بالنزول عليه في بني النجار إلى أن بنيت له حجرة أم المؤمنين سودة ، وبنى المسجد الشريف.

ومن الطريف أن نقرأ في سيرة ابن عباس رضي الله عنهما أن ابن عباس كان أميراً على البصرة للإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ورضي الله عنه، وأن أبا أيوب الأنصاري وفد عليه، فبالغ ابن عباس رضي الله عنهما في إكرامه، وقال: «لأجزينك على إنزالك النبي ﷺ عندك فوصله بكل ما في المنزل، فبلغ ذلك أربعين ألفًا». [سير أعلام النبلاء للإمام الذهبي، الجزء ٢٠، ص٤٠٥].

ثانيًا: يذكرنا بالأنصار ومناقب الأنصار في سورة الحشر، ويكفي أن نقرأ الآية رقم (٩)، يقول الله سبحانه وتعالى:

﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩] .

هذه الآية الكريمة، تحمل في حروفها وكلماتها تقييم رب العالمين سبحانه وتعالى- وهو الذي خلق الناس- لسلوك هذا الفريق من المؤمنين وأصحاب سيدنا رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم، وهم الأنصار سكان المدينة هذه السلوكيات الصادرة عنهم التي مصدر الحب في الله، وأول ثمرة لهذا الحبّ في الله هي خصلة الإيثار التي تحلّوا بها جميعًا، وكانت من أسباب حل المشاكل النفسية والمشاكل الاجتماعية والمشاكل الاقتصادية التي واجهت المهاجرين ساعة حلولهم أرض المدينة المنورة، وفي سرعة حلت هذه المشاكل فاطمأن المهاجرون إلى يومهم وغدهم، واستأنفوا حياتهم في صفاء روحي، وفي صفاء نفسي، وفي أمن وطمأنينة، ولم يعد لديهم اهتمامات تشغلهم عن الدعوة الإسلامية، التي أصبحت كل همّهم، فقد وضعوا أيديهم في أيدي الأنصار، والجميع وضعوا أيديهم في يد سيدنا رسول الله صلى الله

عليه وعلى آله وصحبه وسلم، ويد الله فوق أيديهم جميعًا، فلم يمض وقت طويل حتى ازدهرت شجرة الإسلام، وبسطت ظلها على أرجاء المدينة ومن حولها. وقامت للإسلام دولة قوية الدعائم، قامت على أرفع القيم، وأسمى المثل، دولة تحكم بالعدل، وتصون الحق، وتصنع الرفاهية، وتحفظ الحقوق، وتقدس الواجبات، وتُعْلي قدر الإنسان، وتكرّم حقيقته، وتحترم جوهره، وتعلي كلمة الله، ويخضع كل فرد فيها لحكم الله، لا فرق بين أعجمي وعربي، ولا فضل لأبيض على أسود إلا بتقوى أصحابها ينثر على العالم أضواء الآية الشريفة رقم (٩٠) من سورة النحل من القرآن الكريم، يقول الحق سبحانه فيها:

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠] .

والكل يتلون على سمع البشر قول الله سبحانه وتعالى في سورة الحجرات في الآية رقم (١٣) منها:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣] .

في فترة قصيرة من عمر الزمن هي سنة وجزء من السنة قامت دولة الإسلام تعلو سماءها راية مكتوب عليها بحروف من النور «لا إله إلا الله محمد رسول الله» صلى الله عليه وسلم، وأصبح للحق والعدل درع وسيف.

كان كل هذا ببركة (خصلة من خصال الأنصار) وهي خصلة الإيثار التي تَحَلَّوا بها.

خصلة الإيثار التي إذا تحلى بها المسلمون في هذا الزمان لتحقق للإنسانية كلها الأمن والأمان والحب والسلام. هذا كله تحقق بفضل خصلة الإيثار التي تحلى بها الأنصار، وهي درّة من درر الحب في الله، يقول أستاذنا الكبير

الدكتور محمد عثمان نجاتي أستاذ علم النفس في جامعات العالم العربي في كتابه «القرآن الكريم وعلم النفس» (ص٧٩):

«وأثنى القرآن على الأنصار لما أظهروه من محبة صادقة للمهاجرين من المسلمين، ولتقديمهم يد العون إليهم، إذ آووهم وشاركوهم في مساكنهم وأموالهم، وآثروهم على أنفسهم، واستشهد بالآية الشريفة رقم (٩) من سورة الحشر التي يقول الله سبحانه وتعالى فيها:

﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩] .

انظر معي أيها القارئ الكريم، وانظري معي أيتها القارئة الكريمة، كيف نهضت خصلة واحدة من الخصال الجميلة، وهي فضيلة الإيثار بأمة الإسلام، ودولة الإسلام، هذه الفضيلة حينما أصبحت سلوكًا يسلكه المجتمع المسلم سواء فيه الشعب أو الدولة، في أقل من ربع قرن بسط الإسلام جناحيه على شرق الأرض وغربها، وتحقق الفتح المبين الذي ذكره القرآن الكريم نعمة من أسمى النعم التي مَنَّ الله سبحانه وتعالى على أشرف خلقه سيدنا محمد ﷺ في قوله تعالى في أول سورة الفتح:

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ [الفتح: ١] .

ثم انظر معي أيها القارئ الكريم، وانظري معي أيتها القارئة الكريمة إلى واقع الأمة الإسلامية.

كيف استبدت ببعض دولها رذيلة الأنانية والأثرة بعد أن تخلت تمامًا عن فضيلة الإيثار؟

إن بعض هذه الدول ظن بعض القائمين عليها أن ما يخرج من الأرض من ثروات ضخمة، هو مسلكها وحدها وليس لغيرها فيها نصيب، وأنهم وحدهم

هم الذين خصهم الحظ بها دون غيرهم، فبخلوا على غيرهم من المسلمين بما يستحقونه من هذه الثروات، وضنوا عليهم بما شرعه الله سبحانه وتعالى من حق لهم قد يعدل حقهم أو يزيد إذا ما نبذوا الأنانية والأثرة وحكموا الإيثار الذي زكّاه الله في الأنصار، وتحكمت فيهم نزعة الأثرة، حتى أصبحنا نرى دولاً إسلامية يموت الأطفال فيها جوعًا، بينما يتقلب أفراد الدول الثرية في صنوف النعم وشهي الطعام، بل إن كلابهم تشبع من أرقى أنواع اللحوم!!!.

أرجو أصحاب الضمائر المؤمنة أن يجيبوا على هذا السؤال:

هل يحق لمجتمعات الدول الغنية (وهم معروفون للجميع) أن يدعوا أنهم يعرفون الإسلام؟

إني سأقرأ الإجابة على هذا السؤال في القرآن الكريم، وفي الحديث الشريف.

في القرآن الكريم الآية رقم (٧١) من سورة التوبة يقول الله فيها:

﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٧١].

وفي الحديث الشريف:

أخرج الإمام أحمد في الجزء الخامس من مسنده عن أبي مالك الأشعري أن رسول الله ﷺ لما قضى صلاته أقبل إلى الناس بوجهه فقال:

«يا أيها الناس اسمعوا، واعقلوا، واعلموا أن لله عز وجل عبادًا ليسوا بأنبياء ولا شهداء، يغبطهم الأنبياء والشهداء على مجالسهم وقربهم من الله».

فجاء رجل من الأعراب، من قاصية الناس وألوى بيده إلى النبي ﷺ فقال: يانبي الله، ناس من الناس ليسوا بأنبياء، ولا شهداء، يغبطهم الأنبياء والشهداء على مجالسهم وقربهم من الله؟ أنعتهم لنا - يعني صفهم لنا، فسر وجه رسول الله ﷺ لسؤال الأعرابي فقال رسول الله ﷺ :

«هم أناس من أفناء الناس، ونوازع القبائل، لم تصل بينهم أرحام متقاربة، تحابوا في الله، وتصافوا، يضع الله لهم يوم القيامة منابر من نور فيجلسهم عليها، فيجعل وجوههم نوراً، وثيابهم نوراً، يفزع الناس يوم القيامة ولا يفزعون، وهم أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون».

[رواه أبو داود عن عمر بن الخطاب، وأبو يعلى والحاكم].

والحديث الذي هو قاعدة شرعية:

«لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه».

إذن يجب على مجتمع المسلمين أن ينبذ الأثرة والأنانية وأن يتحلى بالإيثار وإنكار الذات، وفي هذا سبيل النصر وسبيل الأمن والأمان.

الدرس الثامن:

نتلقاه هذه المرة من سيدتنا وسيدة نساء العالمين فاطمة الزهراء رضي الله عنها وأرضاها، فهي تعيش في وجدان والدها العظيم أشرف الخلق سيدنا محمد ﷺ كما يظهر لنا جليًا في طوايا هذا الحديث الشريف فهي المثل الأعلى لنساء العالمين في الصبر على ما تخلل حياتها من البلاء.

انظر.. إنها كانت تصبر على شظف العيش، وتصبر على الجوع، والدليل على ذلك أن سيدنا رسول الله ﷺ قبل أن يتناول طعامه من اللحم الذي أعده سيدنا أبو أيوب الأنصاري أخذ قطعة من هذا اللحم وجعلها في رغيف، وكلّف سيدنا أبو أيوب الأنصاري أن يبلغها إلى سيدتنا فاطمة الزهراء؛ مما يدل على أن هذه السيدة الجليلة كانت تحيا في قلب والدها ﷺ يراها عليه الصلاة والسلام على أية حال كانت عليها في كل الأحوال.

هذه العظة والعبرة نتعاطاها على يدي هذه السيدة الجليل تعتبر صمام أمن وأمان في حياتنا الأسرية، أنعم بها وأكرم من سيدة للصابرين، والسلام عليها في العالمين.

الدرس التاسع:

نتلقاه من حضرة النبي صلوات الله وسلامه عليه، حيث إنه لما فرغ من الطعام أمر سيدنا أبا أيوب الأنصاري أن يأتيه من الغد، فنفذ أبو أيوب أمره عليه الصلاة والسلام، فأعطاه خادمته قائلاً: ياأبا أيوب استوص بها خيراً، فإنا لم نر إلا خيراً مادامت عندنا.

كانت هذه الخادمة هدية من سيدنا رسول الله ﷺ لسيدنا أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه مكافأة له على ما قدمه لسيدنا رسول الله ﷺ ولصاحبيه من كرم قَري الضيف؛ إذ إنه كان هذا شأنه دائمًا إذ كان لا يأتي أحد إليه معروفًا إلا أحبّ أن يجازيه». ولا غرو فهو عليه الصلاة والسلام الذي قال للمسلمين:

«من أتى إليكم معروفًا فكافئوه، فإن لم تستطيعوا أن تكافئوه فادعوا له حتى تعلموا أن قد كافأتموه».

[رواه أبو داود والنسائي، واللفظ له، وابن حبان في صحيحه، والحاكم، وقال: صحيح على شرطهما، ورواه الطبراني في الأوسط].

والآن نواصل الاستشهاد بما جاء في الحديث الشريف من دعم لمسيرة الصدقات:

* عن جابر رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «من موجبات الرحمة: إطعام المسلم المسكين» [رواه الحاكم وصححه، والبيهقي متصلاً ومرسلاً من طريقه أيضاً] إلا أنه قال:

«إن من موجبات المغفرة إطعام المسلم السغبان».

وقال عبد الوهاب: يعني الجائع، ورواه أبو الشيخ في كتاب الثواب، إلا أنه قال: «إن من موجبات الجنة: إطعام المسلم السَّغْبان».

* روي عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

«إن الله عز وجل ليدخل بلقمة الخبز، وقبضة التمر ومثله ما ينفع المسكين ثلاثة الجنة: الآمر به، والزوجة المصلحة له، والخادم الذي يناول المسكين». وقال رسول الله ﷺ: «الحمد لله الذي لم ينس خدمنا».

[رواه الطبراني في الأوسط، والحاكم].

* عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ : أي الإسلام خير؟ قال:

«تطعم الطعام، وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف».

[رواه البخاري ومسلم والنسائي].

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قلت يارسول الله: إني إذا رأيتك طابت نفسي، وقرت عيني، أنبئني عن كل شيء قال: **«كل شيء خلق من الماء»** فقلت: أخبرني بشيء إذا عملته دخلت الجنة؟ قال:

«أطعم الطعام، وأفش السلام، وصل الأرحام، وصل بالليل والناس نيام، تدخل الجنة بسلام».

[رواه أحمد، وابن حبان في صحيحه واللفظ له، والحاكم، وقال: صحيح الإسناد].

* عن عبد الله بن سلام رضي الله عنه قال: أول ما قدم رسول الله ﷺ إلى المدينة انجفل الناس إليه، فكنت فيمن جاءه، فلما تأملت وجهه واستثبته؛ علمت أن وجهه ليس بوجه كذاب، قال: وكان أول من سمعته من كلامه أن قال:

«أيها الناس!! أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام» [رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح، ورواه ابن ماجه والحاكم وقال: صحيح على شرط الشيخين].

انجفل الناس «بالجيم»: أي أسرعوا إليه . استثبته: أي تحققته وتبينته.

* عن أبي ذرّ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ :

«تعبّد عابد من بني إسرائيل فعبد الله في صومعته ستين عاماً، وأمطرت الأرض فاخضرت، فأشرف الراهبُ من صومعته، فقال: لو نزلت فذكر الله فازددت خيرًا، فنزل ومعه رغيف أو رغيفان، فبينما هو في الأرض لقيته امرأة، فلم يزل يكلمها وتكلمه حتى غشيها، ثم أغمي عليه، فنزل الغدير يستحم، فجاء سائل، فأومأ إليه أن يأخذ الرغيفين، ثم مات، فوزنت عبادة

ستين سنة بتلك الزنية، فرجحت الزنية بحسناته، ثم وضع الرغيف أو الرغيفان مع حسناته، فرجحت حسناته؛ فغفر له». [رواه ابن حبان في صحيحه]

* عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ:

«إن في الجنة غرفًا يُرى ظاهرها من باطنها، وباطنها من ظاهرها».

فقال أبو مالك الأشعري: لمن يارسول الله، قال:

«هي لمن أطاب الكلام، وأطعم الطعام، وبات قائمًا والناس نيام».

[رواه الطبراني في الكبير بإسناد حسن، والحاكم، وقال: صحيح على شرطهما (البخاري ومسلم)، ورواه ابن حبان في صحيحه].

وبذلك يكون الإسلام قد ضمن للإنسان الحق في الحياة عن طريق ما ورد في مصدريه الأساسيين وهما الكتاب والسنة وما شرعه من حق الإنسان في الطعام، الإنسان مهما كان جنسه، ومهما كان لونه، ومهما كان دينه، ومهما كانت عقيدته، حتى لو كان كافرًا، فإن كفره لا يمنعه حقه في الحياة، وبالتالي فلا يمنعه حقه في الطعام يقدمه له الإنسان المسلم مذعنًا في ذلك لأحكام الإسلام، هذا بالنسبة للإنسان.

وقد شمل الإسلام الحيوان بنفس الرعاية، وأوجب للحيوان حقه في الطعام والماء حفظًا لحقه في الحياة.

وإليكم هذه الأنباء الباهرة المبهرة من القرآن والسنة المطهرة:

الناقة وقوم ثمود:

١- جاء في سورة الشعراء نبأ الناقة وقوم ثمود في الآيات من (١٤١-١٥٩) يقول الله عز وجل في هذه الآيات:

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ (١٤١) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلا تَتَّقُونَ (١٤٢) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٤٣) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٤٤) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٤٥) أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ (١٤٦) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٤٧)

وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ (١٤٨) وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ (١٤٩) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٥٠) وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ (١٥١) الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ (١٥٢) قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (١٥٣) مَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٥٤) قَالَ هَٰذِهِ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ (١٥٥) وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥٦) فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ (١٥٧) فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٥٨) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: ١٤١-١٥٩] .

يا الله!! حقًا إن الله حكيم خبير!! إن الله هو الحكم العدل، آمنت بالله.

إن هذا النبأ الساطع في هذه الآيات الكريمات يخبرنا أن الله سبحانه وتعالى شرع لهذا الحيوان الماثل في هذه الناقة حق الشرب باعتباره حقًا يساوي حق الحياة، في كلمات واضحة جلية تدل بنفسها على المقصود منها دون حاجة إلى تفسير يأتي من خارجها، أو إلى تأويل يجتهد به مفسر.

﴿هَٰذِهِ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾.

وحذر القوم من الاعتداء على حق هذا الحيوان في الحياة، وحدّد الجزاء الذي يترتب على هذا العدوان إن وقع، في هذه الكلمات:

﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

ولقد تلقى قوم ثمود هذا الإنذار بالاستحقاق المعهود من الطغاة والمتجبرين، فوقعوا في حمأة العناد وذبحوا الناقة حتى ينفردوا بالشرب كله فأخذهم العذاب.

جحدوا حق هذا الحيوان في الحياة، وحقه في الشرب، فداهمتهم العقوبة العظمى التي يستحقونها، وجاءت بها الآية رقم (١٧) من سورة فصلت، يقول الله سبحانه وتعالى فيها:

﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [فصلت: ١٧] .

٢- وجاء في سورة طه قوله تعالى في الآيتين (٥٣، ٥٤):

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ﴾ [طه: ٥٣، ٥٤] .

٣- وجاء في سورة النازعات في الآيات من (٣٠ إلى ٣٣) ما يؤكد المعاني السابقة، يقول الله سبحانه وتعالى فيها:

﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴿٣١﴾ وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ﴿٣٢﴾ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾ [النازعات: ٣٠-٣٣] .

٤- وفي نفس المعنى جاء في سورة عبس في الآيات من (٢٤ إلى٣٢):

﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾ [عبس: ٢٤-٣٢] .

عندما نقرأ هذه الآيات الكريمات نجد أن الله سبحانه وتعالى وهو الخلاق العليم، والبادئ الحكيم، والحي القيوم، والمحيي الكريم، والمشرع العظيم قد ساوى بين الإنسان والحيوان في حق الحياة، وفي حق الطعام، بل في حق التمتع بالطعام ﴿مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾.

ولعل حق الطعام وحق الحياة، وحق التمتع بالطعام منشأه من هذه الآيات البينات من سورة الأنعام، أو كما يقول علماء الأصول ورجال القانون: مصدر هذه الحقوق الثابتة للحيوان في هذه الآيات من سورة الأنعام من (الآية٣ إلى الآية ١١) يقول الله سبحانه وتعالى فيها:

﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ (٣) وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلاَّ كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ (٤) فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ (٥) أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ (٦) وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ (٧) وَقَالُوا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الأَمْرُ ثُمَّ لا يُنظَرُونَ (٨) وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ (٩) وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ (١٠) قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [الأنعام: ٣-١١] .

ويهمني تفسير هذه الآيات الكريمات حتى نستطيع أن نقرأ فيها على قدر طاقتنا، وبتوفيق الله سبحانه وتعالى لنا جميعًا ما تتضمنه من معارف ومن أحكام يريد الله سبحانه وتعالى أن تخالط قلوبنا، وتشكل وجداناتنا، لنعطي كل ذي حق حقه، فيما استخلفنا الله عليه، وأن يتسع علمنا، ويتسع معه إيماننا لنشمل كل الكائنات من حولنا بما يعرفنا الله به من حكمته، وبما يكلفنا الله به من عطاء لما حولنا من إنسان وحيوان ونبات وجماد، وكل هؤلاء مخلوقات لله، فلهم حقوق تساوي حقوقنا، وواجبنا أن نراعي هذه الحقوق عندما نتعامل معهم، بنفس العناية التي يسرنا أن نتلقاها، إذ إن الذي خلقنا وخلقهم هو واحد وهو وحده الخالق البارئ المصور، وعندما خلق سبحانه وتعالى خلق بالحق، فجعل الحق قيمة عليا من قيم الوجود، ومن ثم فهو يأمرنا أن نتلقى هذه النعم بتلقي العارفين للحق قدره وقوته. فنتعامل معهم بالحق نقيمه عدلاً ورحمة، ونعطيهم هذا الحق ونشملهم بهذه الرحمة بسهولة ويسر وطواعية معتقدين أن الله سبحانه وتعالى قد استخلفنا عليهم جميعًا من حيوان وطير ونبات وأرض

وجبال وصحراء وأرض جزر، الكل إخوة لنا في حيث وحدة الخالق ووحدة الخلق، واشتركتم معنا في الحياة التي أنعم الله علينا وعليهم بها خلقنا بقدرته وخلقهم بقدرته، وأحيانا بقدرته، وأحياهم بقدرته، وخلقنا بالحق تشريعًا، فكل منا له حقوق، ونشهد بذلك كله الآيات من سورة النمل التي تسطع بأرقام من (٥٩ إلى ٦٦) يقول الله سبحانه وتعالى فيها:

﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ (٥٩) أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ (٦٠) أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٦١) أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ (٦٢) أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٣) أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٦٤) قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (٦٥) بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾ [النمل: ٥٩-٦٦] .

إذن نحن ومعنا الدواب والأنعام من الحيوانات الأليفة وغير الأليفة كلنا مخلوقون لله، هذا الخلق من جانب الله، ثم بالحق، ونحن جميعًا متساوون في هذا الخلق وهذا الحق، فلنا حقوق ولهم حقوق، وكل هذه الحقوق شرعها الله سبحانه وتعالى، والله جعلنا خلفاء الأرض، فنحن مسئولون أن نعطيهم حقوقهم كما سخرهم الله لنأخذ حقوقنا منهم، وأول هذه الحقوق التي وجب علينا إعطاءهم إياها حق الحياة نسلم لهم بها، وحق الطعام الذي هو سبب من أسباب استمرارية هذا النوع من الحياة التي كفلها لهم الله، وإنكار حقهم هذا

جريمة يعاقب عليها الله، وفي مقابل تسليمنا لهم بهذا الحق في الحياة أباح الله لنا الانتفاع بهم سواء في طعامنا أو شرابنا أو في كسائنا بترخيص من الله وحده، وبحكم حكم به الله وحده يحكم ولا معقب لحكمه، ولنا أن نتخذ منهم مظهراً من مظاهر الجمال والبهجة والمتعة المعنوية باعتبار ذلك كله نعمة من نعم الله سبحانه وتعالى أنعم بها علينا.

والجميل اللافت للنظر بالبصر والبصيرة أن هذه الإتاحة وهذه الإباحة يزاولهما الإنسان مقيداً بأحكام وقواعد في شرع الله المشرع الحكيم يلزم بها الإنسان ويوقع جزاء جبراً على من يخالف هذه الأحكام وهذه القواعد الشرعية، وأما الذي يلتزم بها الله سبحانه وتعالى يجزيه الجزاء الحسن في الدنيا والآخرة، قال الله سبحانه وتعالى في الآية (٩٦) من سورة الأعراف:

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦] .

وقال تعالى في سورة الجن في الآيتين (١٦، ١٧):

﴿وَأَن لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا (١٦) لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾ [الجن: ١٦، ١٧] .

وبعد هذه السمة الروحية نعود إلى تفسير الآيات من (٣-١١) من سورة النحل؛ لأن العود أحمد. يقول أستاذنا وشيخنا وإمامنا المغفور له الشيخ محمد أبو زهرة في تفسيره زهرة التفاسير وهو يتحدث عن هذه الآيات:

«إن أسباب انحصار الألوهية في ذاته العلية هو أنه وحده خالق السموات والأرض، ومانح النعم، ولذا قال تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ٣] أنشأ الله السموات والأرض بالحق، أي بالأمر الثابت، والنظام المحكم، ربط بين أجزاء السماء بسر الوجود، فكل نجم في مداره، وبروجها ثابتة لا تتغير لا تتغير، وتسير إلى مستقرها، وتتحرك في

مدارها، وكل شيء يجري بحسبان في السماء، والأرض بطبقاتها، وما أورع باطنها من فلزات وأحجار، وعروق المعادن، والجبال الراسيات، والبحار التي تجري الفلك فيها ماخرات عبابها، والأنهار والأمطار تنبت الزرع، وتأتي الثمار. هذا ما يشير إليه، لذا كان سبحانه وتعالى قد خلقها بذلك الإحكام، وبذلك النظام الثابت الذي لا يتخلف، وأنه سبحانه وتعالى هو الذي يمسك السموات والأرض، فهو سبحانه وتعالى المتعالي عن الشركاء، ولذلك قال الله تعالى: ﴿تَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ تسامى في ذاته عن أن يكون له شريك؛ لأنه ليس كمثله شيء قط، فهو المتفرد بالخلق والتكوين والإنشاء، وقوله سبحانه: ﴿تَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ كانت هذه الجملة مفصولة عما قبلها لتمام الاتصال، فإن تمام الاتصال يوجب فصل الجملتين، كما يوجبه كمال الانفصال، إذ الجملة الأولى سبب للثانية، فإن الخلق للسموات والأرض سبب لكمال العلو عن المثل والشريك.

هذا هو الخلق العام، والإنسان نفسه فيه إثبات قدرة الله بديع السموات والأرض، ومبدع الإنسان، ولذا قال تعالى: ﴿خَلَقَ الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ [النحل: ٤] وهو الماء الذي يخرج من بين الصلب الذي قالت آية أخرى ﴿مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾ [السجدة: ٨]، وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ يشير إلى الأدوار التي مرّ بها من طين، فنطفة، فعلقة، فمضغة، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٢-١٤]، هذه أدوار الإنسان، وهو جنين لم يخرج إلى ظاهر الوجود، وإذا خرج إلى ظاهر الوجود كان معه السمع والأبصار والأفئدة حتى تكون فيه كل قوى الإنسان، وعينين وأذنين.

هذه الأدوار كلها يشير إليها قوله تعالى: ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾: الخصيم الناطق المجادل الذي يُحسن إدارة القول وتحويره وتحويله كعمرو بن العاص الذي كان معروفًا بالحيلة في القول، حتى إن عمر الفاروق ﷺ رأى رجلاً لا يكاد يبين، فقال سبحانه الله، خالق لسان هذا هو خالق لسان عمرو بن العاص . و(الفاء) و(إذا) يدلان على المفاجأة، والمفاجأة مع هذه الأدوار المتدرجة بأمر الله وتقديره للدلالة على التفاوت البين بين ماء مهين، وخصيم مبين، سبحان من كوّن وأنشأ وهدى وعلّم.

بعد هذا أخذ سبحانه يبين النعم التي أنعمها على الإنسان، فقال: ﴿وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [النحل: ٥] . الأنعام: جمع نعم، وهي الإبل والبقر وما يشبهها من غزال أو نحوه، وقد ذكر سبحانه وتعالى في هذه الآية نعمًا على الإنسان فقال تعالى: ﴿لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾، النعمة الأولى منها (الدفء)، وهي دفع البرد، وذلك بإلباس وبرها وصوفها، ومن النفع اتخاذها أثاثًا وبيوتًا من الخيام، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ [النحل: ٨٠] ، والمنافع كما قال ابن عباس: النسل والركوب واتخاذها في الحرب لحمل المجاهدين، والثالث منها تأكلون، أي من لحومها وألبانها.

وذكر سبحانه وتعالى نعمًا للإنسان أخرى فيها، وهي قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ [النحل: ٦] ، ترى الراعي للإبل، أو القطيع ساقها إلى الرواح قد ذهب عنها الجوع، وامتلأت شبعًا من الكلأ والنبات، ويخرج بالنعم سارحًا إلى حيث المرعى والمسقى وحيث يرعاها ويشرف عليها في حركاتها وملاعبها ذلك هو معنى (تريحون) و(تسرحون) .

و(الجمال) هو الصورة التي تكون متناسقة وتؤثر في النفس، وهو يكون في الخلق والتكوين، كما ترى في جمال الأشخاص والصور والمناظر وتنفعل

النفس به في إحساس بالسرور والارتياح، ويكون في جمال الطبائع السليمة الطيبة، ويكون في المعاني والصور النفسية.

وإن في منظر قطعان الإبل والغنم، والبقر وهي سارحة متجهة إلى مراعيها ما يشرح النفس؛ لأن منظر الحياة في الأحياء يفرح النفس، ويلقي فيها بهجة، ومنظرها وهي عائدة ريانة بالشبع والسقي يعطي ارتياحًا أشد.

وقد ذكر رواحها قبل سراحها مع أن الرواح خاتمة اليوم، والسراح ابتداؤه لأن الإحساس بالجمال في الرواح أشد وجمالها أوقع في نفس صاحبها؛ لأنه يكون بعد تعب رعيها والإشراف عليها، ولأنه يكون بعد انتصارها على مطامعها وإشباع حاجتها.

وقد قال الزمخشري: مَنَّ الله بالتجمل بها، كما مَنَّ بالانتفاع بها؛ لأن من أغراض أصحاب المواشي، بل هو من معاظمها؛ لأن الرعيان إذا روّحوها بالعشي وسرحوها بالغداة، فزينت بتسريحها الأفنية، وتجاوب فيها الثغاء والرغاء، أنس أهلها، وفرح أربابها، وأجملها في عيوْن الناظرين إليها، وأكسبتهم الجاه والحرمة ونحوه.

وقد يسأل سائل: لماذا ذكر جمال النعم في غدوّها ورواحها وجمال الدنيا كثير؟ والجواب عن ذلك أن الله تعالى ذكر زينة الأرض بنباتها، وزخرفها، وذكر أنها زينت بذلك للناظرين، وإن ذكر جمال النعم في تلك الأوقات ترغيبًا في تربيتها، والعناية بها؛ لأن فيها نفعًا وغذاء.

وذكر الله تعالي مع ما ذكر من منافع للنعم حمل الأثقال فقال تعالت كلماته: ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ٧] . الأثقال: جمع ثقل، وهو ما يثقل حمله ويشق بكسر الشين وتفتح، وهي قراءة بمعنى المشقة، وإن البلاد العربية كان الحمل فيها بالجمال حتى قيل: إن الجمال هي سفن الصحراء، أي أنها تنقل الأمتعة والأثقال في الصحراء، كما تنقل السفينة الأثقال على سطح الماء.

فالضمير وإن كان يعود إلى الأنعام كلها، إلا أن حمل الأثقال عند القرب للجمال فقط، وفي الحق إن حمل الأثقال ظاهره حملها على الظهر، ولكنه يشمل بالتضمن جرها على العربات، وإن من البقر ما تجر العربات المحملة، كما يرى في مصر، وكما يرى في غيرها من البلاد، وقد رأينا في باكستان الإبل تجر العربات، وجملة معنى النص، وتحمل أثقالكم أو تجر ما يحملها إلى بلد نائية عن مقركم لم تكونوا بالغي هذا البلد لتأتيه وبعد المسافة إلا بمشقة شديدة.

وإن ذلك من رحمة الله تعالى بعباده ورأفته بهم، ولذلك قال تعالى في ختام الآية الكريمة ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ أي أنه سبحانه يرأف بكم خاصة أموركم، ويرحمكم في عامة أحوالكم، وفي وجودكم، وهنا بعض إشارات نذكرها:

أولها: أن الله تعالى عبّر بـ (ربكم) للإشارة إلى أن ذلك التمكين من مقتضيات الربوبية والقيام على شئونكم وهو سبحانه وتعالى الحي القيوم الذي يحيط بكل شيء علمًا .

الثانية: أنه قال: (لرءوف رحيم) والفرق بين الرأفة والرحمة فيما نحسب أن الرأفة فيما يكون في الإنسان في خاصة أمره، من حيث الرفق والتسهيل والتيسير، والرحمة ما يكون بالإنسانية في عامة أمورها، وقد تكون الشدة في بعض الأحوال من مقتضيات الرحمة؛ لأن رحمة الكافة قد تقتضي شدة على الظالمين.

الثالثة: أن الله تعالى أكد وصفه بالرأفة والرحمة بـ (إنّ)، وصيغ المبالغة وبالجملة الاسمية وباللام، ولقد قال تعالى في نعمة النعم: ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٨] .

بعد أن ذكر سبحانه نعمته في الأنعام، وما تتخذ منها من منافع، وما يكون فيها ذكر نعمة في غيرها مما لا يشمله اسمها، وكان العرب يجدون فيها متاعًا،

وهي الخيل والبغال والحمير، فإن فيها نعمة التمكين من ركوبها أو نعمة أنها تتخذ زينة لهم في غدوّهم ورواحهم، وقد قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ﴾ [آل عمران: ١٤].

فالخيل المسومة من زينة الحياة، فالخيل ومثلها البغال والحمير تتخذ زينة، وقد قال العلماء في الخيل ومثلها البغال، وكلمة الخيل قد يدخل في عمومها البغال، ولذا يكون سهمها في الغزو واحداً، عند كثير من الفقهاء وعلى رأسهم أبو يوسف صاحب أبي حنيفة ﷺ إن الخيل تتخذ لأغراض ثلاثة:

الغرض الأول: القنية: للإنتاج وهذه حسنة في ذاتها؛ لأن الإنتاج في الحيوان كالإنتاج في النبات مستحسن بل مطلوب.

الغرض الثاني: الجهاد، فإن في نواصيها الخير وذلك مطلوب.

الغرض الثالث: للخيلاء والتفاخر، والخيلاء منهي عنه، والزينة هي ما يكون في الخيل من راحة للنفس، وفرق بين اتخاذها زينة والخيلاء بها، فإن الخيلاء تفسد القلب، أما التزين، أو طلب ما يكون فيه زينة فإنه لا شيء يمس القلب ليفسده، ولقد قال تعالى بعد ذلك: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾، أي يخلق ما نعلم وما لا نعلم، وما كان يعلمه العرب، وما لا يعلمونه، ولو أن المتأمل المستبصر تعرف إعجاز القرآن في أخباره بما كان مغيبًا في زمان نزوله لوجده في مثل هذه الآية، فإن مما خلقه الله تعالى مما كان العرب لا يعلمونه، ولم يكن قطّ في عصر نزول القرآن السيارات التي تنهب الأرض نهبًا، والطائرات التي تقطع أجواء الفضاء قطعًا، ومما يجري الآن في عصر الفضاء، فإن ذلك كله خلقه الله تعالى، ومكن الإنسان في عصره ما لم يكن ليعلمه، وسنرى مما يخلقه الله، ويعلمه من بعدنا ولا نعلمه نحن» انتهى ما سعدت وتشرفت بنقله من كتاب زهرة التفاسير للإمام الفاضل أستاذنا الجليل الشيخ محمد أبو زهرة رحمه الله رحمة واسعة.

اللهم اجز عبدك محمد أبو زهرة عني وعن الإسلام والمسلمين خير الجزاء وأوفاه.

والسبب في حرصي على نقل هذا القدر من هذا الكتاب بالرغم من أنه يشغل الصفحات من (٤١٢٨ إلى ٤١٣٦) من الجزء (٨) من هذا التفسير يكمن فيما يأتي:

١- حرصي الشديد على الاستزادة من العلم الذي احتواه، وحرصي على أن ينال القراء من هذا العلم مثل ما نلته، لاسيما وأنه صدر من هذا العالم الجليل بلغة العصر، فتمت استفادتي منه، وإن شاء الله تعالى يحصل من يسعد بقراءته من القراء، وفي هذا إن شاء الله كمال الثواب الذي يحصل عليه هذا العالم الجليل على هذا العلم النافع الذي تركه لنا علمًا ينتفع به.

٢- إنني والقراء في حاجة إلى تفسير هذه الآيات، ولا أزعم لنفسي حقًا في أن أفسِّرها، تقصر عن ذلك إمكانياتي، ويقف ما بيني وبين ذلك تقصيري وجهلي، فعمدت إلى أستاذنا أنهل من علمه، وأستمد من حكمته، وكل ذلك عطاء الله له، فاغترفت لنفسي وللقراء دفقة من هذا العلم أستعين بها على قراءة هذه الآيات، وأستضيء بها لنفسي وللقراء حتى أكون قد أديت واجبي نحوهم والله من وراء القصد.

٣- حرصي على أن أوضح للقارئ ما ألهمني الله سبحانه وتعالى إليه، ووقره في قلبي من أن الله سبحانه وتعالى أراد أن يبين للناس الأساس الذي قام عليه فرض الزكاة والصدقات في الثروات بأنواعها المنقولة والثابتة، وسواء كانت هذه الثروات حيوانية أو نباتية حيث أراد أن يظهر للفكر الإنساني أن جميع هذه الثروات خلق من خلق الله أنعم الله بها على من شاء من عباده ومتعهم بما في الوقت الذي شاءت إرادته وأرادت حكمته أن يوجد من هو محروم منها ولكنه شرع لهؤلاء المحرومين حقوقًا يجب علي الحائزين لها التسليم بها لهم وإعطائهم إياها بحكم الله سبحانه وتعالى.

إن الله سبحانه عندما عدَّد هذه النعم وهذه الثروات أراد أن يعرف الأغنياء حقائق ثلاثًا:

الحقيقة الأولى: أن هذه الثروات بأنواعها التي بين أيديهم من خلق الله سبحانه وليس من خلقهم.

الحقيقة الثانية: أن هذه الثروات أنعم بها عليهم والفضل فيها يعود إليه وحده .

الحقيقة الثالثة: أن الله قد جعل الأغنياء مستخلفين عليها كأمانات يسألهم عنها، ويحاسبهم عليها، فهم مسئولون عن إعطاء الفقراء والمساكين والسائلين حقوقهم فيها. ولسوف يسألون.

ثم إن الله سبحانه وتعالى أراد أن يعرفهم أن الأنعام يقاسمون البشر في حقوقهم التي تحفظ عليهم حياتهم من حيث الطعام والشراب.

بقي أن نشير إلى عنصر من عناصر الثروة الحيوانية، ألا وهو عنصر الأسماك. وإن كان رجال الاقتصاد والتجارة يطلقون عليه اصطلاحًا خاصًا به فيقولون: إنه الثروة السمكية.

الثروة السمكية: وهي نوعان:

النوع الأول: الفضل فيه لله وحده ولا فضل للإنسان فيه، فالله سبحانه وتعالى هو الذي خلقه وهو وحده سبحانه وتعالى يتولى إطعامه وسقيه، وهذا وجوده في البحار المحيطة والأنهار العظيمة ولا جهد للإنسان في شأنه:

يقول الله في حقه سبحانه وتعالى في الآية رقم (١٤) من سورة النحل:
﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ١٤] .

النوع الثاني: سمك المزارع السمكية:

في العصر الحديث لجأ بعض الناس إلى إنشاء أحواض يستقبلون فيها الماء ويلقون فيها ما يطلقون عليها «الزريعة» السمكية أي السمك الصغير،

وقد يلقون في هذه الأحواض نوعًا من الغذاء الذي تحتاجه هذه الزريعة لتجعيل النمو فيها، وبمرور الوقت يحصلون على عدد من الأسماك يتداولونه في التجارة بالأسواق المخصصة لذلك. وفي هذه المزارع يظهر فيها جهد البشر من تقديم الغذاء وتوفير الماء.. على كل حال هنا ظهور ولو (شاحب) للنشاط الإنساني في هذا النوع من المنتج من السمك، وبالنسبة لهذا النوع من الأسماك يشارك السمك الإنسان في حق الطعام، وحق الحياة. تظهر قدرة الله سبحانه وتعالى في تجلٍّ واضح أوضح من الشمس بالنسبة لنوع السمك في البحار المحيطة والأنهار العظيمة بحيث يختفي دور الإنسان اختفاءً مطلقًا إذ إنه لم يخلق هذا النوع من السمك ولا يتولى تغذيته، والنوع الثاني يظهر دور الإنسان في حيازته داخل المزرعة وإمداده ببعض الغذاء، وأما ما أشارت إليه الآية الشريفة في قوله تعالى: ﴿وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ فهذه الحلية هي ما يسمونه بالأحجار الكريمة من لآلئ، ومن زمرد وغيرهما مما يتحلى به النساء وبعض المرفهين من الرجال.

يقول أستاذنا الإمام أبو زهرة في تفسيره «زهرة التفاسير» المرجع السابق (ص٤١٤٤) من الجزء (٨) :

﴿وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾: وهي ما يسمونه بالأحجار الكريمة من لآلئ وزمرد وغيرهما مما يتحلى به النساء، وبعض المرفهين من الرجال، وإن يتشبهوا بالنساء، وتوهم بعض المفسرين أن التحلي بالجواهر حرام، وقاسوه على التحلي بالذهب، ولكن الثابت في الآيات أن التحريم مقصور على الذهب، على أنه روي أن بعض الصحابة قال: إنه لا تحريم، ولكن قالوا: إن ذلك من شواذ الأقوال. ولقد ذكر الشوكاني في (نيل الأوطار): إن هناك عشرين من الصحابة لم يحرموا الذهب علي الرجال، ولكن لم يذكر من هم، ولم يذكر من أسند هذا القول إلى النبي ﷺ ، ومهما يكن فإن الجواهر واللآلئ والزمرد والياقوت وغيرها من الأحجار الكريمة كالماس والكهرمان

ونحوها لم يثبت تحريمها، إلا أن يتخذها عقدًا كما يتخذها النساء، فإن ذلك يكره للتشبه بالنساء» انتهى.

حق الحيوان في الطعام والشراب في السنة المطهرة:

نقرأ في أحاديث سيدنا رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم نجد أن كثيراً منها يحتفظ للحيوان بحق الحياة، وبالحق في الطعام والشراب باعتبار ذلك يتفق تمامًا مع الحق في الحياة. ومن الاطلاع على هذه الأحاديث الشريفة المثبتة في مدونات السنة المطهرة نجد أنها تطبيق لما جاء في القرآن الكريم. ونجد أن أفعال سيدنا رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تنفيذ للقواعد والأحكام التي شرعها الله سبحانه وتعالى في الذكر الحكيم.

هيّا معًا نقرأ بعض هذه الأحاديث الشريفة ونستلهم هذه الأفعال السامية الرفيعة، لنتعلم ونعلم ونفرح بهذا الميراث العظيم:

١- عن سيدنا عبد الله بن سيدنا عمر رضي الله عنهما أن رجلاً جاء إلى سيدنا رسول الله ﷺ فقال: «إني أنزع في حوضي حتى إلا ملأته لإبلي، ورد على البعير للغيري فسقيته، فهل في ذلك من أجر؟» فقال رسول الله ﷺ :

«إن في كل ذات كبد أجرًا» [رواه أحمد ورواته ثقات].

٢- عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

«ما من مسلم يغرس غرسًا، أو يزرع زرعًا، فيأكل منه طير أو إنسان إلا كان له به صدقة» [رواه البخاري ومسلم والترمذي].

٣- عن محمود بن الربيع أن سراقة بن جعشم قال: يارسول الله الضالة ترد على حوضي، فهل فيها من أجر إن سقيتها؟ قال ﷺ :

«اسقها، فإن في كل ذات كبد حرّاء أجرًا» [رواه ابن حبان في صحيحه، ورواه ابن ماجة والبيهقي كلاهما عن عبدالرحمن بن مالك بن جعشم عن أبيه، عن عمه سراقة بن جعشم رضي الله عنه].

٤- عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

«**بينما رجل يمشي بطريق اشتد عليه الحر فوجد بئرًا، فنزل فشرب، ثم خرج فإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش، فقال الرجل: لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان مني، فنزل البئر فملأ خُفه ماء، ثم أمسكه بفيه حتى رقى فسقى الكلب فشكر الله له، فغفر له**».

قالوا: يا رسول الله!! إن لنا في البهائم أجرًا؟ فقال صلى الله عليه وسلم:

«**في كل ذات كبد رطبة أجر**» [رواه مالك والبخاري ومسلم، وأبوداود، وابن حبان في صحيحه، إلا أنه قال: فشكر الله له فأدخله الجنة»].

٥- كل هذه الأحاديث تذكر ثواب الذي يؤمن بحق الحيوان في الحياة، وبالتالي بحقه في الطعام والسقي، فما جزاء من جحد هذين الحقين للحيوان، وأنكرهما وامتنع عن إطعامه وسقائه.

اقرأ معي أيها القارئ الكريم واقرئي معي أيتها القارئة الكريمة هذا الحديث الشريف الذي يكشف عن وجه الإسلام المضيء الجميل، ويقدم شرابه الصافي الرائق الحلو المذاق.

هيا معًا نقرأ هذا النبأ الباهر:

«**عذبت امرأة في هرة حبستها، فلا هي أطعمتها ولا هي تركتها تأكل من حشاش الأرض**» ورواية هذا الحديث في صحيح البخاري كالآتي:

«**دخلت امرأة النار في هرة ربطتها، فلم تطعمها، ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض**» [صحيح البخاري].

٦- كان الأنصار رضي الله عنهم يحصنون البساتين والحدائق التي يملكونها بالأسوار المنيعة حتى يضمنوا منع الإنسان والحيوان من الانتفاع بثمارها، وقد لاحظ سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك عليهم فحذرهم منه ورغبهم في هدم الأسوار لكي يتمكن عابر السبيل والمحتاج من الحيوان من تناول شيء من هذه الثمار ليستفيد كل منهما، منها في هذا الحديث الشريف عن جابر رضي الله عنه قال:

«أتى رسول الله ﷺ بني عمرو بن عوف يوم الأربعاء فذكر الحديث إلى أن قال: يامعشر الأنصار قالوا: لبيك يارسول الله فقال:

«كنتم في الجاهلية - إذ لا تعبدون الله - تحملون الكلّ (الضعيف) وتفعلون في أموالكم المعروف، وتفعلون إلى ابن السبيل، حتى إذا من الله عليكم بالإسلام وبنبيه إذا أنتم تحصنون أموالكم، فيما يأكل ابن آدم أجر، وفيما يأكل السبع والطير أجر». قال: فرجع القوم فما منهم أحد إلا هدم من حديقته (السور) ثلاثين بابًا». [رواه الحاكم، وقال: صحيح الإسناد]

ها هو رسول الله ﷺ يشير إلى حق الحيوان (حتى السبع منه) والطير في الطعام، ووجوب مراعاة ذلك عند إنشاء الحدائق والبساتين مما يفيد أن هذه الحيوانات شركاء الإنسان في حق الحياة وحق الطعام في مساواة يقررها الإسلام الحنيف قرآنًا وسنة، الحمد لله أن جعلنا مسلمين.

٧- أراد أشرف الخلق سيدنا محمد ﷺ نبيّ الرحمة أن يعمق حسن العلاقة بين الحيوان والإنسان، وكان دائمًا يستثمر وقائع الحوارات التي تقع بينه وبين الصحابة ﷺ، ويستثمر لجوءهم إليه عليه الصلاة والسلام ليحل لهم مشكلة ويضع اللاجئين عليه على طريق الهداية وعلى الصراط المستقيم، ومن هذه المناسبات ما يحكيه هذا الحديث الشريف عن أنس بن مالك ﷺ قال:

«كان أهل بيت من الأنصار لهم جمل يسنون عليه (أي يستسقون عليه)، وإنه استصعب عليهم فمنعهم ضره، وإن الأنصار جاءوا إلى رسول الله ﷺ فقالوا: إنه كان لنا جمل نسني عليه (نستسقي عليه)، وإنه استصعب علينا، ومنعنا ظهره، وقد عطش الزرع؟ فقال ﷺ لأصحابه: «قوموا» فقاموا فدخل الحائط (البستان) والجمل في ناحيته فمشى النبي ﷺ نحوه فقالت الأنصار: يارسول الله!! قد صار مثل الكلب الكَلِب نخاف عليك صولته؟ قال:

«ليس عليّ منه بأس» فلما نظر الجمل إلى رسول الله ﷺ أقبل نحوه حتى خرّ ساجدًا بين يديه، فأخذ رسول الله ﷺ بناصيته أذل ما كانت قطّ

حتى أدخله في العمل، فقال له أصحابه: يا رسول الله! هذه بهيمة لا تعقل تسجد لك، ونحن نعقل فنحن أحق أن نسجد لك، قال: «لا يصلح للبشر أن يسجد لبشر، ولو صلح لبشر أن يسجد للبشر لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها لعظم حقه عليها، لو كان من قدمه إلى مفرق رأسه قرحة تنبجس بالقيح والصديد ثم استقبلته فلحسته ما أدت حقه». [رواه أحمد والنسائي بإسناد جيد، رواته ثقات مشهورون، والبزار بنحوه ورواته مختصراً، وابن حبان في صحيحه، من حديث أبي هريرة بنحوه باختصار. الترغيب والترهيب الجزء ٣، ص٥٤،٥٥].

٨- وفي زرع حق الحياة للحيوان وحفظه ضرب سيدنا رسول الله ﷺ مثلاً قصد به تعميق الشعور في أعماق المسلم في نبأ تحدثت عنه صحاح كتب السنة ووثائق المرويات من الأحاديث الشريفة، وضمن هذه الأحاديث ما يحكي عن معجزة أدهشت الناس، واستولت على مشاعرهم وأوقفت حركات أفكارهم، وجذبت انتباههم فلم يفكروا إلا فيها وبها، ولم ينظروا إلا إليها، ولم يسمعوا إلا ما جرى أثناء وقوعها من حديث، ولم ينفعلوا إلا بما ظهر من أفعال وأقوال فيها، فنفشت حقائقها على قلوبهم، واستقرت العبر التي ولدتها في وجدانهم، محوطة بإطار العلم والمعرفة والحكمة، والإيمان والتسليم لله، والقناعة بالحق الذي نطقت به في الحوار الذي جرى فيها، والذي انتهى إلى حيث استطاع الحيوان الأليف وهو الجمل أن يتمسك بحقه في الحياة، معتمداً في ذلك على حجج وأسانيد استمع سيدنا رسول الله ﷺ لها وأنصت لها، وسلم له بها فحكم بها له، فإليكم هذا النبأ لعلنا نتعلم منه، ولعلنا ننتفع بهذا العلم.

وقد جاء ذكر حديث الجمل في كتاب الشفا بتعري حقوق سيدنا المصطفى لأبي الفضل القاضي عياض بن موسى بن عياض اليحصبي، القاضي عياض الجزء الأول ص٢٦٥ كالآتي:

«عن أبي هريرة ﷺ دخل النبي ﷺ حائطًا فجاء بعير فسجد له- وذكر مثله- ومثله في الجمل عن ثعلبة بن مالك، وجابر بن عبدالله ويعلى بن

مرة، وعبد الله بن جعفر قال: وكان لا يدخل أحد الحائط إلا شد عليه الجمل، فلما دخل النبي ﷺ دعاه فوضع مشفره على الأرض وبرك بين يديه فخطمه، وقال: «ما بين السماء والأرض شيء لا يعلم أني رسول الله إلا عاصي الجن والإنس». ومثله عن عبد الله بن أبي أوفى.

وفي خبر آخر في حديث الجمل أن النبي ﷺ سألهم عن شأنه، فأخبروه أنهم أرادوا ذبحه، وفي رواية أنه أن النبي ﷺ قال لهم: «إنه شكى كثرة العمل وقلة العلف».

وفي رواية: «إنه شكى إليّ أنكم أردتم ذبحه بعد أن استعملتموه في شاق العمل من صغره» فقالوا: نعم . هذا ما جاء في كتاب الشفاء.

وقد تيقنت بنفسي هذا النبأ في مسند الإمام أحمد بن حنبل، وفي سير أعلام النبلاء للإمام شمس الدين الذهبي، الجزء الثالث، طبعة مؤسسة الرسالة، بند (٩٣) في سيرة سيدنا عبد الله بن جعفر.

أولاً: في مسند الإمام أحمد بن حنبل، جزء (٢)، طبعة دار الحديث، شرحه وصنف فهارسه أحمد محمد شاكر.

١- (١٧٤٥): «حدثنا يزيد، أنبأ مهدي بن ميمون، عن محمد بن أبي يعقوب عن الحسن بن سعد، عن عبد الله بن جعفر، وحدثنا بَهْز وعفان قالا:

حدثنا مهدي، حدثنا محمد بن أبي يعقوب عن الحسن بن سعد مولى الحسن بن علي عن عبد الله بن جعفر قال:

«أردفني رسول الله ﷺ ذات يوم خلفه، فأسر إليّ حديثًا لا أخبر به أحدًا أبدًا، وكان رسول الله ﷺ أحبّ ما استتر به في حاجته هدف، أو حائش نخل، فدخل يومًا حائطًا من حيطان الأنصار، فإذا جمل قد أتاه، فجرجر، وذرفت عيناه، قال بهز وعفّان، فلما رأى النبي ﷺ حَنَّ وذرفت عيناه، فمسح رسول الله ﷺ سراته وذفراه فسكن فقال: «من صاحب هذا

الجمل؟» فجاء فتى من الأنصار فقال: هو لي يارسول الله، فقال ﷺ :«أما تتقي الله في هذه البهيمة التي مَلَككها الله!! إنه شكا إليّ أنك تجيعه وتُرْئِبُه».

وفي تحقيق هـذا الحديث يوجد في جـ١ حاشـية ص٣٦٢ من الجزء (٢)، (للشيخ أحمد محمد شاكر) ما يأتي:

(١٧٤٥) : إسناده صحيح، مهدي بن ميمون الأزدي البصري، ثقة، محمد بن أبي يعقوب: هو محمد بن عبد الله بن أبي يعقوب التميمي الضبي البصري، ينسب إلى جده، وهو ثقة، والحديث روى مسلم بعضه (١: ١٠٥ و(٢) ٢٤٣، وكذلك ابن ماجه (١: ٧٣) ورواه أبو داود مطولاً (٢: ٣٢٨-٣٢٩) كلهم عن طريق مهدي بن ميمون. الهدف: بفتحتين. قال الخطابي في المعالم (٢: ٢٤٨) : كل ما كان له شخص مرتفع من بناء وغيره، وقد استهدف لك الشيء إذا قام وانتصب لك. حائش نخل: قال الخطابي: الحائش جماعة النخل الصغار. وفي تحقيقه في كتاب سير أعلام النبلاء الجزء (٢) في حاشيته (ص٤٥٧) ورد في بند (١) : (إسناده صحيح على شرط مسلم وتمامه:

(«فأتاه النبي ﷺ فمسح ذفراه فسكت فقال: من رب هذا الجمل؟ لمن هذا الجمل؟ فجاء فتى من الأنصار فقال: لي يارسول الله!! فقال: «أفلا تتقي الله في هذه البهيمة التي ملكك الله إياها؟ فإنه شكا لي أنك تجيعه وترئبه»).

[أخرجه أحمد جـ١ ، ص٢٠٤، ٢٠٥، وأبو داود ٢٥٤٩، وصححه الحاكم ٢ / ٩٩، ووافقه الذهبي وهو في تاريخ ابن عساكر ٩ / ٢٨] انتهى.

ولقد تعمدت ذكر هذا الحديث الشريف للدلالة على أن حق الطعام ثابت في الإسلام، ثابت للحيوان، كما هو ثابت للإنسان تمامًا بتمام باعتبار أن الطعام بالنسبة لهما سبب جوهري من أسباب الحياة... بل هو يعتبر السبب الرئيسي فيها بحيث لو غاب لفترة طويلة كانت أو قصيرة يموت الإنسان ويموت الحيوان بالمثل صبراً، أي جوعًا.

وتعمدت متابعة تحقيقه؛ لأنه ينطوي على معجزة حسية لسيدنا رسول الله ﷺ فأحببت أن أخاطب بعض المفكرين الذين ينكرون هذا النوع من معجزات سيدنا رسول الله ﷺ، مكتفين بمعجزة القرآن الكريم حتى لا ينصرف اهتمام الناس من العوام إلى هذه المعجزات الحسية فقط دون الاهتمام

بالقرآن الكريم.

وهو اتجاه سببه الخشية من قعود الناس وتخلفهم عن مسيرة الإسلام التي يضيء لها القرآن الكريم طريق التفوق والازدهار وعلى سند من القول أيضًا أن المعجزة الحسية تؤثر فقط على الذين شهدوها في زمانها ومكانها، أما القرآن الكريم فهو دائم التأثير على الإنسان مادامت الدنيا وأبد الدهر، ولكني أرد على ذلك بأن المعجزة الحسية لها تأثير على كل من يسمع عنها مادامت روايتها موثقة وشهود وقوعها عدول يطمئن قارئي خبرها، وسامعه إلى عدالة هؤلاء الشهود.

كذلك فإن الاطلاع على هذا الحديث الشريف يوضح حقيقة أن سيدنا رسول الله ﷺ أراد أن يقدم للناس وسيلة إيضاح ترسخ في أعماقهم حق الحياة وحق الطعام للحيوانات نفس الرسوخ الذي هو ثابت للإنسان بهذه الطريقة التي استثارت انتباه المحيطين به حتى اقتنعوا .

وسيقول بعض الناس: كيف عرف حضرة النبي ﷺ لغة هذا الجمل؟ والرد على ذلك بسؤال: كيف عرف نبي الله سليمان عليه السلام لغة الهدهد؟ بل عرف لغة النملة؟

إن الله سبحانه وتعالى يقدر على أن ينطق كل شيء، وقادر على أن يهب رسله ملكه معرفة لغة الطير ولغة الحيوان، سبحانه الله هو على كل شيء قدير، والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله ﷺ علمه الله ما لم يكن يعلم، وكان فضل الله عليه عظيمًا .

لقد أردت من هذا السياق أن أقنع نفسي، وأحاول أن أقنع القراء بحقيقة هي عدالة الإسلام في تأسيسه فرض الصدقات، فجعل فيه حق الإنسان لا يعلو على حق الحيوان فلا ينفيه في بعض الحالات المخصوصة، فكما أعطى الإنسان حق الحياة فإنه في الوقت نفسه قد أعطى هذا الحق نفسه للحيوان،

وكما أنه فرع الحق في الطعام والشراب على حق الحياة بالنسبة للإنسان، فإنه وبنفس القدر فرع على حق الحياة حق الطعام والسقي بالنسبة للحيوان.

﴿مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾ [النازعات: ٣٣، وعبس: ٣٢].

عدل الله المطلق في تنظيم الحقوق ينسب إلى الله وحده ولا يستطيعه أي مخلوق، ولا يقدر عليه أي نظام وضعي، فسبحان الله أحكم الحاكمين، سبحانه الله رب السموات والأرض ورب العرش العظيم، عجبًا للإنسان كيف يهرب من هذا العدل... وهو ضمان سعادته في الداريـن؟ تبًا للظالمين الذين يحرمون الفقراء من حقوقهم التي شرعها الله لهم؟ والويل ثم الويل لهؤلاء الأفاكين من أدعياء الديمقراطية في الغرب من قادة وحكام وكلهم ظالمون.. ليس عندهم لشعوب الشرق إلا أسلحة الدمار الشامل يسلطونها عليهم نيرانًا تلتهم أجسادهم، وتحرق أبشارهم، وتقتل أطفالهم، وتمزق أوصال نسائهم، ويرتكبون كل هذه الجرائم بحجة المحافظة على السلام.. وويل لهم مما كتبت أيديهم، وويل لهم مما يكسبون.

إن ما يفعلون في الباكستان وفي أفغانستان، وفي العراق، وفي فلسطين، والسودان، وفي الصومال، وفي بلاد كثيرة لا يخرج عن كونه جرائم حرب من شأنها حرمان هذه الشعوب من حقوقهم في الحياة، وحقوقهم في الطعام والشراب في الوقت الذي يتشدقون فيه بأنهم أنصار السلام وحراس حقوق الإنسان، ياله من نفاق ينذر بزوال ملكهم، ونهاية ظلمهم.

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾ [إبراهيم: ٤٢، ٤٣].

❁❁❁

الفصل السادس
تطبيقات عملية لمبادئ الصدقة في الإسلام

إن الإسلام الحنيف هو شرع الله عز وجل، منظومة من القواعد والأحكام الشرعية تنظم سلوك الأفراد في مجتمعه، وتلزم بها هؤلاء الأفراد وتوقع جزاء جبر على من يخالف أحكامها، فبالإسلام وأحكامه يعيش المجتمع علي هذه الأرض التي حكم الله سبحانه وتعالى عليه أن يعيش عليها، ويعمّرها باسمه باعتباره خليفة له عليها، ويحاسبه الله سبحانه وتعالى على ما قدمت يداه.. في نهاية مسيرته إليه.

قال الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم في سورة الانشقاق في الآيات من (٦ إلى ١٥):

﴿يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلاقِيهِ ﴿٦﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾ إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾ بَلَىٰ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا﴾ [الانشقاق: ٦-١٥].

وعلى ذلك فإن المسلم يعيش في الدنيا بدينه، يسوس دنياه بهذا الدين، يعيش على الأرض، يزاول حياته على هدي من الدين قرآنًا وسنة. وهذا يدحض مقولة: إن الدين مجموعة من المشاعر بين العبد وربه.

هذا تعريف يعتوره القصور؛ إذ إن الدين الصحيح يشمل علاقة الإنسان بربه، وأيضًا يشمل العلاقة بينه وبين الناس والأشياء، أي أن الدين في حقيقته وجدان وسلوك.

وفي ضوء ذلك تعامل الصحابة الكرام مع هذا الدين الحنيف، فاعتبروا تعاليمه منهج حياة بتنظيم أمور الدنيا والدين معًا .

فتعاطوا مبادئ القرآن ومبادئ السنة (قولاً وفعلاً وتقريراً) وطبقوها في أعمال أضاءت التاريخ الإنساني.

وإني قد عزمت على ذكر وقائع من حياة بعض ا لصحابة لعجزي عن استعراض أعمالهم جميعًا في هذا المقام.. فهذا المقام يضيق عن ذلك فلا يسمح به.. وأترك للقراء تتبع سير هؤلاء الصحابة الأبرار جميعًا، فإن تتبع أبنائهم يصلح للسعداء من الناس الذين يقتفون آثارهم زادًا لهم، أي زاد ينفعهم في الدنيا وفي يوم المعاد.

ويتقدم الفريق الذي أتشرف بتقديمهم علم من أعظم أعلام التقى، الثاني بعد سيدنا رسول الله ﷺ ، صاحبه ثاني اثنين إذ هما في الغار، خليفته وحبيبه **سيدنا أبو بكر الصديق رضي الله عنه وأرضاه**. هيا بنا نتذكر بعض أنبائه في ميدان الخير.. أو قل ساحة الخير، لعلنا نقتدي به فننال رضا الله ورسوله ﷺ :

١ - في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ :

«من أصبح منكم صائماً؟» . قال أبو بكر رضي الله عنه : أنا.

قال رسول الله ﷺ :

«فمن تبع منكم اليوم جنازة؟» . قال أبو بكر رضي الله عنه : أنا.

قال رسول الله ﷺ :

«فمن أطعم منكم اليوم مسكينًا؟» . قال أبو بكر رضي الله عنه : أنا.

قال رسول الله ﷺ :

«فمن عاد (زار) منكم اليوم مريضاً؟» . قال أبو بكر: أنا.

فقال رسول الله ﷺ :

«ما اجتمعن في امرئ إلا دخل الجنة».

٢- عندما أساء إليه الصحابي مسطح رضي الله عنه في حديث الإفك وأساء للكريمة ابنة الكريم، وزوجة الأكرم أم المؤمنين سيدتنا عائشة رضوان الله عليها، ونفعنا بعلمها، وأراد إمامنا الصديق أبو بكر أن يقطع عنه المعونة التي كان يمنحه إياها طليعة كل شهر، علم الله سبحانه وتعالى ما أسرّه سيدنا الصديق من معاقبة مسطح جزاء ما اقترف من إثم بحرمانه من المعونة، فأنزل قرآنًا ينهاه عما أصر عليه، ويأمره بالاستمرار في هذا العطاء الجميل باعتباره صلة للرحم القائمة بينه وبين مسطح في هذه الآية الشريفة التي تسطع برقم (٢٢) في سورة النور، قال فيها الحق سبحانه وتعالى:

﴿وَلا يَأْتَلِ أُوْلُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُوْلِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٢٢].

جاء في كتاب (أبو بكر الصديق رضي الله عنه وحاجة الإنسانية إليه) بقلم عبدالبديع كفافي، (ص٢٣):

«هذه الآية من سورة النور وضعت حدًا لثورة الغضب التي اعترت سيدنا أبا بكر الصديق رضي الله عنه، والتي أصاب بها مسطحًا بن أثاثة بن عباد بن المطلب، والذي تربطه بسيدنا أبي بكر الصديق رضي الله عنه صلة الرحم، وكان قد اشترك في حديث الإفك في النّيْل من سيدتنا عائشة رضي الله عنها وردّد ما ردّدُوا من إفك وبُهتان، وزوّر عليها، حيث كان سيدنا أبو بكر رضي الله عنه ينفق عليه؛ لأنه كان فقيرًا، فعندما تبين له بجلاء ظلمه لابنته (زوجة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم) أقسم ألا ينفق عليه أبدًا بعد الذي قال عن عائشة رضي الله عنها.

فأنزل الله سبحانه وتعالى هذه الآية الشريفة على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما سمع سيدنا أبو بكر رضي الله عنه قول الله سبحانه وتعالى:

﴿أَلا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

بادر إلى الإجابة مسرعًا وقال: بلى، والله إني لأحب أن يغفر الله لي!!

فرجع إلى مسطح رضي الله عنه النفقة التي ينفقها عليه وقال:

«والله لا أنزعها منه أبدًا». [يراجع في ذلك تفسير ابن كثير رضي الله عنه].

وبموقف سيدنا أبي بكر الصديق رضي الله عنه من ابن خالته مسطح بن أثاثة بأن أعاد لمسطح راتبه الذي كان يمنحه إياه ليعينه على مواجهة الحياة، يكون بذلك الصديق رضي الله عنه قد ضرب المثل الأعلى بعد سيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم، فهو بهذا المقام - مقام العفو - يعتبر ثاني اثنين، ومقام العفو هذا يرتفع إليه صفوة من توفرت فيهم شروطه، قال الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩] انتهى.

٢- أمير المؤمنين سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

لم تعرف الإنسانية من أبنائها رجلاً تعامل مع الجوع بفهم وإدراك وحكمة تقربه إلى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم مثل الخليفة عمر بن الخطاب أمير المؤمنين رضي الله عنه سواء كان هذا التعامل مع الجوع على مستوى الأفراد أو على مستوى المجتمع، فهو في الحالتين الفارس المعلم، والأستاذ المعلم، والحكيم المتفرد، والقائد الملهم، رضي الله عنه وأرضاه وجزاه عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء وأوفاه.

على مستوى الأفراد: الليلة التي أضاءتها شمس عمر وأكسبتها الدفء والحنان:

هذه الليلة التي سطعت فيها شمس أمير المؤمنين عمر في كبد سمائها، فبددت فيها برد شتائها، وسرى دفئوها في عروق المقرورين، ووصلت ما بين المعوزين وبين مجتمع المؤمنين بوشائج الرحمة، وعُرى الحنان، فبدت هذه الليلة أميرة على ليالي عمره المبارك، يتلألأ تاج الرحمة على مفرقها، ويحيط عقد الحنان عنقها، ويتدلى على صدرها فرائد الدر، ويضيء جبينها أضواء الخشوع

والخضوع لرب العالمين، ويهيؤها كل ذلك لأن تشهد له يوم القيامة بين يدي أحكم الحاكمين بأنه خير تلميذ لأشرف الخلق سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم الذي أرسله الله سبحانه وتعالى رحمة للعالمين.

إليكم نبأ هذه الليلة المباركة من ليالي أمير المؤمنين رضي الله عنه وأرضاه:

ليلة جمع الشتاء فيها كل قواه التي تمنع الإنسان من أية حركة: الزمهرير، والريح، في الصحراء التي تقبع في باطنها الوحشة مكشرة عن أنيابها، ومبرزة لأظفارها، ومشرعة لبراثنها، ورابضة على فوهات الطريق تصد كل من تحدثه نفسه أن يذرع هذا الطريق جيئة أو ذهابًا .

في هذه الليلة حشدت المسئولية كل قواها في قلب أمير المؤمنين، فهبّ واقفًا ليقتحم هذه الموانع، ويتخطى هذه العقبات سيرًا على قدميه، مصطحبًا خادمه، ليتعرف على أحوال رعيته، وصمم على أن تكون مسيرته هذه في قلب الصحراء خارج المدينة، حيث البرد القارص، والعقبات الشداد، لا بأس فإن أمير المؤمنين عمر ﷺ تلميذ نجيب لأشرف الخلق سيدنا محمد ﷺ الذي أحسن ترتيبته، وأجاد تدريبه على اجتياز كل العقبات التي تحاول منعه من ممارسة مسئوليته، وهو يقصد وجه الله.

شق أمير المؤمنين لفائف الظلام الكثيفة في هذه الرحلة المباركة لعله يكتشف ما يخشاه من تقصير في أدائه وهو ما يؤرقه ويقلقه.

وعلى البُعد لاحت له حزمة من أضواء تصدر عن نار مشتعلة، حولها أطفال في أحضان امرأة تضع أمامها على هذه النار قدرًا، يعلم الله سبحانه وتعالى ما بداخل هذا القدر، إن كان ماء أو ماءً ينضج طعامًا!!

أسرع أمير المؤمنين ﷺ الخطى، ليقف على هذه الحالة ويحيط بها علمًا.

وأترك للأستاذ عباس محمود العقاد رحمه الله تعالى ليحدثنا عن هذا المشهد العظيم، ويقرؤنا ما وقع من حوار بين أبطال القصة، وذلك في كتابه (عبقرية

عمر) نقلاً عن الطبري في التاريخ (جزء٤، ص٢٠٥-٢٠٦)، وأدعو القراء أن يسمعوا هذا الحوار الخالد المعبأ بأرقى ما عرف العالم من المثل العليا، والمعاني السامية التي فاح عبيرها من بين جنبات أمير المؤمنين سيدنا عمر بن الخطاب ﷺ:

«عن زيد بن أسلم عن أبيه قال: خرجنا مع عمر بن الخطاب ﷺ إلى حرّة واقم، حتى إذا كنا بصرار (موضع في أقصى المدينة) فقال:

- يا أسلم إني أرى هاهنا ركبًا قد ضربهم الليل والبرد. انطلق بنا، فخرجنا نهرول حتى دنونا منهم، فإذا بامرأة معها صبيان، وقدر منصوبة على نار، وصبيانها يتضاغون، فقال عمر:

- السلام عليكم ياأصحاب الضوء، وكره أن يقول ياأصحاب النار.

- فقالت: وعليكم السلام. - فقال: أدنو.

- فقالت: أدن بخير أو دَعْ (تقصد أن يتقرب بشرط الخير أو ليتركهم).

فدنا منها، فقال: ما بالكم؟

- قالت: ضربنا الليل والبرد.

- قال: وما بال هؤلاء الصبية يتضاغون؟

- قالت: الجوع.

- قال: أي شيء في هذا القدر؟

- قالت: ماء أسكتهم به حتى يناموا، والله بيننا وبين عمر!!

- قال: إي رحمك الله!! وما يدري عمر بكم؟

- قالت: يتولى أمرنا ثم يغفل عنا؟

قال الراوي: فأقبل عليّ فقال: انطلق بنا.فخرجنا نهرول حتى أتينا دار الدقيق، فأخرج عدلاً من دقيق، وكبّة من شحم، فقال: احمله عليّ.

- فقلت: أنا أحمله عنك .

- فقال: أنت تحمل وزري يوم القيامة؟ لا أُمَّ لك.

فحملته عليه، فانطلق وانطلقت معه إليها نهرول فألقى ذلك عندها، فأخرج من الدقيق شيئًا فجعل يقول لها:

- ذري عليّ وأنا أحرك لك. (تذر الدقيق، وهو يحرك الماء حتى يطيب الطعام). وجعل ينفخ تحت القدر، ثم أنزلها فقال:

- ائتني شيئًا، فأتته بصحفة (وعاء) فأفرغها فيها، فجعل يقول لها:

- أطعميهم وأنا أسطح لهم (حتى يبرد الطعام ويطيقوه)، فلم يزل حتى شبعوا، وترك عندها فضل ذلك، وقام وقمت معه، فجعلت تقول:

- جزاك الله خيرًا! ! كنت بهذا الأمر أولى من أمير المؤمنين.

فيقول: قولي خيرًا إذا جئت أمير المؤمنين وجدتيني هناك إن شاء الله، ثم تنحى ناحية عنها، ثم استقبلها، فربض مربضًا (جلس)، فقلت:

- لك شأن غير هذا؟ فلا يكلمني حتى رأيت الصبية يصطرعون، ثم ناموا وهدأوا فقال:

- يا أسلم، إن الجوع أسهرهم وأبكاهم فأحببت ألاَّ أنصرف حتى رأيت ما رأيت» انتهى.

كنت أتمنى أن أترك هذه اللوحة الرائعة التي تتجمل بها جدران التاريخ، وتتزين بها قلوب العلماء، ويزيد بها إيمان الحكماء، وتأخذ روعتها بأبصار ملائكة السماء، وتتغنى بها الفضيلة على مر الدهور والأعوام، ويذعن لها التاريخ، فيخلّدها بحروف من نور، وسطور من عَسْجَد منثور، وكلمات من الجوهر المكنون، هي على حالتها هذه غذاء القلوب، ونُور الصدور، وروح الدهور، وريحان الأزل والأبد، حيث اكتملت فيها أوصاف الخلافة لله، وظهرت فيها للعيان صورة العبودية لبارئ الأرض والسموات وخالق الإنسان، كل ذلك على عبد من عباد الله أحسن التلمذة على أشرف الخلق سيدنا محمد رسول الله ﷺ، فنال من أستاذه أعلى العلوم وأسمى الحكمة، فرقى الدرجات العُلا، حتى صافح سدرة المنتهى، في كلمات قالها أشرف الخلق سيدنا محمد ﷺ: «جعل

الله الحق على لسان عمر وقلبه» كنت أتمنى أن أترك الحديث لهذه الصورة البديعة تكلم الناس عن مجد أمير المؤمنين فهي من الفصاحة بمكان.

ولكن.. ما حيلتي؟ وقلبي يقفز في صدري ليبلغ حنجرتي يريد أن يجيش بالمدح والثناء لله ربّ العالمين الذي منح سيدنا رسول الله ﷺ وأمته هذا الخليفة عمر بن الخطاب؟ إنّ كنز الخصال النبيلة التي ينطوي عليها كيان أمير المؤمنين عمر وراء هذا السلوك الفاضل، وكل ما توفر في شخصه من مكارم الأخلاق يجعلنا نتحير في تحديد الصفة التي صدر عنها هذا السلوك!!

فإذا قلنا: الرحمة هي المصدر كنا قد أصبنا الحقيقة!!

وإن قلنا: إنه الولاء للمسئولية يصادف قولنا الحق!! أسندناه.

وإذا قلنا: إنه التواضع صدقتنا هذه القصة، وإذا أسْنَدنَاه للتقوى التي ميزت أعمال أمير المؤمنين فإن القصة تنطق بذلك .

قال بالرحمة أستاذنا العقاد رحمه الله في كتابه «عبقرية عمر»، وكذلك الأستاذ الدكتور محمد حسين هيكل في كتابه «الفاروق عمر».

ويمكن لنا أن نقول: إن منظر الأولاد اليتامى الجياع، وعبارات أمهم الأرملة المسكينة والليل والبرد كل ذلك قد استنفر هذه الصفات المكتنزة في شخص أمير المؤمنين فاحتشدت كلها لتصنع هذه السبيكة الذهبية، واللوحة الجميلة الرائعة لتكون درسًا يتلقاه أهل الفضل من الحكام على مرِّ السنين والأعوام، وهو الذي أثار قريحة شاعر النيل المغفور له حافظ إبراهيم الذي سجل هذا النبأ الجليل، وموقف أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه في هذه الأبيات من قصيدته العمرية فقال:

ومن رآه أمام القدْر منبطحًا	والنار تأخذ منه وَهْوَ يزكيها
وقد تخلل في أَثنَاء لحيته	منها الدخان وفوه غاب في فيها
رأى هناك أمير المؤمنين على	حال تروع لعمر الله رائيها
يستقبل النار خوف النار في غده	والعين من خشية سالت مآقيها

٢- رحمته باليهودي العاجز:

يا بني آدم في كل بقاع الأرض، يابني الإنسان جميعًا في هذا الوجود!! ياحكام الشعوب في أرجاء الدنيا!! أيها الفقراء في كل مكان!! أعدّوا أنفسكم لاستيعاب هذا النبأ الذي أخذت أضواؤه ببصري، وهو يتلألأ على صفحات التاريخ، وغلب على أريجه الذي يفيح فيشرح الصدر، وينتشر عبقه في الآفاق، فيحيي من القلوب ما يموت!!

أعدّوا أنفسكم لاستيعاب هذا النبأ قادمة لنا من المدينة المنورة على يدي التاريخ الجميل في وعاء الحكمة، والالتزام، والصدق، والعدل، والرحمة يأتينا هذا النبأ في صورة بسمة مضيئة على فم التاريخ وهو يحكي هذا النبأ يأتينا من أعماق أعماق الزمان من هناك في طيّات القرون الوسطى.. يأتينا ساطعًا من مشكاة أشرف الخلق سيدنا محمد ﷺ معلم أمير المؤمنين عمر، ومربيه.

ننقل هذا النبأ من كتاب «عبقرية عمر» لأستاذنا عباس محمود العقاد الطبعة الأولى (ص٥٥)، فاقرأوه واحفروا وقائعه في قلوبكم وفي عقولكم، واملأوا به أسماعكم وأبصاركم!!

«على أن عمر كان يرحم في أمور يحول فيها النفور الديني دون الرحمة عند الكثيرين، فمن ذلك أنه رأى شيخًا ضريراً يسأل على باب، فلما علم أنه يهودي، قال له:

- ما ألجأك إلى ما أرى؟

قال اليهودي: أسأل الجزية والحاجة والسن.

فأخذ عمر بيده، وذهب به إلى منزله، فأعطاه ما يكفيه ساعتها، وأرسل إلى خازن بيت المال يقول:

انظر هذا «وأضرابه» وضرباءه، فوالله ما أنصفناه إن أكلنا شبيبته ثم نخذله عند الهرم، إنما الصدقات للفقراء والمساكين، والفقراء هم فقراء

المسلمين، وهذا من المساكين من أهل الكتاب، ووضع عنه الجزية وعن ضربائه» انتهى كلام العقاد.

انظروا أيها الناس!! إن صفات الجمال الإنساني كلها قد احتشدت في هذا الإنسان العظيم سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه. العدل والرحمة، والنبل والعلم، والصدق والحكمة.

فأما العدل: فإن نوره يشع في عبارته المضيئة بالهدي المحمدي حين قال: «ما أنصفناه إن أكلنا شبيبته، ثم نخذله عند الهرم».

وأما الرحمة: فتفيض من قلبه لتملأ رحبات الأرض وآفاق السماء عندما أخذ الضرير إلى بيته فأسعفه بما يقوته.. كل هذا العطاء الجميل فاز به اليهودي.

يا لنبل أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه!! يا له من عبقري في التشريع، مستلهمًا كتاب الله وسنة الصادق المصدوق سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم.. حفظ فوعى فشرع فعدل، وطبّب برحمته وعدله شيخوخة اليهودي الضرير!! ولا غرو فهو من كتبة الوحي لأشرف الخلق سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم!!

إن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب كان دائمًا في حالة حضور مع القرآن الكريم، وهو على وجه اليقين قد قرأ الآية الكريمة التي تسطع في سورة المائدة برقم (٨٢) يقول الله سبحانه وتعالى فيها:

﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [المائدة: ٨٢].

وإن من أعلم الصحابة بالقرآن عمر بن الخطاب وهو على وجه اليقين يعرف ما تدل عليه هذه الآية الكريمة فهي أكدت على وجود العداوة في قلوب اليهود مشتعلة ضد المسلمين، ومعنى ذلك أن العداوة من طرف واحد،

فهي عند اليهود، ولا توجد عند المسلمين، عند اليهود فقط، وليست عند المسلمين، بدليل ما نصت عليه الآية رقم (١١٩) من سورة آل عمران التي يقول الله سبحانه وتعالى فيها: ﴿هَا أَنتُمْ أُوْلاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [آل عمران: ١١٩] .

وهو قد صحب سيدنا رسول الله ﷺ وحضر معه كل المواقع الحربية التي أشعل نارها اليهود، وتحقق من حجم هذه العداوة المستعرة البادية منهم، لكن ذلك لم يمنع أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ من أن يعطي اليهودي كلاً من الرحمة والعدل عندما تحقق من فقره وجوعه!!

بل إنه ارتقى إلى ما هو أعلى من ذلك وأرقى وأسمى، وتوج هذا العطاء بتاج الإسلام، فأصدر تشريعًا سبق به الزمان وانتصر فيه لما انطوى عليه الإسلام من العدل والرحمة معًا، هذا التشريع الذي قرأ فيه كل المصلحين في كل زمان ومكان سماحة الإسلام وعدله ورحمته وعالميته، حيث قرر لليهودي وأمثاله راتبًا من بيت المال، ووضع عنه الجزية، وبهذا يكون أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ أول من شرع قواعد الضمان الاجتماعي، وسبق بذلك كل العصور.

سند أمير المؤمنين عمر ﷺ في هذا التشريع:

لقد استند أمير المؤمنين في هذا التشريع إلى القرآن الكريم الذي نص في الآية رقم (٦٠) من سورة التوبة على قول الله فيها:

﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٦٠] .

فقال: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ﴾ والفقراء هم فقراء المسلمين والمساكين من مساكين أهل الكتاب. وهذا اجتهاد من أمير المؤمنين يعرف الناس به مدلول

كلمة (المساكين) بأنهم مساكين أهل الكتاب. وقد كسب بذلك أمير المؤمنين فضل تميز التشريع الإسلامي الذي يحفظ الحقوق المجردة من الضياع، وأظهر بذلك وضاءة الشريعة الإسلامية وسموّها الذي به تضع حلاً بسيطًا لكل ما يعرض لدولة الإسلام من مشاكل في ضوء مرونة النص الإسلامي وصلاحية التشريع الإسلامي للتطبيق في كل زمان ومكان.

وليس هذا بغريب على تلميذ أشرف الخلق سيدنا محمد ﷺ .

على كل حال فقد أثبت أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه سبق الإسلام لجميع النظم الوضعية في تقرير حق رعايا الدولة في أن يحصلوا على الحياة الكريمة.

إطعامه الطعام على مستوى المجتمع:

كان ذلك في عام الرمادة، حيث أصابت الناس في الجزيرة العربية مصيبة الجوع، حيث توقفت السماء عن المطر، وضنّت الأرض بما تنطوي عليه من خير، وحيثما حل الجوع حل معه الخوف، وهما معًا ألد أنواع الأعداء للإنسان، حيث يستصحب الجوع الهزال، ويستصحب الهزال الضعف والكسل والخمول، ويتوقف الإنسان عن الحرث والزرع، ويتبدل كساء الأرض من الخضرة إلى الرماد، وعند ذلك سمى الناس هذا العام الذي شهد ضرب الناس بالجوع بعام الرمادة.

نشب الجوع أظافره الحادة في بطون الناس، فأقبلوا على الحطام المتخلف عن الزروع يحاولون مضغه دون فائدة، وتزاحموا وراء الحشرات يأكلونها لا يبالون بما تحمله من جراثيم، وخشي البعض أن يديروا وجوههم نحو أطفالهم يأكلونهم ليسدوا رمقهم لعلهم يحتفظون بحياتهم، وغشيت الجزيرة العربية لفائف الحزن السوداء لحمتها الخوف وسداها الحسرة.

هنا تبدّى وجه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب بدرًا منيرًا أنار الأرض وأنار معها السماء. ودخل كيانه من داخله فاستجمع طاقته الإيمانية في قلبه واستدعى

الذكاء والرشد من عقله، واستنفر عزيمته الصلبة، وجند ذلك كله لقمع ثورة الجوع، وأطاعته قوى الخير التي أنبتت في جسده تدفع عن الناس جيوش الخوف الحاشدة المحتشدة، وأعلن الحرب عليها وسلاحه الإيثار ونكران الذات، وقمع الشهوات، وإخراس صوت الشيطان في النفس البشرية.

وأعلن التعبئة العامة، فخف له رجال من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم، يلتفون حوله، ويشدون من أزره، ورفعوا لواء الجهاد الأكبر، ألا وهو جهاد الناس، وهذا الجهاد هو المطلوب الآن، سلاحه البتار هو الصبر، وقدموا للبشرية أعظم الدروس، وأرقى ما عرفته هذه البشرية من مُثُل عليا، وانبرى هذا الموكب المدهش الجليل من الصحابة ﷺ يصرعون شبح الجوع وشبح الموت، ويمزقون بنور الإيمان لفائف الظلام، حتى انقشعت الظلمة، وانكشفت الغُمّة، وفرح المؤمنون بنصر الله، وأصبح الفقراء مكبرين لله يسبحون بحمد ربهم، ويستغفرونه وهم له قانتون، بعد أن اطمأنوا على أنفسهم وعلى أولادهم، وعلى حيواناتهم، وطعم الجميع من رزق الله سبحانه وتعالى الذي أطعمهم من جوع، وآمنهم من خوف.

كيف أشرق هذا الإنجاز العظيم بوجهه، ومَثُلَ النجاح بأضوائه مشيراً بإصبعه إلى السماء .. يذكر الناس بكلمات الله عز وجل:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١، ٢٢] .

كيف انقشعت ظلمات هذه المصيبة؟ كيف أدبرت لياليها الحزينة؟ كيف جعل الله بعد عسرها يسراً، ففك الكرب، وتقطعت حبال الجوع التي رسفت فيها أيدي الناس وأرجلهم، وخرج الناس من أسر المأساة؟ أخرجهم الله من هذا الكرب مخرجًا حسنًا، وكيف عادت شمس الأمل بأشعتها الدافئة تعيد للجائعين الحياة أكرم ما تكون الحياة؟ هذا ما نفصله فيما يأتي:

إن أمير المؤمنين سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه هو في هذا المقام هو رجل الساعة.. قد اتخذ للأمر عدته آخذاً بالأسباب ورسم للفوز في هذه المعركة خطوط الدفاع الآتية:

خط الدفاع الأول: هو شخصية عمر الفذة:

استنفر أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه كل ما استودع الله في شخصه من ملكات، وكل ما وهبه الله من قدرات، وكل ما ألهمه الله من قرارات، فبدأ بنفسه أولاً فأقسم بالله لا يشبع من طعام لا يأكله الناس ولا يشبعون منه، وهو يعرف جيداً الحد الأدنى من الطعام الذي يتناوله الفقراء وهو الخبز والخل والملح وهما الإدامان المتاحان، فأقسم بالله لا يجمع بين إدامين قط، ولا يأكل من طعام لا يشبع منه سائر الناس.

وإن له في هذا الشأن فتحًا من الله سبحانه وتعالى، وله أخبار لولا أن رواتها ثقات، ولولا أن بطلها هو أمير المؤمنين عمر ما صدقها أحد.. فاقرأ أيها القارئ، واقرئي أيتها القارئة، وأرجو القراء ألاً يندهشوا، ولا يتعجبوا فإن البطل الذي نسوق أخباره هو تلميذ أشرف الخلق سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم إمام الزاهدين وسيد المتواضعين.

- كيف يعنيني شأن الرعية إذا لم يمسّني ما يَمَسّهُم- قاطع أمير المؤمنين شهي الطعام ولينه، وبعزيمته وإيمانه طبق هذا المبدأ الذي احتوته هذه العبارة الصادرة عنه في صيغة سؤال الذي يحمل معنى الإنكار والنفي.

{كيف يعنيني شأن الرعية إذا لم يمسّني ما يَمَسّهُم؟}.

إذن هو لا يشبع من طعام لا يشبع منه سائر المسلمين!! والدليل على ذلك أن خادمًا لديه وقع أمامه وعاء من سمن وآخر من لبن، ففرح بهما واشتراهما، وأتى بهما أمير المؤمنين رضي الله عنه، فهنأه بذلك وسأله عن ثمنهما فقال الخادم: اشتريتهما بأربعين درهمًا، فقال له عمر رضي الله عنه: أغليت فتصدق بهما

فإني أكره أن آكل إسرافًا. وأطرق هنيهة ثم قال بعدها: (كيف يعنيني شأن الرعية إذا لم يمسّني ما يَمَسّهُم؟).

ماذا كانت نتيجة تمسكه بهذا المبدأ الذي ألزم نفسه به؟

إنه أمير المؤمنين الحاكم، يتحمل أعباء الحكم وإدارة البلاد إدارة رشيدة، وهو القائد الأعلى للجيش الإسلامي الذي يقطع في جهاده الفيافي والقفار دفاعًا عن الإسلام والمسلمين بدفع شرور أعداء الله عن الدولة الإسلامية الفتية.

ثم هو الآن يدير التعامل مع هذه الأزمة الطاحنة أزمة الجوع، أزمة الرمادة!! وهذا كله يكلفه الكثير من سهر الليل وكفاح النار من أجل تدبير القوت لهؤلاء الجياع.

وإصراره على الاكتناء بهذا الطعام الذي ألزم به نفسه، أدى به إلى الضعف والهزال، ولكنه بهذا فرح لأنه يشارك المسلمين في جوعهم بهذه الأسهم القيمة.

اسودَّ لونه، وانحنى ظهره، ولانت عظامه، وهو الذي كان بالأمس يحمل وجهًا أبيض مشربًا بحمرة، وكان طوالاً مرفوع القامة، يُرى في السوق ممتلئًا حيوية ونشاطًا، وكان قوي العضلات، قوي البنية، يهابه الفرسان، ويخشاه الشجعان.

وسبب هذا الضعف الذي اعتراه ظاهر للعيان ويكمن في قصره الإدام على الخل والزيت لا يبدلهما إلا بالملح!! لاحظ الصحابة ذلك.. وخافوا على أمير المؤمنين عمر من الهلاك!! إنه أمن الأمة.. وسلامها وسلامتها، وفي هلاكه هلاك لها، فماذا يفعلون ليحملوه على تناول الطعام ذي القيمة الغذائية، حتى يسترد عافيته وصحته، وينهض بالأعباء الملقاة على عاتقه؟

لجأوا لحيلة لعلها تلين عريكته وتثنيه عن عزمه، وتجعله يلين لنفسه الطعام.

لقد ذهبوا لأم المؤمنين حفصة ابنته تقوم بدور من اقتراح سيدنا عمرو بن العاص ﷺ ومن إخراجه، أن تذهب لبيت أمير المؤمنين في وقت الغداء، وتطلب طعامًا لأنها جائعة، فيقدم لها طعام إدامه الملح فترفضه، فيقدم لها الإدام الثاني هو الزيت، فتطلب طعامًا آخر، وهنا ينشأ هذا الحوار، تسأل سيدتنا حفصة ﷺ: أليس في بيت أمير المؤمنين من طعام إلا الخبز والملح والزيت والخل؟

عندئذ شم أمير المؤمنين عمر ﷺ رائحة المؤامرة الحميدة التي سبكها عمرو بن العاص، فردّ على سؤالها بالآتي:

«ياحفصة!! اذهبي وقولي لمن أرسلوك: إن عمر خلف صاحبين هما رسول الله ﷺ وأبو بكر ﷺ وإنه يخشى إن انحرف عن طريقهما ألا يدركهما، والذي نفس عمر بيده لا أجمع بين إدامين قط ولا أشبع من طعام لا يشبع منه سائر الناس».

إذن فقد قدم أمير المؤمنين نفسه قدوة للناس يقتدون به، أما علية القوم من الصحابة الكرام والذين لديهم فرصة حيازة الطعام الشهي اللين فإنهم وهم جميعًا تلاميذ حضرة النبي ﷺ تسليمًا كثيرًا، فإنهم لن يترددوا في التأسي به فيرشدون استهلاكهم، ويلزمون أهلهم وذويهم بذلك الترشيد، وبذلك يساعدون على تخفيف العبء على أمير المؤمنين بمساعدة الأسر الفقيرة على تجاوز هذه الأزمة الخطيرة، وبذلك تقوى رابطة المحبة بين الأغنياء والفقراء، فيتوحدون صفًا واحدًا لمواجهة الجوع، مع رضا الفقراء على الأغنياء وعطف الأغنياء على الفقراء، ويتحقق على أرض الواقع ما قرره أشرف الخلق سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم في الحديث الصحيح الذي يقول فيه: «مثل المؤمنين في توادهم وتعاطفهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعت له سائر الأعضاء بالحمى والسهر».

أظن أنك معي أيها القارئ الكريم في الإقرار أن الذي قادهم إلى هذا التضامن هو سلوك أمير المؤمنين سيدنا عمر بن الخطاب ﷺ الذي هو عزوفه عن الطعام الذي لا يشبع منه سائر الناس. سلام على أمير المؤمنين عمر بن الخطاب في العالمين !!

خط الدفاع الثاني:

هذا الخط هو من بنات أفكار سيدنا عمر ﷺ ألهمه الله إياه، هو أن أضاف إلى كل أسرة أسرة أخرى بعددها يتناولون مخصص هذه الأسرة من الطعام. وفي هذا ترشيد للاستهلاك، وفي الوقت نفسه يحفظ للناس حقهم في الحياة وتطبيق لتعاليم حضرة النبي صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم في الحديث الشريف الذي يقول فيه: «**طعام الواحد يكفي الاثنين، وطعام الاثنين يكفي الأربعة**».

كما أنه يحدّ من سطوة الجوع ويخفف من آثاره ويقلل من ويلاته، حتى يفرّج الله الكرب، وفي الوقت نفسه تدريب رشيد للأمة حتى تستطيع مواجهة الأزمات.. وكل ذلك يساهم في تماسك المجتمع وزيادة في رصيده الإيماني حتى يبدو قويًا في الملمّات ونوائب الدهر.

خط الدفاع الثالث:

اتصل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ بأمراء الأمصار ومنهم سيدنا عمرو بن العاص والي مصر ومعاوية بن أبي سفيان صاحب الشام، كتب رسالة إلى سيدنا عمرو بن العاص قال فيها: «من عبد الله أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب إلى عمرو بن العاص: سلام عليك، أما بعد: أفتراني هالكًا ومن قبلي، وتعيش أنت ومن قِبَلك فياغوثاه!! ياغوثاه!! ياغوثاه!!».

فرد عليه سيدنا عمرو بكتاب قال فيه: «وبعد فقد قرأت كتابك ياأمير المؤمنين ولأبعثن إليك قافلة من البُر والقمح يكون أولها عندك وآخرها عندي، والسلام».

وفعلاً بَرَّ سيدنا عمرو بوعده وأرسل قافلة من البرّ تحمله الجمال.. فكان أولها عند أمير المؤمنين عمر بن الخطاب في المدينة، وآخرها هنا في مصر عند واليه في مصر عمرو بن العاص رضي الله عنهم أجمعين.

خط الدفاع الرابع:

اختار لمساعدته في إدارة هذه الأزمة الطاحنة رجلاً من أئمة الصحابة قال فيه أشرف الخلق سيدنا محمد صلى الله عليه وعليهم وسلم تسليمًا كثيرًا كلمة هي أرقى وسام عرفته البشرية، وهي قوله عليه الصلاة وأزكى السلام:

«لكل أمة أمين، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح». ﷺ وأرضاه.

اختاره لما يشبه في أيامنا هذه منصب وزير التموين انتدبه لهذه المهمة المدنية الإنسانية وأمره بترك مهمته العسكرية في قيادة الجيش في الشام إلى المدينة المنورة للإشراف على توزيع أنصبة الناس من الطعام.

والذي يدعو إلى الإعجاب بهؤلاء النفر من صحابة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ قد شارك سيدنا أبا عبيدة ﷺ في طهي الطعام وتوزيعه على الفقراء والمساكين طعامًا شهيًا ناضجًا يضعانه في أفواه الجياع حتى يشبعوا.

كان كل منهما ينافس الآخر في طهي الطعام، فيضرم النار، ويضع فوقها القدر، وينفخ في النار إذا خبت ليشعلها ووجهه كله يتلقى وهج هذه النار ودخانها فتشوه لحيته وتدمع عيناه.. ويظل على هذه الحالة حتى ينضج الطعام فيحمله للفقراء والمساكين ليطعمهم، وإني أظن بظن اليقين أن الملائكة كانوا يتابعون هذا الجهد بكل انبهار. انبهار يجعلهم يستغفرون الله عز وجل لكل منهما ويدعوان الآخرين للاقتداء بهما، بل إني أقول حدث هذا من هذا الفريق من الصحابة ﷺ والله يباهي بما صنعوا ملائكة السماء... وإن سيدنا رسول الله ﷺ يتابع أعمالهم بقلبه الشريف ويدعو لهم الله بالعفو والمغفرة

وبالأجر والثواب في الدنيا والآخرة، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم، وحجتي في ذلك ساطعة وسندي في ذلك واضح جليّ يتبدى مضيئًا منيرًا في قوله سبحانه وتعالى في سورة غافر (المؤمن) في الآية من رقم (٧) إلى رقم (٩) يقول الله سبحانه وتعالى:

﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَن تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [غافر: ٧-٩].

إن السيدين الجليلين عمر بن الخطاب وأبا عبيدة بن الجراح رضي الله عنهما ومن هم على شاكلتهما من الصحابة رضي الله عنهم أجمعين ليتقدمون هذا الصف من رجال الإيمان الذين يسعدون بما ورد في هذه الآيات الكريمة من عطايا الله القدسية.

وإن الليالي والأيام التي استغرقتها هذه المحنة بظلامها الدامس وقتامتها الحالكة ليشق ظلامها هذا وجه أمير المؤمنين سيدنا عمر بن الخطاب، هذا الوجه الذي استدار بدرًا منيرًا بنور الإيمان، مضيئًا بضوء الإخلاص ومعطر بالدعاء الذي تصاعد إلى الله سبحانه وتعالى من قلبه الطاهر.

هنيئًا لك ياأمير المؤمنين عمر وسلام عليك في العالمين؟

خط الدفاع الخامس: صلاة الاستسقاء:

إن المؤمن في نظرته إلى الأمور الدنيوية لا يقف عند قيمها المادية، ومحصلاتها الحسية، وإنما نظر إليها من زاويتين:

الأولى: زاوية المادة تدخل فيها المادة من اقتصاد ومال والمستشار فيها هو الفضل.

الثانية: زاوية الروح، حيث يحرك هذه الحالة المعاني الروحية المجردة، في أعماق النفس والضمير حيث صلة الإنسان بخالق السموات والأرض، يسأله، ويستلهمه، ويتقرب إليه ويقرب منه ويناجيه باعتبار أن الله هو الذي خلقه، وهو الذي يرزقه، وهذا ما يميز الإنسان المسلم عن غيره من رجال الاقتصاد ورجال المال، إذ إن الإنسان المسلم يسعى على الأرض وقلبه معلق بالسماء.

وفي مقامنا هذا موضوع البحث نرى أمير المؤمنين سيدنا عمر بن الخطاب هو ذلك الإنسان المسلم يتصرف وهو يجمع بين وضاءة العقل وأنوار الروح التي تستضيء بها بصيرته، هنا قد علمه وعلم المسلمين معه ومن بعده نوعًا من الصلاة لله سبحانه وتعالى، وهي صلاة الاستسقاء. فلجأ إليها أمير المؤمنين مقبلاً على الله بكل كيانه قلبًا وقالبًا، هو ثابت الجنان على الإيمان، ثابت الرشد على العقل، فصلى بالمسلمين صلاة الاستسقاء.

وهي كالآتي: كما وردت في كتاب فقه السنة للأستاذ الشيخ السيد سابق، المجلد الأول، دار الفتح ص ٢٥٧، ٢٥٨ ، الاستسقاء طلب سقي الماء ومعناه هنا طلبه من الله تعالى، عند حصول الجدب، وانقطاع المطر على وجه من الوجوه الآتية:

١ - أن يصلي الإمام بالمأمومين ركعتين في أي وقت- غير وقت الكراهية، يجهر في الأولى بالفاتحة و﴿سبح اسم ربك الأعلى﴾ والثانية بسورة الغاشية بعد الفاتحة، ثم يخطب خطبة بعد الصلاة أو قبلها، فإذا انتهى من الخطبة حول المصلون جميعًا أرديتهم أي جعلوها ما على أيمانهم عن شمائلهم، ويجعلوا ما على شمائلهم على أيمانهم، في هذه الحالة يستقبلون القبلة، ويدعون الله عز وجل، رافعي أيديهم، مبالغين في ذلك، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: خرج النبي ﷺ متواضعًا، متبذلاً، متخشعًا، مترسلاً (متأنيًا) متضرعًا، فصلى ركعتين، كما يصلي في العيد، ولم يخطب خطبتكم هذه . [رواه الخمسة وصححه الترمذي وأبو عوانة وابن حبان].

وعن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت: شكا الناس إلى رسول الله ﷺ قحوط المطر، أي: احتباسه، فأمر بمنبر، فوضع له بالمصلى، ووعد الناس يومًا يخرجون فيه، فخرج حين بدا حاجب الشمس، فقعد على المنبر، فكبَّر وحمد الله، ثم قال:

«إنكم شكوتم جدب دياركم، وقد أمركم الله أن تدعوه ووعدكم أن يستجيب لكم» ثم قال: «الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين، لا إله إلا الله، يفعل ما يريد، اللهم لا إله إلا أنت، أنت الغني ونحن الفقراء، أنزل علينا الغيث، واجعل ما أنزلت علينا قوة وبلاغًا إلى حين».

ثم رفع يديه، فلم يزل يدعو، حتى رؤي بياض إبطيه، ثم حوّل إلى الناس ظهره، وقلب رداءه، وهو رافع يديه، ثم أقبل على الناس، ونزل فصلى ركعتين، فأنشأ الله سحابة، فرعدت، وبرقت، ثم أمطرت، بإذن الله تعالى، فلم يأت مسجده حتى سالت السيول، فلما رأى سرعتهم إلى الكنّ ضحك حتى بدت نواجذه فقال:

«أشهد أن الله على كل شيء قدير، وأني عبد الله ورسوله».

[رواه الحاكم وصححه، وأبو داود وقال: هذا حديث غريب، وإسناده جيد].

وعن الشعبي قال: خرج عمر يستسقي، فلم يزد على الاستغفار، فقالوا: ما رأيناك استسقيت، فقال: لقد طلبت الغيث بمجاديح السماء، الذي يستنزل به المطر، ثم قرأ: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾ [نوح: ١٠-١١]، ﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ [هود: ٥٢] الآية

[رواه سعيد في سننه، وعبد الرزاق، والبيهقي، وابن أبي شيبة].

على كل حال قدم سيدنا عمر بن الخطاب سيدنا العباس عم سيدنا رسول الله ﷺ وقال: اللهم إننا كنا نصلي وراء نبيك ورسولك محمد ﷺ واليوم يصلي معنا عمه العباس رضي الله عنه فاسقنا!

وفعل أمير المؤمنين ذلك فأمطرت السماء واخضوضرت الأرض، وعم الخير الجزيرة العربية، والفضل كله لله العلي الكبير، وانقشعت مجاعة الرمادة، والحمد لله رب العالمين.

٣- صدقات أمير المؤمنين سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه:

جاء في كتاب (حلية الأولياء وطبقات الأصفياء) لأبي نعيم الأصفهاني المجلد الأول، (طبعة دار الفكر) ما يلي: «حدثنا محمد بن إسحاق، حدثنا إبراهيم بن سعدان، حدثنا بكر بن بكار، حدثنا عيسى بن المسيب، حدثنا أبو زرعة عن أبي هريرة رضي الله عنه قال:

اشترى عثمان بن عفان من رسول الله صلى الله عليه وسلم الجنة مرتين بيع الخلق: حين حفر بئر رومة، وحين جهز جيش العُسْرة».

التفصيل:

عن عبد الرحمن بن أبي حباب السلمي قال: خطب النبي صلى الله عليه وسلم فحثّ على جيش العُسْرة، فقال عثمان: على مائة بعير بأحلاسها وأقتابها، قال: ثم حثّ فقال عثمان (على مائة أخرى بأحلاسها، قال: ثم حثّ فقال عثمان: على مائة أخرى بأحلاسها وأقتابها. فرأيتُ النبيّ صلى الله عليه وسلم يقول بيده يحرّكها:

«ما على عثمان ما عمل بعد هذا».

من البديهي أن هذه الجمال بما عليها من مؤن وطعام قدمها سيدنا عثمان رضي الله عنه لتكون هي وما تحمله من غذاء عدة لحرب تبوك دفاعًا عن الإسلام والمسلمين ضد الروم الذين اعتدوا على المسلمين وهددوهم، وعن الإسلام الذي كان الروم يخشون انتشاره، وفي هذا خطر عليهم؛ إذ حين انتشار الإسلام ستزول دولتهم. وكانت حالة المسلمين الاقتصادية ضعيفة وظروفهم المحيطة بهم سيئة، والخطر القادم مع جيش الروم يهددهم، والحرب قادمة لا محالة. وسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن معه من جيش الإسلام يتوقعون نشوب

الحرب في وقت قريب، ولابد من إعداد العدة لملاقاة هذا العدوّ المجهز بكل جديد من وسائل الحرب، والمجهز بالكثيف من العدة والعتاد.

وسيدنا رسول الله ﷺ يعلن التعبئة العامة ويستحث الهمم، وإذا بسيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه يعلن تبرعه بهذه الثلاثمائة بعير بما عليها من متاع وطعام عُدّة لهذا الجيش الإسلامي، فيفرّج الكرب ويطمئن قلب حبيبه سيدنا رسول الله ﷺ وقلوب الذين معه.

بئر رومة:

جاء في صحيح البخاري (المجلد من ٤ إلى ٦) من طبعة دار الشعب، باب مناقب عثمان بن عفان رضي الله عنه:

«وقال النبي ﷺ من يحفر بئر رومة فله الجنة، فحفرها عثمان رضي الله عنه، إن البئر في أرض الصحراء تمثل النهر في الحضر، يلجأ إليها الناس في إعداد الطعام، وفي الانتفاع بالماء في السقي، وقد قال الله سبحانه وتعالى في الآية رقم (٣٠) من سورة الأنبياء: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠].

فالماء أصل كل مخلوق حي.

فهو يدخل في كل غذاء، ويروي الزرع، ويثري الضرع، ويحيي الثمر، ويجري الحياة في الإنسان، فيكون الدم في عروقه، ويسبّب الحركة في كيانه، ويروي ظمأه، ويدخل في دوائه.. فهو قوة له من ضعف، وإطعام له من جوع، وباختصار فهو الحياة لكل كائن حي. فإذا قام إنسان بحفر بئر يتفجر منها الماء، فكأنه يحيي الناس جميعًا.

وعندما قام أمير المؤمنين سيدنا عثمان رضي الله عنه بحفر بئر رومة.. قدم لأهل المدينة المنورة الحياة، فكان جزاؤه ما أوضحه سيدنا رسول الله ﷺ في حديثه الصحيح الذي اشتمل على دعاء له: «اللهم اغفر لعثمان، ما أقبل وما أدبر، وما أخفى وما أعلن، وما أسر وما أجهر» [حلية الأولياء، المجلد الأول].

- سيدنا علي بن أبي طالب كرم الله وجهه:

روي في بعض التفاسير: في تفسير سورة الإنسان أن سيدنا عليًا كرم الله وجهه ورضي الله عنه وأرضاه هو المعني بما جاء في الآيات من (٥) إلى (٢٢) من هذه السورة التي يقول الله سبحانه وتعالى فيها:

﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ۝ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا﴾ [الإنسان: ٧-٩].

- سيدنا جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه:

جاء في صحيح البخاري كتاب المناقب باب مناقب جعفر بن أبي طالب ﷺ ما يأتي:

١- وقال النبي ﷺ: «أشبهت خَلْقِي وخُلُقي».

حدثنا محمد بن إبراهيم بن دينار، أبو عبد الله الجهني عن ابن أبي ذؤيب عن سعيد المقبريّ عن أبي هريرة ﷺ: أن الناس كان يقولون أكثر أبو هريرة وإني كنت ألزم رسول الله ﷺ يشبع بطني حتى لا آكل الخمير، ولا ألبس الحبير، ولا يخدمني فلان ولا فلانة، وكنت ألصق بطني بالحصباء من الجوع، وإن كنت لاستقرئ الرجل الآية هي معي كي ينقلب بي فيطعمني، وكان أخير الناس للمسكين جعفر بن أبي طالب ﷺ، كان يتقلب بنا فيطعمنا ما كان في بيته، حتى إن كان ليخرج إلينا العكة التي ليس فيها شيء فنلعق ما فيها» [صحيح البخاري، طبعة دار الشعب].

٢- في حلية الأولياء لأبي نعيم الأصفهاني، المجلد الأول، ص١١٧ عن أبي هريرة ﷺ قال: «كان جعفر يحبّ المساكين، ويجلس إليهم، ويحدثهم ويحدثونه». وكان رسول الله ﷺ يسميه «أبا المساكين».

٣- روى الإمام أحمد رضي الله عنه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال:

«ما احتذى النعال، ولا ركب المطايا بعد رسول الله ﷺ أفضل من جعفر بن أبي طالب» يعني في الجود والكرم. [إسناده جيد، وأخرجه أحمد ٢ / ٤١٣، والترمذي (٣٧٦٨)، وقال: حديث حسن صحيح، والنسائي والحاكم وصححه].

٤- عن أبي هريرة قال: «كنا نسمي جعفراً أبا المساكين، كان يذهب بنا إلى بيته، فإذا لم يجد لنا شيئًا، أخرج إلينا عُكَّةً أثرها عسل فنشقها ونلعقها».

[إسناده حسن، وأخرجه البخاري ٣٧٠٨ في فضائل الصحابة، باب مناقب جعفر (٥٤٣٢) في الأطعمة، باب الحلوى والعسل من طريق ابن أبي ذؤيب، انظر الحديث في البند (١)].

سيدنا أبو عبيدة عامر بن الجراح:

روى الإمام البخاري رضي الله عنه عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أنه قال:

«بعث رسول الله ﷺ بعثًا قِبَل الساحل، فأمّر عليهم أبا عبيدة بن الجراح، وهم ثلاثمائة، وأنا فيهم، فخرجنا، حتى إذا كنا ببعض الطريق فني الزاد، فأمر أبو عبيدة بأزواد ذلك الجيش، فجمع ذلك كله، فكان مزودي تمراً، فكان يقوتنا كل يوم قليلاً حتى فني الزاد، فلم يكن يصيبنا إلا تمرة».

[صحيح البخاري، كتاب الشركة في الطعام، والنهد والعروض ج٢ ص٧٨٩ رقم ٢٣٥١].

الأشعريون من أصحاب سيدنا رسول الله ﷺ:

جاء في صحيح البخاري، كتاب الشركة، باب الشركة في الطعام، الحديث رقم ٢٤٨٦ ج(٥) ص١٢٨، ومسلم حديث رقم (٥٠٠) ما يأتي:

عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ:

«إن الأشعريين إذا أرملوا في الغزو أو قل طعام عيالهم بالمدينة، جمعوا ما كان عندهم في ثوب واحد، ثم اقتسموه بينهم في إناء واحد بالسوية فهم مني وأنا منهم».

يكفي إعلان سيدنا رسول الله ﷺ هذه العلاقة الطيبة بينه وبين الأشعريين؛ لأنهم ضربوا المثل الأعلى في التكافل فيما بينهم. نعم القوم الذين قال فيهم رسول الله ﷺ : «هم مني وأنا منهم».

انظر معي أيها القارئ، لقد أعلى من قدر الأشعريين بنسبته إليهم، ونسبتهم إليه، بسبب توحيدهم الطعام بينهم، ونسي كل منهم نفسه، وأنكر ذاته، وتذكر قومه، وعرف حقهم جميعًا .

٢- قوم من مضر:

روى المنذر بن جرير عن أبيه قال: «كنا عند رسول الله ﷺ في صدر النهار، فجاء قوم عراة حفاة متقلدي السيوف، عامتهم من مُضر- بل كلهم من مضر، فتغير وجه رسول الله ﷺ - لما رأى بهم من الفاقة، فدخل ثم خرج فأمر بلالاً، فأذن، ثم أقام الصلاة فصلى، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾ [النساء: ١] .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الحشر: ١٨] .

تصدق رجل من ديناره، من درهمه، من ثوبه، من صاع بره، من صاع تمره حتى قال : (ولو بشق تمرة)، فجاء رجل من الأنصار بصرة كادت كفّه تعجز عنها، بل قد عجزت ثم تتابع الناس، حتى رأيت كومتين من طعام وثياب، حتى رأيت وجه رسول الله ﷺ يتهلل كأنه مذهبة، فقال رسول الله ﷺ :

«من سَنّ سُنّة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها من غير أن يُنتقص من أجورهم شيء، ومن سن في الإسلام سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من يعمل بها من غير أن ينتقص من أوزارهم شيء».

[صحيح مسلم، كتاب الزكاة، باب الحث على الصدقة ولو بشق تمرة ٢ / ٧٠٦ رقم ١٧٠٦]

هذه سنة الإسلام (كتابًا وسنة) في إدارة الأزمات إذا كانت من نوع الأزمات الطارئة التي تهدد الإنسان في طعامه وشرابه؛ لأن هذا النوع من التهديد ينذر بحرمان هذا الإنسان من حق مقدس، هو حقه في الحياة، هذا الحق الذي نوّه إليه القرآن الكريم، وفتح أبصار الناس وبصيرتهم إلى خطره وأهميته في أوائل السور التي أنزلها الله على أشرف الخلق سيدنا محمد ﷺ، ومنها سورة قريش: ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ۝١ إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ۝٣ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾ [قريش: ١-٤]، وتتابعت السور والآيات التي تنبه الأذهان، وتؤكد على حقيقتين: الأولى: ثبوت الربوبية لله وحده سبحانه وتعالى، فهو وحده الذي يرزق جميع خلقه، وثبوت خطورة الطعام والشراب في حياة الإنسان، وحركته على وجه الأرض(!!)، وأنه وحده هو الذي يطعم ويسقي جميع الكائنات الحية، وعلى رأسها هذا الإنسان الذي هو خليفته على الأرض، وما عداه من كائنات.



حق الجائع في الفقه الإسلامي

قبل أن نفصل البيان في هذا الفصل يجب أن نحدد المقصود بلفظ «الجائع» ليحيا من حيّ عن بينة، ويهلك من هلك عن بينة.

إن مفهوم كلمة الجائع في هذا الفصل هو الذي يجوع رغم أنفه بمعنى أن تفرض الجوع عليه الظروف المحيطة، وأن يكون عاجزاً تمامًا عن الكسب، أو يمنعه مرض يحيق به عن الاتصال بالناس، فيكون هذا المرض منفراً للناس، فلا يقبلون منه عملاً أو خدمة تستحق أجراً، أو يحاصر حصاراً محكمًا يمنعه من الكسب، أو تجتمع فيه أسباب الحيلولة بينه وبين الكسب الحلال.. وجميع هؤلاء ورد ذكرهم في القرآن الكريم فيما يأتي:

١ - الآية ٢٧٣ من سورة البقرة يقول الله سبحانه وتعالى فيها:

﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٧٣].

تفسير هذه الآية الكريمة:

تفسير هذه الآية الشريفة يكشف الغموض ويبدد الحيرة اللذين يكتنفان العمل الصالح الذي يزمع المؤمن أن يقوم به، فيحدث الاضطراب، وتلعب الوسوسة دورها المثبط لهمته، فيحرم المستحقين، ويحبس مال الصدقة، ويتعرض للضياع.

إذن نلجأ لتفسير شيخنا الجليل الشيخ محمد أبو زهرة «زهرة التفاسير» الجزء الثاني (ص١٠٢٩) حيث يقول هذا الشيخ الجليل رحمه الله رحمة واسعة:

«بين سبحانه وتعالى في الآيات السابقة آفات الصدقات التي تذهب بخيرها بالنسبة لمعطيها من مَنٍّ وأذى ورياء.. بعد هذا بين سبحانه وتعالى موضع الصدقات والصفات التي توجب العطاء في مستحقها، وقد قصد سبحانه وتعالى، إلى بيان موضع الأولوية فيها، فقال:

﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي أن الصدقة تكون للفقراء الذين اتصفوا بهذه الصفات، وكانوا على تلك الأحوال، وهي خمس: فالجار والمجرور (للفقراء) خبر لمبتدأ محذوف يفهم من مطاوي الكلام الكريم السابق كله، وثناياه؛ لأن الكلام السابق كله في الإنفاق في سبيل الله، والصدقات المأجورة المشكورة، وما يعكر إخلاصها، ويعوق جزاءها، فكان المحذوف المطوي في القول مع قيام المشير إليه هو الصدقة، فهو محذوف في حكم المذكور، ولكن لماذا آثر النص القرآني الحذف، مع أن الأصل الذكر ليتم النسق الكلامي؟

الجواب عن ذلك هو: أولاً: الإيجاز المعجز الذي يكون قصر اللفظ مع غزارة المعنى، وثانيًا: هو تعليم العباد من حيث إنه طوى لفظ الصدقة، ولم يصرح فيه بالإسناد ووضعه بجوار الفقراء للإشارة إلى أن الأدب يوجب على المعطي ألا يصرّح أن يعطيه بأن هذا صدقة، حتى لا يحس بمذلة الأخذ، فحذف القرآن لفظ الصدقة عند الإسناد إلى الفقراء، مع وجوده في السابق من القول ليخفيه المعطي عند العطاء، مع احتسابه النية بإخفائه المقصد.

وقد ذكر الله سبحانه وتعالى للفقراء الذين يستحقون الصدقة أوصافًا أو أحوالاً خمسة:

الوصف الأول منها: ما ذكره سبحانه وتعالى بقوله: ﴿أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: منعوا من الكسب الحلال الطيب الذي يطلبه صاحبه مجاهداً في طلبه.

فالإحصار هنا هو المنع، وأصله من الحصر. بمعنى التضييق كما قال تعالى: ﴿وَاحْصُرُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥] . أي: ضيقوا عليهم، والإحصار هو التضييق

بالمنع من الحركة والسير والعمل المنتج المثمر، والمنع إما أن يكون لعجز مطلق بمرض أو شيخوخة أو صغر أو غير ذلك، وإما أن يكون المنع بسبب ضيق مسالك الكسب، فإن كان قادرًا ولا يجد عملاً مع طلبه، أو مشغول عن طلب الرزق لنفسه بما هو أجدى على الجماعة، وأنفع كالفدائيين الذين يتقدمون الصفوف ليفتدوا جماعتهم، ويعلو كلمة الحق، ويخفضوا كلمة الباطل، فكل هذا حصار ومنع من اكتساب الرزق.

وعبّر في الآية الكريمة بـ (أحصروا) بالبناء للمجهول للإشارة إلى أن فقرهم لم يكن نتيجة امتناع عن العمل المجدي النافع، ولم يكن تخاذلاً أو كسلاً، أو تهاونًا في طلب الرزق الحلال، إنما كان بمنع من غيرهم، أو ليس فيه إرادة حرّة قد آثروا فيها الكسل على العمل، وإنما كان المنع عجزًا، أو لأنهم بمقتضى التوزيع العادل، والتنسيق الكامل في الأعمال تحبسهم الجماعة عن طلب الرزق لينصرفوا إلى عمل آخر يجدي وينفع كالجهاد في سبيل الله، فكانوا ممنوعين عن طلب الرزق بحكم الواقع أو التكليف، ولم يكونوا ممتنعين.

وكلمة ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ ما موضوعها في الوصف المذكور. قال بعض العلماء : إن كلمة في سبيل الله هي في هذا المقام فيها إشارة إلى سبب الإحصار والمنع، وهو أنهم حبسوا أنفسهم للعمل في سبيل الله، وانقطعوا عن المكاسب وطلب الرزق؛ لأنهم ربطوا أنفسهم في سبيل الله بالجهاد في سبيل إعلاء الحق، أو بالقيام بعمل عام. وقالوا: إن هذه الآية نزلت في أهل الصفّة، وهم طائفة من المهاجرين الفقراء، انقطعوا عن أموالهم، وأقاموا بالمدينة لا مرتزق لهم فيها، ينتظرون غزوة يسيرون فيها، أو سرية يذهبون معها، فكان النبي ﷺ يأمر أصحابه ذوي اليسار باستضافتهم، فتستضيف كل أسرة واحدًا أو أكثر على حسب قدرتها، ومن بقي منهم من غير استضافة بسط النبي مائدته لهم في المسجد وأكلوا معه، وقد أقام لهم في المسجد صفة أي ظلة يأوون إليها يتقون الحر والبرد.

وعلى هذا التخريج يكون الإحصار المذكور في الآية ما يكون سببه الانصراف عن العمل بالاشتغال بعمل عام، فإن هذا يوجب على الجماعة التي يعملون فيها أن تجري على العامل ما يكفيه وأهله بالمعروف، فإن لم تفعل الدولة ذلك، وهي التي تمثل الجماعة، تولى الآحاد والجماعات من الناس تهيئة أسباب الرزق لهم بما يكفيهم.

ولكن الأوصاف اللاحقة لهذا الوصف تومئ إلى أن الآية الكريمة يدخل في عمومها كل فقير يتعفف عن السؤال، ولا يستطيع كسب عيشه لأي سبب من الأسباب المانعة أو المعوقة من العمل للرزق، بل إن قوله تعالى: ﴿لا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾ يجعل موضوع الآية الكريمة الفقراء العاجزين عن الكسب غير المتفرغين لخدمة عامة؛ لأن هؤلاء لا يتعرضون للسؤال ثم يمتنعون عنه، إنما الذي يتعرض له ويعفُّ عنه هو العاجز لغير ذلك السبب.

حيث يكون قوله تعالى ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أعم من الحال التي ذكرها أولئك المفسرون بأن يكون معناها أي في سبيل القيام بما يجب عليهم، سواء كان ذلك الواجب رزقًا يطلبونه، ولكنهم يعجزون عن الحصول عليه، فهم في سبيل هذا الطلب في سبيل الله، أم كان ذلك الواجب خدمة عامة حبسوا أنفسهم عليها، أو القيام بأمر من الفروض الكفائية التي تخصصوا في بعضها كطلب العلم، فإن هؤلاء على المجتمع فرادى وجماعات، وعلى الدولة أن تسهل لهم الحياة، وتمكنهم من الاستمرار على طلب ما يطلبونه.

والخلاصة أن الإحصار على هذا يشمل العجز المادي عن الكسب، إما لمرض أو شيخوخة أو نحوهما، أو لطلب العمل مع عدم القدرة عليه، كما يشمل الذين حبسوا لتكليف عام، والقيام بفرض من فروض الكفاية.

وأما الوصف الثاني:

من أوصاف أولئك الفقراء الذين هم أولى الناس بالإنفاق عليهم أنهم ﴿لا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الأَرْضِ﴾، والضرب في الأرض إما أن تقول: إنه بمعنى الذهاب في الأرض والسفر فيها طلبًا للرزق، إذ إن هذا المسافر يضرب الأرض برجله، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الأَرْضِ﴾ [النساء: ١٠١]، والمعنى على هذا أن هؤلاء لا يستطيعون السفر للإتجار وكسب الرزق. إما أن يقال هذا، وإما أن يقال: إن الضرب في الأرض بمعنى حرثها وزرعها، فإن الحارث الزارع يضرب الأرض بفأسه، ويشقها بمحراثه.

والأولى في نظري أن تكون كلمة الضرب في الأرض شاملة، وأن يكون النفي شاملاً، أي أن هؤلاء الفقراء لا يستطيعون العمل في الأرض بالزراعة، أو الذهاب فيها للاحتطاب والكسب، أو السفر للاتجار، والتنقل بين الأمصار سعيًا في الرزق، لا يستطيع أولئك الفقراء شيئًا من هذا بسبب العجز المادي، أو لأنهم حبسوا النفع عام، أو واجب كفائي على العموم، وقد تخصصوا هم لأدائه، ولقد قال ﷺ: «لا تحل الصدقة لغني، ولا لذي قوة سوي».

[رواه الترمذي: الزكاة، من لا تحل له الصدقة (٥٨٩)، وأبو داود: الزكاة، من يعطى من الزكاة وحد الغنى (١٣٩٢)، وأحمد (٦٢٤٤)، وابن ماجه: الزكاة، من سأل عن ظهر غنى (١٨٢٩)، عن أبي هريرة رضي الله عنه].

قلت: والمعنى لا تجوز الصدقة على الغني ذي المال، ولا لصاحب القوة السويّ لتوفر المال عند الأول، وتوفر الصحة والعافية عند الثاني؛ مما يكسبه القدرة على كسب العيش بالعمل، والله أعلم.

وأما الوصف الثالث:

من أوصاف أولئك الفقراء الذين هم جديرون (يستحقون) بالعطاء أنهم ﴿يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ﴾ ومعناه أنهم متجملون لا يعرف حالهم من فقر مدقع، إلا أهل الخبرة بالنفوس، وذوو البصيرة النافذة، والفراسة الصادقة،

فهم لا يعرفون بفقرهم وحاجتهم وعوزهم، بل يحسبهم الجاهل، أي يظنهم أغنياء، ويقوم ذلك بحسبانهم وتقديره من غير أمارات ظاهرة، وبينات قائمة، فالظن في قوله تعالى: ﴿يَحْسَبُهُمُ﴾ ظن في حسبان صاحبه فقط، و﴿الْجَاهِلُ﴾ إمّا أن المراد به من لا يعرف حالهم، أو المراد به من لا ينفذ إلى حقائق الأمور، بل يأخذها بمظاهرها التي تبدو بادي النظر، وليس عنده إحساس مرهف يعاونه على إدراك حال هؤلاء الفقراء مما يحيط بهم لا مجرد المظاهر، وهذا هو الحق. و﴿التَّعَفُّفِ﴾ تكلف العفة إما بالمبالغة فيها، والشدة في النزاهة، أو بمحاولة الصبر عليها، وتحمل المشقة في سبيلها، أي أن الدواعي لتركها أقوى من البواعث على الاستمساك بها، ولكنه يستعين بالصبر، فيرجح العفة بعد تكلف المشقة واحتمالها. والآية الكريمة تقبل المعنيين، فإن الفقير العاجز عن الكسب عند تحمله ما يتحمله ما يتحمل الحر الكريم في سبيل عفته والمحافظة عليها مبالغ في العفة. أولاً: لأن المبالغة في العفة ليست بالقدر منها، وإنما يكون بقدر ما يبذل في سبيل المحافظة عليها، فالغني لا يبالغ في العفة إن امتنع عن أخذ أموال الناس، أو طلب المعونة منهم، أو أكل مالهم بالباطل، أو سرقتهم أو اغتصابهم، ولكن العاجز عن الكسب يعد مبالغًا في العفة إن امتنع عن طلب المعونة، وهو في أمس الحاجة إليها، وهذا الفقير يبالغ في العفة ثانيًا.

وأما الوصف الرابع:

فهو ﴿تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ﴾ وهو أمر متصل بهم وبمن يراهم من ذوي الحس المرهف، والبصيرة النافذة، ولذا كان الخطاب في معرفة سيماهم للنبي ﷺ وهو البصير النافذ البصيرة، ولمن كان مقتديًا به من كل مؤمن قوي الوجدان ممن قال فيه النبي ﷺ: «اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله».

[رواه الترمذي، تفسير القرآن، ومن سورة الحجر (٣٠٥٢)].

والسّيما: العلامة.

فما هي علامة الفقراء المتجملين الذين ستروا حاجتهم، والتي يعرفون بها؟

قال بعض العلماء: التواضع والخشوع. وقال بعضهم: الرثاثة ومظاهر الفقر. وقال بعضهم: الجوع وآثاره. والحق أن الله سبحانه وتعالى لم يبن لنا هذه العلامة، التي يعرفون بها، ولكنه ذكر أنها تعرف لذوي البصيرة، أي أن الشخص المدرك الفاهم يستطيع معرفتها بزكانة نفسه (الزكانة والزّكن بالتحريك: التفرس)، والظن يقال زكنته صالحًا أي ظننته (لسان العرب- زكن).

وقد ذكر الله سبحانه وتعالى بهذا أمرين: أحدهما ينسب للجاهل وهو الظن بأنهم من الأغنياء. إذ قال سبحانه: ﴿يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ﴾ هذا ظن الجاهل بالنفوس. يحسبهم لفرط تجملهم بالصبر أغنياء، والأمر الثاني أن لهم سيمًا ومظهراً لا يعرفه الجاهل، ويعرفه غيره بالنظر الفاحص العاطف، الكاشف الساتر.

وأما الوصف الخامس من أوصافهم:

أنهم ﴿لا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾ أي أنهم لا يسألون الناس، ولا يلحفون في السؤال أو الطلب. «ولقد قال الزمخشري في معنى إلحافًا : (الإلحاف: الإلحاح)، وهو اللزوم، وألا يفارقه إلا بشيء يعطاه من قولهم: (لحفتي من فضل لحافه) أي: أعطاني من فضل ما عنده».

وقد اختلف العلماء في النفي بهذه الجملة السامية: أهو نفي للإلحاف وليس نفيًا للسؤال؛ أي أنهم يسألون، ولكن لا يلحفون في السؤال، أم هو نفي للسؤال مطلقًا سواء أكان إلحافًا أو غير إلحاف؟

قال بعض العلماء: إن النص الكريم يفيد بظاهره نفي الإلحاف لا نفي أصل السؤال؛ لأن النفي منصب عليه. إذ النفي إذا كان لأمر مقيد يوصف بكون موضعه ومناطه هو القيد لا الأصل.

وقال بعض آخر: إنّ أولئك الفقراء لا يسألون مطلقًا لا بالإلحاف ولا بغير إلحاف. وإني أرى أن ذلك هو الراجح؛ لأنهم لو كانوا يسألون ما حسبهم

الجاهل أغنياء من التعفف، ولو كانوا يسألون ما كانوا مستعففين، ولو كانوا يسألون ما احتاج البصير ذو الوجدان إلى تعرف حالهم بالمظاهر والسمات، فإن طلبهم يغني عن التعرف؛ إذ هم يعرفون أنفسهم بالسؤال، فسياق الآية يفيد أنهم لا يسألون مطلقًا، ولكن لماذا كان النفي متجهًا إلى الإلحاف في ظاهره لا في أصل السؤال؟

فنقول في الجواب عن ذلك: إن النفي ذكر بهذه الصيغة ليكون فيه إيماء إلى أن يوازيهم المعطي بغيرهم، وأن غيرهم يسأل الناس إلحافًا وهم لا يسألون. فالله سبحانه وتعالى نفى عنهم ما يقع من غيرهم، والنفي بهذه الصيغة فيه تعريض بالملحفين، وبه يبدو فضل المتعففين.

وإنه بلا شك يجب على المعطي أن يبتدئ في عطائه بأولئك المتعففين الذين لا يسألون، لأنهم الذين يستحقون، وهم المساكين، كما قال النبي ﷺ: «ليس المسكين الذي ترده التمرة والتمرتان، إنما المسكين المتعفف، اقرأوا إن شئتم ﴿لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾». [رواه البخاري، التفسير، لا يسألون الناس إلحافًا: (٤١٧٥)، ومسلم واللفظ له. الزكاة، المسكين الذي لا يجد غنى (١٧٢٣)].

وإنه إذا أعطى هذا المتعفف يجب عليه أن يستر حاله، ولا يكشف أمره، ليكون ذلك عونًا له على تعففه وتحمله، ولكن كشفه أذى، والأذى من آفات الصدقات، وإذا فضل شيء بعد كفاية المتعفف أعطى السائل، فإن مذلة السؤال توجب العطف، ولذا ورد «للسائل حق ولو جاء على فرس» وإن على من يعطي سائلاً أن يتعرف حاله أهو يسأل متكثرًا، وهو غني أم هو فقير يسأل مستعينًا ويتهم نفسه وشخصه قبل أن يتهم السائل، ولأن يخطئ في إعطاء غني عن جهالة خير من أن يخطئ بمنع فقير تظننًا وتأثمًا، فإن في الأول ثوابًا له بنيته. وفي الثاني إثمًا عليه بتغليب شحّ نفسه وتركه فقيرًا يتضور جوعًا مسوغًا ذلك بالظن والتهمة». (انتهى ما نقلته من تفسير زهرة التفاسير للشيخ محمد أبو زهرة، جزء (٢) ص ١٠٢٩-١٠٣٧).

ملاحظات على ما جاء بتفسير شيخنا الجليل:

ذكر شيخنا في تفسيره للآية الكريمة أن فريقًا من علماء التفسير قرر أن هذه الآية قد نزلت في شأن أهل الصفة، وهؤلاء طائفة من المهاجرين الفقراء انقطعوا عن أموالهم، وأقاموا بالمدينة المنورة، لا مرتزق لهم فيها، ينتظرون غزوة يسيرون فيها، أو سرية يذهبون معها.

وعلَّق على ذلك بقوله: «وعلى هذا التخريج يكون الإحصار المذكور في الآية ما يكون سببه الانصراف عن العمل بالاشتغال بعمل عام، فإن هذا يوجب على الجماعة التي يعملون فيها أن تجري على العامل ما يكفيه وأهله بالمعروف».

ثم يقرر أستاذنا الجليل برأيه الصائب وفكره الثاقب فيقول: «ولكن الأوصاف اللاحقة لهذا الوصف تومئ إلى أن الآية الكريمة يدخل في عمومها كل فقير يتعفف عن السؤال، ولا يستطيع كسب عيشه لأي سبب من الأسباب المانعة أو المعوقة من العمل للرزق» . (ص١٠٣١) .

وهنا وقفة: أقف بها مؤيدًا رأي أستاذنا الجليل أبو زهرة رحمه الله رحمة واسعة، مضيفًا إليه ما يلي:

أولاً: إن الآية الشريفة تمثل حكمًا في قاعدة من قواعد النظام المالي في الإسلام الذي ينظم الموارد المالية من زكاة وصدقات تطوعية وغيرها من الموارد، وينظم معها المصارف التي تصرف فيها بمقتضى هذه الأحكام، وهي هذه الأحكام لا تقترن بزمان محدد ولا بمكان معين، إنما هي تحكم المجتمع المسلم في كل زمان ومكان. وكما قيل: إن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فإن القول بأن هذا الحكم الوارد في هذه الآية الكريمة يتعلق بأهل الصفة فقط يكون غير سليم، وإنما الصحيح هو ما قرره شيخنا الجليل لأسبابه الواردة في تفسيره مضافًا إليه ما قلته والله أعلم.

ثانيًا: إن هذا الحكم الوارد في هذه الآية الشريفة يصح أن يكون سندًا قويًا في إباحة الأجور والمرتبات المستحقة للعلماء والمفتيين، ومعلمي القرآن الكريم، والحديث الشريف وعلوم كل منهما، وعلماء وأساتذة الشريعة

الإسلامية في جميع الكليات والمعاهد؛ لأنهم حبسوا أنفسهم لتحقيق نفع عام وهو التعليم والتعلم والإفتاء.. وتنوير غير المتعلمين، وكل هذا يحقق الخير للناس في الدين والدنيا، والله أعلم.

•• في حالة تنازع حقين، يكون منها حق الطعام، فإن الإسلام يُعلي حق الطعام ويقدمه على غيره من الحقوق؛

معنى هذا أنه إذا عرض على الحاكم أو القاضي نوعان من الحقوق، أحدهما الحق في الطعام، ولا يكون في بيت المال إلا ما ينجز الحق في الطعام فقط، فإن الحاكم أو القاضي يعطي الحق لصاحب الحق في الطعام، ويصرف له من بيت المال ما يكفيه لتدبير طعامه، ويلتفت عن الحق الآخر المطالب به.

وقد قضى سيدنا رسول الله ﷺ قضاءه العادل في نزاع كان بين حقين، حق الطعام، وحق تعيين خادم لابنته الكريمة سيدتنا فاطمة الزهراء رضي الله عنها:

«كانت سيدتنا فاطمة الزهراء رضي الله عنها - بنت رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم- تقوم بطحن الطعام باستعمال الرحى التي تركت أثرًا في يديها الشريفتين، ومازالت صابرة على ذلك حتى تعبت، وبلغ بها الإجهاد مبلغه، وذات يوم وجدها الإمام عليّ تدير الرحى حتى ظهرت عليها أمارات الإعياء، فطلب منها أن تذهب إلى سيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم، تطلب منه أن يمنحها خادمًا تساعدها على القيام بواجباتها المنزلية، فلما مثلت بين يديه عقد لسانها الحياء منه، فلم تبدر منها بنت شفة، فسألها ما بك يابنية؟ فقالت: جئت أسلم عليك. وانصرفت من عند أبيها يجللها الحياء.

فلما أتت زوجها الإمام علي رضي الله عنه، وعلم أن الحياء منعها، صحبها إلى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وعليهم وسلم تسليمًا كثيرًا، وتولى سيدنا عليّ عليه السلام شرح دعواها أمامه ﷺ، موضحًا سوء حالتها الصحية، وحاجتها إلى خادم من هؤلاء الأسرى الذي تمكنت سرية من سراياه ﷺ من أسرهم، فكان ردّ حضرة النبي ﷺ حكمًا فاصلاً بالعدل والقسطاس كما يلي: «لا والله لا

أعطيكما ، وأدع أهل الصفة تتلوى بطونهم، ولا أجد ما أنفق عليهم، ولكن أبيع وأنفق عليهم بالثمن» [مسند الإمام أحمد رضي الله عنه، ج١ رقم٥٩٦].

أنت أيها القارئ الكريم، وأنت أيتها القارئة الكريمة تريان معي أن هذه الكلمات الصادرة عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم هي مَنْطوق حكمه في دعوى كريمته سيدة الرجال، وسيدة النساء في العالمين فاطمة الزهراء رضي الله عنها وأرضاها، التي هي في الوقت نفسه دعوى سيدنا الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ورضي الله عنه وأرضاه.

لقد تولى هذا الإمام الجليل ﵁ الدفاع في هذه الدعوى أمام حضرة النبي ﷺ وشرح أسبابها بإيجاز يَنُمّ عن بلاغته وفصاحته، وأوضح حالتها الصحية وتعبها في إدارة الرحى لطحن الطعام للأسرة حتى أصبحت في حاجة ماسة لخادم تعينها على النهوض بخدمة هذه الأسرة، وأن تعيين خادم لها ميسر إذ إن سرية من سرايا رسول الله ﷺ انتصرت للإسلام، وتمكنت من أسر مجموعة من الأسرى، ويمكن بسهولة ويسر اختيار واحدة من هؤلاء الأسرى ومنحها السيدة الجليلة فاطمة الزهراء ﵂ لتقوم بهذه الخدمة.

وأنصت سيدنا رسول الله ﷺ لهذا الدفاع القوي. ومصدر قوّته أنه عليه السلام (سيدنا علي) قد حبس نفسه على خدمة الإسلام، فارسًا شجاعًا يجاهد في سبيل الله حق جهاده، ويعلم الناس القرآن وأحكام الإسلام بإذن من سيدنا رسول الله ﷺ ، وفرّغ نفسه لذلك، وهو يستحق أن يُعان على ذلك بكافة أنواع المعونات. ومنها تعيين هذه الخادم لتعين زوجته .

ولكن سيدنا رسول الله ﷺ قد وجد حقًا آخر يعلو على طلب ابنته ويعلو على طلب زوج ابنته ﵄، ألا وهو حق الطعام لأهل الصفة ﵃ فلم يتردد في النطق بهذا الحكم الذي نقرؤه بعد أن أبان جميع هذه الحيثيات في حيثته بين العدل والرحمة : «ألا أعطيكما وأدع أهل الصفة تتلوى بطونهم ولا أجد ما أنفق عليهم».

هنا اجتمعت جميع خصائص العدل، تتقدمهن خصيصة النزاهة، والحيدة بحيث يذعن للحكم كل الأشراف وأهل الفضل في كل زمان ومكان.

وهذا القضاء قد أرسى قواعد حق الطعام لكل فم في جميع العصور، وعلى مدار السنين والأعوام، أعلى حقوق الإنسان قدراً.. هو حق الطعام، لا حق يسبقه ولا حق يعلو عليه، ولا حق يساويه، يبقى حق الإنسان في الطعام فوق قمة الحقوق الأخرى على كل البشر، وجميع بني الإنسان، وأولاد آدم في كل مكان، وفي كل عصر وأوان أن يصونوا هذا الحق - حق الطعام- وأن يرعوه مهما استجدت على الإنسانية حقوق أخرى يخترعها الإنسان.

هذا القضاء الشريف الذي قضى به أشرف الخلق ﷺ منع القاضي وأقاربه من شراء الحق المتنازع عليه؛ إذ إنه كان في إمكان سيدنا علي رضي الله عنه وفي إمكان سيدتنا فاطمة الزهراء أن يعرضا على سيدنا رسول الله ﷺ شراء الخادم المطلوبة بثمن يؤديانه له ليشتري الطعام لأهل الصفة، فإذا عجزا عن دفع الثمن فإن سيدنا رسول الله ﷺ كان لديه من الإمكانيات المادية ما يشتري به هذه الخادم ويهبها لابنته رضي الله عنها .

كل ذلك لم يحدث... منعًا للقيل والقال، وفي الوقت نفسه إرساء لقواعد العدالة.. وتنقية لحق الطعام من كل الشبهات.. وهذا إشعاع من إشعاعات الآية الشريفة رقم (٤،٣) من سورة النجم اللتين يقول فيهما:

﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣، ٤] .

وأعود فأكرر إن هذا القضاء النبويّ الشريف قد أعلى من قدر حق الطعام وجعله أول الأولويات، وهو بذلك سبق كل التشريعات بما فيها القانون الدولي، ومما لاشك فيه أنه يصادق الفطرة الإنسانية، مما كان له الأثر الطيب على نفسية سيدتنا الزهراء فرضيت به واطمأنت، فأمرها حضرة النبي ﷺ بأن تردد في يومها: «سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم».

حق الطعام في الفقه الإسلامي

حق الطعام في المقام الأعلى من الفقه الإسلامي:

سأنقل بالحرف الواحد ما ورد في كتاب المحلى (الجزء السادس) للإمام الفقيه العالم الجليل أبي محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم المتوفى سنة ٤٥٦هـ تحقيق: أحمد محمد شاكر، مكتبة التراث بالتفصيل: ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال: ٤٢] .

وذلك من (ص١٨٢) من الجزء السادس، بند (٧٢٥):

٧٢٥: مسألة: قال أبو محمد: (وفرض على الأغنياء من أهل كل بلد، أن يقوموا بفقرائهم، ويجبرهم السلطان على ذلك، إن لم تقم الزكوات بهم، ولا في سائل أموال المسلمين فيقام لهم بما يأكلون من القوت الذي لابدّ منه، ومن اللباس للشتاء والصيف بمثل ذلك، وبمسكن يكنهم من المطر، والصيف والشمس وعيون المادة).

وبرهنا ذلك: قول الله تعالى: ﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٦] .

وقال تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ [النساء: ٣٦] .

فأوجب تعالى حق المساكين، وابن السبيل، وما ملكت اليمين مع حق ذي القربى، وافترض الإحسان إلى الأبوين، وذي القربى، والمساكين، والجار، وما ملكت اليمين، والإحسان يقتضي كل ما ذكرنا، ومنعه إساءة بلاشك، وقال تعالى: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ۝٤٢ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ۝٤٣ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ﴾ [المدثر: ٤٢-٤٤] . فقرن الله تعالى إطعام المسكين بوجوب الصلاة.

وعن رسول الله ﷺ من طرق كثيرة في غاية الصحة أنه قال: «من لا يرحم الناس لا يرحمه الله».

قال أبو محمد: (ومن كان على فضلة ورأى المسلم أخاه خائفًا عريانًا ضائعًا، فلم يغثه، فما رحمه بلا شك).

وهذا خبر رواه نافع بن جبير بن مطعم، وقيس بن أبي حازم وأبو ظبيان وزيد بن وهب، وكلهم عن جرير بن عبد الله عن رسول الله ﷺ. وروى أيضًا معناه الزهري عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ، وحدثنا عبدالرحمن ابن عبدالله بن خالد، حدثنا إبراهيم بن أحمد، حدثنا العزيري، حدثنا البخاري، حدثنا موسى بن إسماعيل هو التبوذكي، حدثنا المعتمر- هو ابن سليمان- عن أبيه، حدثنا أبو عثمان النهدي، أن عبدالرحمن بن أبي الصديق حدثه: (أن أصحاب الصفة كانوا ناسًا فقراء، وأن رسول الله ﷺ قال: «من كان عنده طعام اثنين فليذهب بثالث، ومن كان عنده طعام أربعة فليذهب بخامس أو سادس» [البخاري ج٥ ص٣٨-٣٩، ورواه البخاري أيضًا عن أبي النعمان عن معتمر، ج١ ص٢٤٧-٢٤٨].

ومن طريق الليث بن سعد عن عقيل بن خالد عن الزهري أن سالم بن عبدالله بن عمر أخبره أن رسول الله ﷺ قال:«المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه».

قال أبو محمد: (من تركه يجوع ويعرى - وهو قادر على إطعامه وكسوته- فقد أسلمه).

(حدثنا عبدالله بن يوسف، حدثنا أحمد بن فتح، حدثنا عبدالوهاب بن عيسى، حدثنا أحمد بن محمد، حدثنا أحمد بن علي، حدثنا مسلم بن الحجاج، حدثنا شيبان بن فرّوخ، حدثنا أبو الأشهب، عن أبي نضرة، عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال:«من كان معه فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له، ومن كان له فضل زاد فليعد به على من لا زاد له».

قال: فذكر من أصناف المال ما ذكر حتى رأينا أنه لاحق لأحد منها من فضل).

قال أبو محمد: وهذا إجماع الصحابة ﷺ يخبر بذلك أبو سعيد، وبكل ما في الخبر نقول.

ومن طريق أبي موسى عن النبي ﷺ: «أطعموا الجائع، وفكوا العاني». العاني هو: الأسير. والحديث رواه البخاري (ج٧ ص١٣٠ و٢١٠) بلفظ: «أطعموا الجائع، وعودوا المريض، وفكُّوا العاني».

والنصوص من القرآن والأحاديث الصحاح في هذا كثيرة جداً. وروينا من طريق عبدالرحمن بن مهدي عن سفيان الثوري عن حبيب بن أبي ثابت عن أبي وسائل شفيق بن سلمة قال: قال عمر بن الخطاب ﷺ: لو استقبلت من أمري ما استدبرت لأخذت فضول أموال الأغنياء فقسمتها على فقراء المهاجرين، وهذا إسناد في غاية الصحة والجلالة.

ومن طريق سعيد بن منصور عن أبي شهاب أنه سمع علي بن أبي طالب يقول: «إن الله تعالى فرض على الأغنياء في أموالهم بقدر ما يكفي فقراءهم، فإن جاعوا أو عُرّوا وجهدوا فيمنع الأغنياء، وحق على الله تعالى أن يحاسبهم يوم القيامة، ويعذبهم عليه».

وعن ابن عمر ﷺ أنه قال: في مالك حق سوى الزكاة، وعن عائشة أم المؤمنين ﷺ، والحسن بن علي، وابن عمر ﷺ، أنهم قالوا كلهم لمن سألهم: إن كنت تسأل في دم موجع، أو عزم مقطع، أو فقر مدقع فقد وجب حقك.

وصح عن أبي عبيدة بن الجراح وثلاثمائة من الصحابة ﷺ أن زادهم فَنِيَ، فأمرهم أبو عبيدة فجمعوا أزوادهم في مزودين، وجعل يقوتهم إياها على السواء. فهذا إجماع مقطوع من الصحابة ﷺ لا مخالف منهم.

وصح عن الشعبي، ومجاهد، وطاوس وغيرهم كلهم يقول: «في المال حق سوى الزكاة».

قال أبو محمد: وما نعلم من أحد منهم خلاف هذا، إلا عن الضحاك بن مزاحم قال: (ليست الزكاة كل حق في المال).

قال أبو محمود، وما رواه الضحاك لا حجة، فكيف رأيه!!

والعجيب أن المحتج بهذا أول مخالف له، فيرى في المال حقوقًا سوى الزكاة، منها النفقات على الأبوين المحتاجين، وعلى الزوجة، وعلى الرقيق، وعلى الحيوان، والديون، والأروش، فطهرتنا صدقتهم.

فإن قيل: فقد رويتم من طريق ابن أبي شيبة، حدثنا أبو الأحوص، عن عكرمة، عن ابن عباس ﷺ قال: «من أدى زكاة ماله فليس عليه جناح أن لا يتصدق».

ومن طريق الحكم عن مقسم عن ابن عباس ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ [الأنعام: ١٤١] نسختها العشر ونصف العشر.

فإن رواية مقسم ساقطة لضعفها.

وأما رواية عكرمة فإنما هي أن لا يتصدق تطوعًا، وهذا صحيح، وأما القيام بالمجهود ففرض ودين وليس صدقة تطوع.

ويقولون: من عطش فخاف الموت ففرض عليه أن يأخذ الماء حيث وجده، وأن يقاتل عليه.

قال أبو محمود: فأي فرق بين ما أباحوا له من القتال على ما يدفع به عن نفسه الموت من العطش، وبين ما منعوه من القتال عن نفسه فيما يدفع به عنها المؤمن الجوع والعري، وهذا خلاف للقرآن والسنة، وللإجماع، والقياس.

قال أبو محمود: ولا يحل لمسلم اضطر أن يأكل ميتة أو لحم وهو يجد طعامًا فيه فضل عن صاحبه لمسلم أو لذمي؛ لأن فرضها فرضًا على صاحب الطعام، إطعام الجائع، فإذا كان ذلك كذلك فليس بمضطر إلى الميتة ولا إلى لحم الخنزير، وبالله تعالى التوفيق.

وله أن يقاتل عن ذلك، فإن قتل فعلى قاتله القود، وإن قتل المانع فإلى لعنة الله؛ لأنه منع حقًا وهو طائفة باغية، قال تعالى: ﴿فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الحجرات: ٩] ، ومانع الحق باغ على أخيه الذي له الحق، وبهذا قاتل أبو بكر الصديق ﷺ مانع الزكاة، وبالله تعالى التوفيق.

هذا هو رأي الإمام ابن حزم رحمه الله في حق الطعام، وحق الجائع في الدفاع عنه، والتمسك به، وقد أعلى الإمام ابن حزم من هذا الحق، لدرجة أنه أباح للجائع قتال من يحوز الطعام ويمنعه عن الجائع متعمدًا حرمانه منه، فإذا أصر هذا على منعه القوت عن المحروم منه وخشي المحروم الهلاك فإن عليه أن يقاتله فإن قتله فإنه (المانع) يكون في لعنة الله، وإن قتل المانع المحروم فعلى القود (يعني الدية) ؛ لأن المانع في هذا الوضع يكون من الطائفة الباغية يعامل معاملتها، ويكون قد منع حقًا شرعه الله سبحانه وتعالى ﴿فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الحجرات: ٩] .

ويقرر هذا الإمام أن سيدنا أبا بكر الصديق ﷺ قاتل مانعي الزكاة بهذا السند القرآني، إذن فإن الإمام ابن حزم يعامل مانع الطعام عن الجائع عمدًا معاملة مانع الزكاة تمامًا بتمام، وبهذا يكون قد أباح لولي الأمر أن يقاتله، بل إنه أباح للمحروم المعرض للهلاك أن يقاتله باعتبار المانع من الطائفة الباغية، ﴿فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الحجرات: ٩] إلى هذا الحد أعلى هذا الفقيه من قدر إطعام الطعام، وحق الطعام للمحروم.

وقد حمل هذا الفقيه في يده اليمنى مصباحًا يضيء الطريق أمام الصالحين من المصلحين، فهو قد سلط ضوء هذا المصباح على النفس البشرية، فكشف على وجه اليقين حقائق تتعلق بنفسية الغني، من الأثرة والأنانية، بالإقبال على إشباع شهواته فقط دون أن ينظر إلى ما يعاني منه الفقير من

حرمان وتجتمع خصاله السلبية من البخل والشح، والنرجسية، مصورة تصويراً دقيقًا حكيمًا، في قوله تعالى في القرآن الكريم في سورة الفجر في الآيتين رقمي (١٥، ١٦) حيث يقول سبحانه وتعالى:

﴿فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ﴾ [الفجر: ١٥، ١٦] ، فهو في حالتي اليسر والعسر لا يذكر إلا نفسه فقط دون غيره، ففي حالة اليسر ينظر إلى نفسه فيرى بمنظار الأنانية أن الله سبحانه وتعالى قد خصّه بالنعمة دون غيره، وتقبل على إشباع غرائزه وعواطفه وشهواته هو وحده ولا يفكر في الآخرين من الفقراء والمساكين والأرامل والأيتام والسائلين والمحرومين، ولا يعرف أن لهم حقًا عليه يفرض عليه الشرع أن يؤديه، وإذا أراد العلماء أن يذكروه بنعمة الله عليه، وبحق هؤلاء عليه، جعل أصبعيه في أذنيه واستغشى ثوبه، وأصر على موقفه واستكبر استكباراً.

وإذا ما ابتلاه بالفقر، وحجب عنه النعمة، فهو كذلك لا يفكر إلا في نفسه ويعتقد أن الله خصه بهذا الحرمان الذي يسبب له الهوان والتهوين، ويسبب له الشعور بالدونية، ولا ينظر إلى هذا الوضع الذي أصبح فيه بمنظار التسليم لله سبحانه وتعالى، وأن هذا الوضع هو امتحان له إن صبر عليه فهو مأجور من الله سبحانه، وعليه أن يفتش في نفسه ويتخلص مما يراه أنه سبب في محنته من خصال ذميمة وأفعال أثيمة. وهذا كله يتطلب منه مراجعة النفس لإلزامها بأحكام الشرع الحنيف والتخلص تمامًا من هوى النفس، والامتثال لأوامر سيدنا رسول الله ﷺ .

ولقد أشار القرآن الكريم بحكمة الله سبحانه وتعالى البالغة في كلمات فيها الحكمة وفصل الخطاب إلى ما ينتاب الإنسان من انفعالات في حالتي اليسر والعسر في الآيات من (١٩ إلى ٢١) من سورة المعارج يقول فيهما

الرحمن الرحيم جل جلاله: ﴿إِنَّ الإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا (١٩) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا (٢٠) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ [المعارج: ١٩-٢١] . ولقد استثنى الله سبحانه وتعالى عباده الصالحين من هذا الحكم، فقال في الآيات من (٢٢-٣٥) حيث يقول سبحانه وتعالى: ﴿إِلاَّ الْمُصَلِّينَ (٢٢) الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلاتِهِمْ دَائِمُونَ (٢٣) وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ (٢٤) لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (٢٥) وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ (٢٦) وَالَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ (٢٧) إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ (٢٨) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (٢٩) إِلاَّ عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٣٠) فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (٣١) وَالَّذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (٣٢) وَالَّذِينَ هُم بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ (٣٣) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٣٤) أُولَٰئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ﴾ [المعارج: ٢٢-٣٥] استثنى الله سبحانه وتعالى هذا الفريق من الناس مما يصيب الإنسان بصفة عامة من سلبيات العواطف والسلوكيات، وعدد مناقبه الكريمة، وصفاته الجميلة وسلوكياته الحميدة التي تؤهله لرضا الله سبحانه وتعالى والفوز بجنات يكون هؤلاء الذين حازوا هذه الصفات وسلكوا هذه السلوكيات في عزة وكرم من فضل الله ونعمته سبحانه وتعالى الرحمن الرحيم الوهاب الكريم.

وحمل هذا الفقيه في يده اليسرى، ناقوس الخطر ينذر المجتمع الإسلامي بالخطر الجسيم الذي يهدد أمنه إذا جاع الفقير والمسكين والأرملة واليتيم وذو الحاجة وابن السبيل، فإنه إذا جاع هؤلاء اشتعلت نار الصراع ودقت الفتنة طبول الحرب الأهلية، والتي إذا تأججت أكلت الأخضر واليابس، وتطاير شررها ليدك العروش وتصدعت القصور والدور، وخرّت السقوف فوق الرءوس، ولم ينج من ويلات هذه الحرب أحد، ويندم من يعيش بعد ذلك ولات ساعة مندم.

إن الفقراء إذا جاعوا لن يأكلوا أنفسهم، ولن يأكلوا أولادهم، فلا منفعة لهم في الحالتين، وإنما سيحاربون هؤلاء الذين يقفون بينهم وبين حقهم في

الطعام والشراب؛ لأنهم بهذا يحولون بينهم وبين حقهم في الحياة. وهم في ذلك يجدون لتبرير هذا الصراع ألف سبب وسبب، ويواجهون الإنسانية بأنهم لم يخلقوا أنفسهم، إنما خلقهم الله سبحانه وتعالى الذي خلق أيضًا الذين يحرمونهم من حقهم في الطعام، الذي هو حقهم في الحياة. وإن الله الذي خلقهم لم يتركهم يقضي عليهم الجوع، وبخل الأغنياء، إنما شرع لهم حقًا في أموال الأغنياء منصوصًا عليه في القرآن الكريم والذكر الكريم بآيات محكمات في أم الكتاب، وفي سنة أشرف الخلق سيدنا محمد ﷺ، فهم في هذه الحالة بين أمرين:

أيمسكون هذا الحرمان من حقهم على هون، وعند ذلك هلاك محقق لهم، يهبّون للدفاع عن حقهم مهما كلفهم ذلك من أرواح يبذلونها في هذا الجهاد؟

وتلوح لهم على هذا الطريق روح خليفة سيدنا رسول الله ﷺ وهو يجرد جيشًا يقوده سيف الله المسلول خالد بن الوليد رضي الله عنه يقاتل مانعي الزكاة وهي حق الله وحق الفقراء والمساكين، فيقضي عليهم ويقضي في الوقت نفسه على شبح الجوع يهدد هؤلاء الفقراء والمساكين، وبذلك يرجع الحق على أصحابه. ألم يقلها سيدنا أبو بكر الصديق صريحة مدوية تهز بدويها الأرض والسماء: (الضعيف فيكم قوي حتى آخذ الحق له، والقوي فيكم ضعيف حتى آخذ الحق منه).

إذن فهي حروب مشروعة، كان المقتول فيها من جيش المسلمين شهيدًا في الجنة، وكان المقتول فيها من مانعي الزكاة كافرًا في النار، وبهذه الحرب أعاد سيدنا أبو بكر الصديق رضي الله عنه وأرضاه للإسلام رونقه وطلاوته، وحافظ على تشريعه وأحكامه، فهو ثاني اثنين بالنسبة لسيدنا رسول الله ﷺ، قلت في كتاب «أبو بكر الصديق وحاجة الإنسانية إليه» في صفحة (١٩٩): «إن سيدنا أبا بكر الصديق رضي الله عنه يعتبر أول من شرع حربًا من أجل حقوق الفقراء والمساكين، وكان بهذا قارئًا متمكنًا لحكم الله عز وجل في قوله

عز من قائل في سورة التوبة آية رقم (٦٠): ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٦٠] .

وقلت في صفحة (١٠٣) من نفس الكتاب: «لقد شهر في وجوه معاني الزكاة سيفًا من سيوف الله اسمه خالد بن الوليد، والذي سمّاه سيدنا رسول الله ﷺ حين قال له:«نعم عبد الله خالد بن الوليد، سيف من سيوف الله».

[صحيح، أخرجه الإمام أحمد (٤٢)، والإمام الترمذي (٣٧٨١)]

«خالد بن الوليد سيف من سيوف الله سله الله على المشركين».

[شواهده في صحيح البخاري، وفيها وصف خالد بأنه سيف من سويف الله، صحيح البخاري (٣٤٧٤)، وقد صحح الشيخ الألباني - رحمه الله تعالى- هذا الحديث].

والذي أريد أن أقوله بعد هذا التحقيق وبعد هذا السرد من أحكام القرآن الكريم والسنة المطهرة والتطبيقات العملية من أقوال الصحابة وأفعالهم.. والوقائع التاريخية هو أن الإسلام والمسلمين هم أول من قرروا حق الطعام للإنسان، ولكل الكائنات الحية، للإنسان كله دون نظر إلى عقيدته أو سلوكه، فهو صاحب الحق في الطعام باعتباره حق الحياة مؤمنًا كان أو كافرًا، له هذا الحق لا ينازعه فيه أحد، ولا يمنعه عنه أحد، بل هو واجب على المسلمين حكامًا كانوا أو محكومين يسألون عنه في الدنيا وفي الآخرة، ويجب عليهم إتاحة الطعام والشراب لكل الناس بلا استثناء، بل يجب إتاحته حتى للحيوان، ويسألون عن ذلك أيضًا في الدنيا، ويوم يقوم الأشهاد.

❁❁❁

مسئولية المجتمع الإسلامي عن تدبير الطعام لكل فم

المقصود بالمجتمع الإسلامي في هذا البحث هو مجموع الشعوب الإسلامية حكامًا ومحكومين، يعني الشعوب الإسلامية والدول الإسلامية.

•• ونبدأ بتحديد مسئولية الشعوب:

مسئولية الشعوب الإسلامية في مواجهة الجوع بتوفير الطعام مسئولية تضامنية يفرضها الإسلام الحنيف في القرآن والسنة، فهما مصدر هذا الالتزام ومصدر التضامن وجوبيًا، لا تطوعًا، ولا تبرعًا فجميع الشعوب الإسلامية ملزمة بمقتضى قواعد الشرع الحنيف ببذل الجهد في استخراج الخيرات الكامنة في بطن الأرض التي يقوم عليها المجتمع الإسلامي بأسره .

• ومصدر الالتزام في القرآن الكريم:

١- قال الله سبحانه وتعالى في سورة المائدة في الآية رقم (٢):

﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: ٢] .

٢- قال الله تعالى في سورة البقرة في الآية رقم (١٧٧):

﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧] .

٣- الآيات من (١٠٢) إلى (١٠٤) من سورة آل عمران تفرض التجمع والتوحد والاتحاد في مواجهة الأزمات، والملمات التي تعترض مسيرة المجتمع الإسلامي، وكذلك مواجهة المحن التي يتقدمها الجوع، يقول الله سبحانه وتعالى

فيها: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٠٢) وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٠٣) وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢-١٠٤].

٤- قول الله سبحانه وتعالى في سورة النساء في الآية (٧٥):

﴿وَمَا لَكُمْ لا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾ [النساء: ٧٥].

٥- قول الله سبحانه وتعالى في سورة التوبة في الآية (٧١، ٧٢):

﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٧١) وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ٧١، ٧٢].

٦- الآية رقم (١٣) من سورة الحجرات يقول الله تعالى فيها:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣].

٧- سورة العصر: ﴿وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [سورة العصر كاملة].

• وأما الأحاديث النبوية الشريفة التي تتعلق بالمسئولية التضامنية في

المجتمع الإسلامي فإني أذكر بعضًا منها تكفي لإثبات هذه المسئولية:

(١) في صحيح البخاري والترمذي رضي الله عنهم:

«مثل القائم على حدود الله، والواقع فيها، كمثل قوم استهموا في سفينة، فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا مرّوا على من فوقهم فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقًا لم نؤذ من فوقنا!! فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعًا».

وفي موضوع البحث تظهر المسئولية التضامنية على عاتق المسلمين في الأحاديث:

«أيما أهل عرصة أصبح فيهم امرؤ جائعًا فقد برئت منهم ذمة الله تبارك وتعالى» [المسند للإمام أحمد، نشر الأستاذ أحمد محمد شاكر، حديث رقم ٤٨٨٠].

(٢) قال سيدنا رسول الله ﷺ:

«مثل المؤمنين في توادهم، وتراحمهم وتعاطفهم، كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى» (سبق تخريجه).

(٣) «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا» (الشيخان).

(٤) عن سيدنا أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

«إن الأشعريين كانوا إذا أرملوا في الغزو أو قل طعام عيالهم جمعوا ما كان عندهم في ثوب واحد، ثم اقتسموه بينهم في إناء واحد بالسوية، فهم مني وأنا منهم».

(٥) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: «بينما نحن في سفر مع النبي ﷺ إذ جاء رجل على راحلة له قال: فجعل يصرف بصره يمينًا وشمالاً، فقال رسول الله ﷺ: «من كان معه فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له، ومن كان له فضل من زاد فليعد به على من لا زاد له» حتى قال راوي الحديث رضي الله عنه: إن رسول الله ﷺ ذكر من أصناف المال ما ذكر

حتى رأينا أنه لا حق لأحد منا في فضل». [صحيح مسلم، كتاب اللقطة، باب استحباب المواساة بفضول الأموال، ج٣/ ١٤٥٣].

٦- حديث قدسي في صحيح مسلم كتاب البر والصلة والأدب، باب فضل عيادة المريض، حديث رقم ٢٥٦٩:

«إن الله عز وجل يقول يوم القيامة: يا ابن آدم!! مرضت ولم تعدني، قال: يارب كيف أعودك وأنت رب العالمين؟ قال: أما علمت أن عبدي فلانًا قد مرض فلم تعده؟ أما أنك لو عدته لوجدتني عنده. ياابن آدم استطعمتك فلم تطعمني، قال: يارب كيف أطعمك وأنت رب العالمين؟ قال: أما علمت أنه استطعمك عبدي فلان فلم تطعمه، أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندي. ياابن آدم استسقيتك فلم تسقني. قال: يارب كيف أسقيك وأنت رب العالمين؟ قال: استسقاك عبدي فلان فلم تسقه، أما علمت أنك لو استسقيته لوجدت ذلك عندي». [صحيح مسلم].

(٧) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال الله عز وجل:

«إنما أتقبل الصلاة ممن تواضع بها لعظمتي، ولم يستطل على خلقي، ولم يبت مصرًا على معصيتي، وقطع النهار في ذكري، ورحم المسكين، وابن السبيل، والأرملة، ورحم المصاب، ذلك نوره كنور الشمس: أكلؤه بعزتي، واستحفظه ملائكتي، اجعل له في الظلمة نورًا، وفي الجهالة حلمًا، ومثله في خلقي كمثل الفردوس في الجنة». [رواه عبد الله بن واقد الحراني، وبقية رواته ثقات].

هذا البيان القرآني في تحديد المسئولية التضامنية التي تثقل كاهل المسلمين على وجه الأرض، وبمقتضاها يلتزم كل المسلمين حكامًا ومحكومين بالعمل مجتمعين على القضاء على الجوع الذي يهدد مجتمع المسلمين بالضياع والهزال والموت تحت أقدام هؤلاء المتآمرين عليه في الشرق والغرب- والغرب بالذات- متحدًا مع الصهيونية، العاملين لتحقيق مصالح مشتركة بينهما، ويعملان في دأب وإصرار يلوثهما حقد دفين، ورغبة ظالمة في تركيب

المجتمع المسلم ليبقى دائمًا سوقًا لهما يجنون بهذا السوق الأرباح الآثمة، والثروات المنتنة في الوقت الذي يعاني مجتمع المسلمين من التخلف.. والجوع والحرمان والعري، وتتفشى فيه الأمراض الفتاكة والأدواء المهلكة (!!!).

وقد ظهرت على سطح الأرض الإسلامية بشاعة هذه المؤامرة الدنيئة فأنت ترى في كل مكان منها صراعًا بين طوائف الشعوب يتطور إلى حرب ضروس يقتل فيها المسلم أخاه المسلم والمتآمران (الغرب والصهيونية) يتابعان جهدهما الآثم في نشاط ودأب يشعلان هذا الصراع ويؤججانه بطريقة خبيثة بإمداد كل من طرفيه بالسلاح والمال ليقوم هذان الطرفان المتصارعان بالقضاء على بعضهما دون أن يخسر المتآمران جنديًا واحدًا، وبهذا يحقق الطرفان المسلمان أهداف عضوي المؤامرة الخبيثة، وغايتهما الدنيئة، ومن المؤسف بأنهما يحملان رسالة السلام والأمن العالمين، ويحملان على عاتقيهما تحقيق آمال المسيح عليه السلام من الحب والسلام!!! هل السلام الذي يريده المسيح عليه السلام لا يتحقق إلا بالقضاء على الإسلام والمسلمين؟

أيها القارئ الكريم: هل تريد دليلاً يقنعك بما أقول؟ وأقرر:

مد بصرك على أرض الإسلام:

١- الدليل الأول: تجد الجوع يقتل الإنسان والحيوان والأطفال في الصومال وفي السودان، وفي فلسطين، وفي العراق، وفي باكستان، وفي أفغانستان، تشترك الحرب الظالمة التي يشنها الغرب على أهلها مع الجوع في قتل الأبرياء من أطفال ونساء، ولا تجد شيئًا من هذا في غير أرض الإسلام!!!

٢- الدليل الثاني على ما قرّره من التآمر ضد الإسلام والمسلمين مؤتمر المنصرين الأمريكيين بولاية كلورادو بأمريكا الشمالية. هذا المؤتمر هو أخطر المؤتمرات المنعقدة من أجل التنصير، جاء ذكره في تقرير علمي كتبه الأستاذ الدكتور محمد عمارة عضو مجمع البحوث الإسلامية، وأصدره الأزهر

الشريف في صورة كتاب مجلة الأزهر، هدية المجلة لشهر ذي الحجة ١٤٣٠هـ وقد قدمه الأستاذ الدكتور من خلال التمهيد قائلاً:

«في مدينة (كلن إير) بولاية كلورادو - بأمريكا الشمالية- عقد المنصرون الأمريكيون - في ١٥ مايو ١٩٧٨م أخطر مؤتمرات التنصير وأكثرها طموحًا، فبعد أن كانت أهداف التنصير - في صفوف المسلمين - هي التنصير بين المسلمين طمحوا - في هذا المؤتمر - إلى تنصير كل المسلمين، وطيّ صفحة الإسلام من الوجود!! وبعد أن كان التنصير - تاريخيًا - مرتبطًا بالغزو الاستعماري الغربي لعالم الإسلام، وبلاد الجنوب ، الأمر الذي ربطه بالاستعمار، وقلل جاذبيته وقبوله، قرر المنصرون في هذا المؤتمر التنصير من خلال اختراق القرآن والثقافة الإسلامية؛ ليكون الإسلام بالعقائد النصرانية، ولتكون مصطلحات القرآن حول كلمة (الله) و(روح الله) أوعية نصب فيها المضامين النصرانية، زاعمين (أن الإسلام هو الدين الوحيد الذي تناقض مصادره الأصلية أسس النصرانية)، وإن النظام الإسلامي هو أكثر الأنظمة الدينية المتناسقة اجتماعيًا وسياسيًا، إنه حركة دينية معادية للنصرانية، مخططة تخطيطًا يفوق قدرة البشر، ونحن بحاجة إلى مئات المراكز تؤسس حول العالم بواسطة النصارى، للتركيز على الإسلام، ليس فقط لخلق فهم أفضل للإسلام، وللتعامل النصراني مع الإسلام، وإنما لتوصيل ذلك الفهم إلى المنصرين، من أجل اختراق الإسلام في صدق ودهاء».

[نقلاً عن: التنصير: خطة لغزو العالم الإسلامي. وثائق المؤتمر، الترجمة العربية، ص٧٥٢، طبعة مركز دراسات العالم الإسلامي، مالطا، ١٩٩١م].

ثم إن المؤتمرين حددوا أهدافهم من وراء هذا الجهد المبذول في هذا المؤتمر، ونسميه بالاسم الصحيح وهو (المؤامرة) في هذه الكلمات:

«إن هدفنا هو غرس المسيح وتعاليمه في الفكر الإسلامي والحياة

الإسلامية، وأن ندعو إلى مسيح متجسد بشكل إسلامي، كي نصل إلى المسلمين، ولذلك فعلينا أن نعطي اهتمامًا خاصًا باستخدام الموضوعات القرآنية ذات الصلة بالتنصير، من مثل كلمة الله، وروح الله، ورفع عيسى إلى الله... والاستفادة من المكانة الجليلة التي يتمتع بها يسوع في الإسلام، لنجعلها نقطة انطلاق لإقناع المسلمين بصحة ما يرويه الإنجيل عنه.

إن المسألة النهائية هي ماهية المفاتيح والحلول التي يمكن أن يقدمها لنا القرآن لزرع الثقة بالإنجيل في العالم الإسلامي.

إن المسلمين بحاجة إلى أن يتم اللقاء بهم داخل إطار الإسلام، وذلك دون أن يكون هناك مكان لمحمد (ﷺ) بجانب المسيح (عليه السلام) .

ويفضل النصارى العرب في عملية التنصير، كما يجب الاعتماد على الكنائس المحلية في تنصير المسلمين، وعلى العمالة الأجنبية، واستغلال الكوارث التي تلجئ البلاد الإسلامية لطلب المساعدات فتجعلها أكثر قبولاً للمنصرين) .

[التنصير خطة لغزو العالم الإسلامي، وثائق المؤتمر، الترجمة العربية ص٧٥٢، طبعة مركز دراسات العالم الإسلامي – مالطا سنة ١٩٩١، ولقد طبعت وثائق هذا المؤتمر بالإنجليزية سنة ١٩٧٨].

كل هذا أوردته نقلاً من (تقرير علمي) للأستاذ الدكتور محمد عمارة عضو مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر الشريف، هدية مجلة الأزهر المجانية لشهر ذي الحجة ١٤٣٠هـ: والسبب في إيرادي هذه المعلومات هو أنني أردت أن أثبت أن الجوع المتفشي في العالم الثالث، وأثار الذعر في مجتمعاته ليس ناتجًا عن نفاذ ثروات هذه المجتمعات الكامنة في أرض أوطانها، ولا ناتجًا عن ضنّ هذه الأرض أن تبوح بما تطويه في أعماقها من هذه الثروات ولا ناتجًا عن إرادة سياسية لهذه المجتمعات أن تظل على حالها ترسف في أغلال الفقر إلى أن تقوم الساعة، إنما الحقيقة هي أن هذا الفقر هو إفقار ولد سفاحًا من لقاء دنس تم بين الصهيونية والإرهاب الغربي لاستخدامه من جانب كل

منهما في إذلال هذه الشعوب بجعلها سوقًا لهما يضعان يديهما الخبيثتين على ثروات هذه الشعوب ، ويلقون لها الفتات الملوثة بصديد الحقد وقيح الجشع ، تتلقفه لتدفع به جائحة الجوع لتبقي عظامها واهنة ، ويموت أطفالها جوعًا ومخمصة ، في الوقت الذي تتوافد على العالم الثالث مجموعات من مندوبيهم يعقدون المؤتمرات على أرض العالم الثالث تندب وتولول من أجل حقوق الإنسان المهددة فيه ، ومن أجل الحريات التي حرمت منها هذه الشعوب ، وهم لا يدرون أن دماء هذه الشعوب على أفواههم ، وأن أصابعهم ملوثة بهذه الدماء التي تصرخ بالشهادة الدامغة على أنهم هم القتلة وليس غيرهم ، وأنهم وحدهم هم الجناة . . الذين ينتهكون حرمة الإنسان ، ويهدرون حقوق الإنسان .

نبؤني أيها القراء:

هل رأيتم أو سمعتم أو قرأتم عن وقاحة كهذه الوقاحة؟ هل قرأتم في التاريخ كله عن قاتل آثم يبكي على القتيل، ويسعى من أجل إعادة الحياة له، أو إعادته إلى الحياة، أرجوكم أيها القراء أن ترددوا معي هذه الحكمة التي قالها أشرف الخلق سيدنا محمد ﷺ :

«إن مما أدركه الناس من عهد النبوة الأولى: إذا لم تستح فافعل ما شئت»

اسألوهم عن الجوع في الصومال وفي السودان، وفي الباكستان، وفي أفغانستان، وفي العراق، وفي المغرب العربي، وفي أثيوبيا، وفي كل البلاد الإسلامية، ستجدون أنكم تسألون القاتل عمن قتل ضحيته!!!

اسألوهم عن هذا الحصار المحكم المفروض على المسلمين جميعًا في بقاع الأرض.. واسألوهم عن هذا الحصار المفروض على شعب فلسطين سواء غزة أو الضفة الغربية، واسألوهم عن هذا الحصار المفروض على سوريا، واسألوهم عن هذا الحصار المفروض على شعوب أفريقيا، وآسيا، وأمريكا اللاتينية، فإن أظهروا العجز عن الإجابة فاطلبوا منهم أن يسألوا مؤتمر

كلورادو الولاية الأمريكية المنعقد في ١٥ مايو ١٩٧٨م، وما سبقه من مؤتمرات روجت لمثل ما انعقد من أجله هذا المؤتمر الخبيث، وما لحقه من اجتماعات ومؤتمرات تهدف إلى نفس أهدافه الدنيئة.

اسألوهم فإنهم سينكسون رءوسهم ويقولون لكم: هل عرفتم الحقيقة؟

إذن فانتظروا ما يحيق بكم من كوارث، وما نوقع بكم من عقوبات، وانتظروا ويلات غضبنا فإنَّا فوقكم قاهرون. عند ذلك ستوقن الشعوب الإسلامية أن ما تعانيه من فقر مدقع إنما هو من صنع الصهاينة ومعهم الضالون المضلون من حكام الغرب، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

فإن جادكم فقولوا لهم: معنا الشهود على ذلك من قادة الفكر فيكم، وهم شهود من أهلكم منهم رجاء جارودي، وهوفمان، وموريس بوكيه، وستجدون شهادتهم تتحد على أنكم ظالمون، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون، إن ما هو واقع في بلاد الإسلام من جوع هو جريمة تجويع يرتكبها الغرب باشتراك مع الصهيونية، والفقر الذي يقتل الإنسان والحيوان والنبات هو جريمة إفقار تقع من الغرب والصهيونية مع سبق الإصرار والترصد.

عندما تملك الشعوب الإسلامية زمام المبادرة سينطلق الاقتصاد في بلد من البلاد الإسلامية، ويعم الرخاء، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله، ينصر من يشاء، وهو القوي العزيز، وهذا ما يتطلب تعاون الدول الإسلامية وتضامنها في مواجهة الفقر وأسبابه.

ما تقدم هو صورة من صورة الموانع التي ينصبها الغرب ومعه الصهيونية متاريس ضد التقدم الاقتصادي للشعوب النامية ومنها طبعًا الشعوب الإسلامية.

ولقد ظهر عداء الغرب والصهيونية للمسلمين بسبب إسلامهم، وظهر معه تربص الغرب والصهيونية بالإسلام والمسلمين عندما تفكك الاتحاد السوفيتي وسقطت الشيوعية، واجتمع أعضاء حلف الأطلنطي، وقرروا جميعًا أنهم قد تخلصوا من عدو كان يستنفرهم، وعلى ذلك أصبحوا ولا داع

لوجود هذا الحلف بعد ذهاب عدوهم وهو الاتحاد السوفيتي، فزعقت بومة قائلة: صحيح تخلصنا من عدو عنيد هو الاتحاد السوفيتي، ولكن هناك عدو لابد من إبقاء الحلف لمواجهته ألا وهو الإسلام، فاستجابوا لهذه الزعقة وأبقوا على حلف الأطلنطي بقصد مواجهة الإسلام!!! فاتخذت جيوش هذه الدول مواقف وضع الحرب لحين يأتيها الإذن بإشعالها.

ومن هذا المنطلق أعلنت إسرائيل الحرب على لبنان، ثم أعلنت الحرب على الفلسطينيين في غزة فحاصرتها وحجبت عنها الطعام والشراب والكهرباء، ولو أنها طاوعت ما لديها من غلٍّ وحسد ثم بعد أن طال حصارها عسكريًا غزتها عسكريًا، بغية كسر شوكتها لتقبل ما تفرضه إسرائيل على أرض الواقع من ذل وإذلال وضلال وتضليل وخسارة وتخسير، ولكن المقاومة الفلسطينية ومعها الشعب الفلسطيني قد صبروا واصطبروا وقاوموا هذا العدوان السافر، وكانت نتيجة الصبر النجاح بإنزال أعلى الخسارة في صفوف الجيش الإسرائيلي، وأثناء الحصار انكشف التفكك العربي بآثاره السيئة، فلم تمتد يد بمعونة لأهالي غزة، ولا حتى لم يرتفع صوت العرب بالنداء بوجوب فك هذا الحصار (!!!).

وقد استلفت هذا النكول من جانبنا نحن العرب عن إعانة أهل غزة نظر أحد دعاة الإصلاح المخلصين وهو الأستاذ محمد سليم العوّا في بحثه القيم (غزة المقاومة والممانعة) ديسمبر ٢٠٠٨ يناير ٢٠٠٩ (مكتبة الشروق الدولية) فقال في صفحة (٦٧):

الموقف المحلي: رأيت صورة أمس، ولم أجدها مرة أخرى، كاميرا إحدى القنوات في غزة تصور بعض العائلات في أحد الأحياء السكنية، وضعوا ملاءة على الأرض، وجلست مجموعة من الرجال والنساء والأطفال، وأتوا بوعاء فيه زيت الزيتون يأكلون معه زعتر بكسر خبز، كان كل منهم يأتي بما عنده ويضعه على الملاءة، ثم جلسوا جميعًا يأكلون بعضهم مع بعض، وعندما تذاكرنا أخي الدكتور محمد هيثم الخياط وأنا هذه الصورة

قلنا في لحظة واحدة اسم حديث من الأحاديث المتفق عليها، حديث أبي موسى الأشعري، أن رسول الله ﷺ قال: «إن الأشعريين كانوا إذا أرملوا في الغزو، أو قل طعام عيالهم بالمدينة، جمعوا ما كان عندهم في ثوب واحد، ثم اقتسموه بينهم في إناء واحد بالسوية، فهم مني وأنا منهم»، والمعاني التي شرح بها العلماء عبارة (فهم مني وأنا منهم) كلها معان سامية جميلة تدل على الفضل الذي ينال هؤلاء القوم، ومن سن سُنَّة هؤلاء القوم كان له مثل فضلهم بإذن الله.

لقد كان الأشعريون قومًا عابدين متبتلين صادقين حتى إنهم اقتسموا اللقيمات بينهم كما يفعل الآن أهل غزة. فلنتذكر ونحن نصنع الموائد العامرة، ونقيم الولائم الكبيرة، ثم نتخلص من بواقي الطعام؛ لأن الثلاجات والمجمدات مليئة بغيره!! لنتذكر أن لنا إخوانًا يقتسمون اللقيمات ونقطة الزيت، وحبات الزعتر؛ لأنهم لا يجدون سواها، ولنتذكر أنه في تراثنا: «ليس منا من بات شبعان وجاره جائع».

أما وقد ذكرنا ذلك فإن لنا أن نتساءل أية دولة عربية في الـ (٢٢) دولة الأعضاء في جامعة الدول العربية، أو أية دولة إسلامية في منظمة المؤتمر الإسلامي، قامت بتقديم الطعام على هذا النحو لأهلنا في غزة؟؟!!

إن كل متقاعس عن مد يد العون والمواساة إلى أهلنا في غزة وهو قادر على ألا يتقاعس يلقي بيده إلى التهلكة مخالفة قول الله تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥] وليس هناك ذريعة تسوّغ أن يقف أحد من القادرين مكتوف اليدين قبل ما يجري لإخواننا في فلسطين، لا ذريعة سياسية، ولا ذريعة عسكرية، ولا ذريعة من المعاهدات الدولية، ولا ذريعة من الخوف والرعب، ولا ذريعة من الرغبة في حماية الآباء للأبناء، أو حماية الأبناء للآباء، كل هذه الذرائع أكاذيب لا تصمد أمام سؤال الله تبارك وتعالى يوم القيامة). انتهى ما نقلته من بحث

الأستاذ الدكتور محمد سليم العوّا (غزة: المقاومة والممانعة ص٦٧،٦٨).

وإني استأذن الأستاذ الجليل محمد سليم العوّا في أن أوجه سؤاله أو تساؤله إلى الراتعين اللاعبين في بلاد الغرب من أمراء دول الخليج بأسرها من حضرموت إلى جدّة والذين تركوا بلادهم وذهبوا إلى بلاد الغرب يشترون نوادي الكرة بمليارات الدولارات والإسترليني، ويشترون لاعبي الكرة من النجوم المتلألئة، ويفتتحون الفضائيات لإذاعة الفسق والفجور بدعوى أنهم يشجعون الفن، ويغرقون القائمين عليها في لجج هذه الدولارات وهذه الإسترلينات بينما بقية الشعوب الإسلامية والعربية ترزح تحت دبابات الفقر ودبابات القتل وسفك الدماء.

أما الشعب المصري فإني أطمئن الأخ الفاضل الدكتور محمد سليم العوّا، فإن تاريخ هذا الشعب القريب والبعيد يشهد له بأنه قضى سنوات هذا التاريخ الطويلة يقتسم اللقيمات مع جميع الشعوب العربية والإسلامية كلما استطاع إلى ذلك سبيلاً، والحمد لله رب العالمين.

ولنا عودة إلى المسئولية التضامنية بين الدول العربية والإسلامية التي تلزم جميع الشعوب الإسلامية والعربية بالتعاون فيما بينها على تحقيق القوة بكافة أنواعها الاقتصادية، والسياسية، والعقائدية على أرض الأمة الإسلامية، وفي سمائها حتى تتبوأ مكانها الرفيع ومكانتها السامية، فتحيا شعوبها في رخاء ورفاهية وفي قوة يحسب لها العالم ألف حساب، كما كانت إلى عهد قريب، وكما يجب أن تكون خير أمة أخرجت للناس، ولننصرف الآن لدراسة موقف كل دولة من الدول العربية ودورها في تحقيق هذا الهدف.

ولنبدأ بالأمة العربية، فإنني أحب الحديث عنها؛ لأنها مقدمة هذه الشعوب، إن نهضت نهضت كلها، وبالله التوفيق.

مصر ومسئوليتها التاريخية في توفير الطعام لكل فم في الوطن العربي

ودور الصدقات في إحياء هذه المسئولية ليعم الخير أرجاء هذا الوطن العربي

مصر في القرآن الكريم

جاء ذكر مصر باسمها الصريح في القرآن الكريم في عدة مواقع تشهد لها بمقومات عظمتها، وعناصر قوتها، وشواهد رغدها، وفضل الله عليها بأن جعلها مصدر سعادة لما حولها من الأقطار، ولمن حولها من سكان هذه الأقطار، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم، وجاء ذكرها أيضًا بكنايات تذكر أجزاء منها من تضاريس كالجبال والسهول والوديان والأنهار، والصحاري، والأماكن التي تجلى الله عليها، وظهرت فيها آياته الدالة على أنه سبحانه وتعالى يحبوها بنعم خاصة، وعناية خاصة، ومظاهر وآلاء تشهد لها بكل ما حباها الله به من مزايا تنفرد بها، وتلفت الأنظار إليها، وتطيب العيش فيها، بحيث يشعر عباد الله الصالحون بأنها مسجد كبير يعبد فيه الله سبحانه وتعالى لا يترك عذرًا لمقصر، ولا يترك عذرًا لجاحد، بل كل ما فيها يغريه بالإيمان، ويحبب إليه طاعة ربه ويحول بينه وبين الشرك بالله، ويباعد بينه وبين الكفر، ويشعره بأن الشرك بالله والكفر به وإنكار نعمه وآلائه هو الظلم العظيم.

أولاً: ذكر مصر بالاسم الصريح:

١ - الآية (٦١) من سورة البقرة يقول الله سبحانه وتعالى فيها:

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ [البقرة: ٦١].

وإن كان هناك خلاف في كتب التفسير فيما يتعلق بلفظ مصر، إلا إني مع الذين يقولون بأن المقصود به هو مصر الوطن الذي يسكنه المصريون بأبعاده الجغرافية من أسوان إلى الإسكندرية، ويجري فيه نهر النيل. لاسيما وأن البصل والثوم اللذين يزرعان وتنتجهما مصر يتفوقان على غيرهما في البلدان الأخرى بمزايا عظيمة تجعل سكان هذه البلدان يتلهفون على نوع البصل ونوع الثوم المنتجين بمصر، ويحرصون على تناوله في الطعام والشراب.

٢- في سورة يونس في الآية رقم (٨٧) يقول الله تعالى فيها:

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٨٧].

٣- في الآية رقم (٢١) من سورة يوسف: يقول الله سبحانه وتعالى:

﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٢١].

ويظهر لي - والله أعلم- أن الله قد اختار مصر وقصر العزيز فيها؛ ليتمكن سيدنا يوسف عليه السلام من تلقي العلم الذي أراده الله له باعتبار أن مصر وقصر العزيز فيها أنسب لهذه المهمة بعيداً عن جو الغيرة والكراهية التي أشاعها إخوته في منزل أبيهم نبي الله يعقوب عليه السلام. وتمكين الله سبحانه وتعالى لنبيه يوسف عليه السلام من الحياة في مصر في قصر العزيز يهيئ له الطمأنينة والهدوء المطلوبين لتلقي العلم والرسالة. والله أعلم.

٤- الآية (٩٩) من سورة يوسف يقول الحق عز وجلّ فيها: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٩].

ويبدو لي والله أعلم أن المقابلة التي تمت بين نبي الله يوسف عليه السلام وأسرته كانت خارج القصر بدليل أنه قال لهم: ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين.

ومن جهة أخرى قد قرن نبي الله يوسف بين مصر والأمن، وهذا كلام نبي ينطق بالحكمة وفصل الخطاب الذي منحه الله إياه، وأخبر به في الآية رقم (٢٢) من السورة، يقول فيها: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٢٢].

وقد صور نبي الله يوسف البيئة التي نشأ فيها والتي صنعها إخوته في الآية رقم (١٠٠) من السورة فقال:

﴿وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [يوسف: ١٠٠].

وواضح من هذه الكلمات أن البيئة التي نزغ الشيطان بينه وبين إخوته فيها أصبحت غير صالحة لأن يتلقى فيها العلم والحكم والرسالة، فاختار له الله سبحانه بمشيئته سبحانه أرض مصر، وفيها قصر العزيز بيئة صالحة لهذا التلقي، وهذا التعليم، وهذه الرسالة من أجل ذلك قال نبي الله يوسف:

﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [يوسف: ١٠٠].

٥- في الآية رقم (٥١) من سورة الزخرف، يقول الله تعالى:

﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الزخرف: ٥١].

وفي هذه الآية يظهر كفر فرعون ومغالاته في ادعاء ما ليس له، والغريب أنه يذكر نعمة الله عليه وهو لا يدري، ثم هو يجحد هذه النعمة، إذ يعتبرها أنها فضل له وليست نعمة من الله عليه، وهذا هو الكفر بعينه قد ظهر في كبر فرعون وغروره، فادعى كذبًا ما ليس له، فقال: ﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ (٢٤) فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤،٢٥].

❁❁❁

مصر في الحديث الشريف

[في صحيح مسلم: بشرح النووي، الجزء الخامس، طبعة دار الشعب، ص(٤٠٥)].

١- اسم مصر الصريح:

٢٢٨- حدثني زهير بن حرب، وعبيد الله بن سعيد قالا: حدثنا وهب بن جرير، حدثنا أبي، سمعت حرملة المصري يحدث عن عبدالرحمن بن شماسة عن أبي بصرة، عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«إنكم ستفتحون مصر، وهي أرض يسمى فيها القيراط، فإذا فتحتموها فأحسنوا إلى أهلها!! فإن لهم ذمة ورحمًا» أو قال: «ذمة وصهرًا». «فإذا رأيت رجلين يختصمان فيها في موضع لبنة فاخرج منها».

قال: فرأيت عبد الرحمن بن شرحبيل بن حسنة وأخاه ربيعة يختصمان في موضع لبنة، فخرجت منها. [باب وصية النبي صلى الله عليه وسلم بأهل مصر].

٢- ذكر مصر بالكناية:

٢٢٧- وصية النبي ﷺ بأهل مصر:

حدثني أبو الطاهر، أخبرنا ابن وهب، أخبرني حرملة، (ح) وحدثني هارون بن سعيد الأيلي، حدثنا ابن وهب، حدثني حرملة (وهو ابن عمران التجيبي) عن عبد الرحمن بن شماسة المهري قال: سمعت أبا ذر رضي الله عنه يقول: قال رسول الله ﷺ:

« إنكم ستفتحون أرضًا يذكر فيها القيراط، فاستوصوا بأهلها خيرًا، فإن لهم ذمة ورحمًا، فإذا رأيتم رجلين يقتتلان في موضع لبنة فاخرج منها» فمر بربيعة وعبد الرحمن ابني شرحبيل بن حسنة يتنازعان في موضع لبنة، فخرج منها. [صحيح مسلم بشرح النووي، طبعة دار الشعب، الجزء ٥، ص٤٠٤].

قال العلماء: «القيراط جزء من أجزاء الدينار والدرهم وغيرهما، وكان أهل مصر يكثرون من استعماله والتكلم به، وأما الذمة فهي الحرمة والحق،

وهي هنا بمعنى الزمام، وأما الرحم فلكون هاجر أم إسماعيل منهم، وأما الصهر فلكون مارية أم إبراهيم منهم.

وفي الحديثين معجزات ظاهرة لسيدنا رسول الله ﷺ : منها: إخباره بأن الأمة تكون لهم قوة وشوكة بعده، بحيث يقهرون العجم والجبابرة. ومنها: إنهم يفتحون مصر. ومنها: تنازع الرجلين في موضع اللبنة، ووقع كل ذلك ولله الحمد. [صحيح مسلم بشرح النووي، الجزء الخامس، طبعة دار الشعب، ص٤٠٤، ٤٠٥].

٣- روى كعب بن مالك، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إذا فتحت مصر فاستوصوا بالقبط خيرًا، فإن لهم رحمًا وذمة**». [رواه الطبراني في معجمه، والحاكم في المستدرك، وقد أخرجه أيضًا ابن عبدالحكم] [فتح مصر ص٢، البلاذري، فتوح البلدان].

٤- كتاب سيدنا رسول الله ﷺ إلى المقوقس صاحب مصر والإسكندرية:

«**بسم الله الرحمن الرحيم: من محمد بن عبد الله ورسوله إلى المقوقس عظيم القبط، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد، فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم القبط ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾** [آل عمران: ٦٤] ».

بعث سيدنا رسول الله ﷺ بهذا الكتاب مع الصحابي الجليل سيدنا حاطب بن أبي بلتعة. فلما دخل عليه قال له: إنه كان قبلك رجل يزعم أنه الربّ الأعلى، فأخذه الله نكال الآخرة والأولى، فانتقم به ثم انتقم منه، فاعتبر بغيرك، ولا يعتبر غيرك بك، فقال: إن لنا دينًا لن ندعه إلا لما هو خير منه، فقال حاطب: ندعوك إلى دين الله، وهو الإسلام، الكافي به الله فَقْدَ ما سواه، إن هذا النبي دعا الناس، فكان أشدهم عليه قريش، وأعداهم اليهود، وأقربهم منه النصارى، ولعمري ما بشارة موسى بعيسى إلا كبشارة عيسى بمحمد صلى

الله عليهم جميعًا وسلم، وما دعاؤنا إياك إلى القرآن إلا كدعائك أهل التوراة للإنجيل، وكل نبي أدرك قومًا فهم منه أمته، فالحق عليهم أن يطيعوه، وأنت ممن أدركه هذا النبي ﷺ، ولسنا ننهاك عن دين المسيح، ولكنا نأمرك به، فقال المقوقس: إني قد نظرت في أمر هذا النبي، فوجدته لا يأمر بمزهود فيه، ولا ينهى عن مرغوب فيه، ولم أجد بالساحر الضال، ولا الكاهن الكاذب، ووجدت معه آية النبوية، بإخراج الخب، والإخبار بالنجوى.

وأخذ كتاب النبي ﷺ وكتب إلى رسول الله ﷺ:

«لمحمد بن عبد الله من المقوقس عظيم القبط، سلام عليك، أما بعد فقد قرأت كتابك وفهمت ما ذكرت فيه، وما تدعو إليه، وقد علمت أن نبيًا يأتي، وكنت أظنه يخرج من الشام، وقد أكرمت رسولك، وبعثت إليك بجاريتين لهما مكان في القبط عظيم، وبكسوة، وأهديت إليك بغلة لتركبها، والسلام عليك».

ولم يزد على هذا، ولم يُسلم، والجاريتان: مارية وسيرين، والبغلة دلدل بقيت إلى زمن معاوية. [زاد المعاد، جزء٢، ص٣٨٧، طبعة دار التقوى].

❀❀❀

مسئولية مصر في توفير الطعام لكل فم مسئولية تاريخية

دور مصر في هذا المجال:

إنني أرشح الصدقات أن يكون لها الدور الرئيسي في هذا المجال في تمويل مشروع الطعام لكل فم في مصر.

المقصود بالصدقات في هذا المجال:

ليس المقصود بالصدقات هو المعنى التقليدي الذي يدور في أذهان البعض من تقديم شيء عيني أو نقدي وانتظار الأجر والثواب في الآخرة، ليس هذا هو المقصود فقط، إنما المقصود بذلك أيضًا أن يقدم شيئًا عينيًا أو

نقديًا للاستثمار بما يعود بالخير على المجتمع كله، مع توقع جني أرباح مادية يجنيها هذا الذي قدّم الشيء نقدًا أو عينيًا .

سيقول الناس: أليس هذا هو الاستثمار الدنيوي بعينه؟ أقول لهم: بلى هو الاستثمار المعروف في الاقتصاد والتجارة، ولكنه بنية صاحبه يمكن أن يتحول إلى صدقة، والإسلام يصدق على هذا، فهناك قاعدة أصولية تفتق عنها الفقه الإسلامي تقول: «العادات بالنيات عبادات» فهذا الإنسان الذي درس واقع بلده، وأبصر بعين الحس وعين البصيرة أزمة الطعام تغشى وطنه وتهدد حاضر البلاد في الرجال والنساء، وفي مستقبلها ، وفي أطفالها بنين وبنات، فيروعه هذا الخطر ويحرك مشاعره الدينية، ويلقي بأمواله في خضم هذه المعركة في صورة مشروع زراعي أو صناعي ينتج الغذاء لهؤلاء جميعًا يصبح وكأنه قدم لله أعظم الصدقات، فيجزيه الله عن ذلك أحسن الجزاء وأوفاه، وينعم برحمة الله سبحانه وتعالى المتدفقة نهرًا فياضًا في آية سورة البقرة رقم (٢٦١) التي يقول الحق سبحانه وتعالى فيها:

﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦١] .

سيقول بعض الناس: إن المقصودين في هذه الآية هم الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتًا من أنفسهم دون أن ينتظروا من وراء ذلك منفعة دنيوية، بينما هؤلاء المستثمرون يضعون الربح أمامهم هدفًا وغاية ينمون به ثرواتهم ويزدادون غنى وثراء، ومن ذوي الملايين أو المليارات.

وأرد على هؤلاء بالآتي:

١- أليس المشرع الحكيم يعاقبهم عندما يكنزون هذه الأموال ولا ينفقونها في سبيل الله؟ وتنطق بهذا الحكم العادل الآيتان (٣٤،٣٥) بقول الله سبحانه وتعالى فيهما: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم

بعذاب أليم (٣٤) يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون﴾ [التوبة: ٣٤،٣٥]

أليست هذه العقوبة الماثلة في الآيتين هي موقعة على الذي يكنز المال؟

إذن فإن العدالة تقتضي أن يكافأ الذي يخرج هذا المال من خزانته ليستثمره في الزراعة والصناعة المنتجين للطعام في أزمته للأسباب الآتية:

١- هو يبذل المرتبات لمن يتعاون معه في إنشاء المشروع، وهذا في الواقع يطهر جزءًا من الأرض من البطالة، ويغدو العاملون معه ويروحون بما يحصلونه من مرتبات يجرونها على أسرهم فيحيون حياة سعيدة.

٢- إنه ينتج الطعام ويوفره للأسر فيغيب الجوع، ويحل الشبع الذي تقوم به الحياة ﴿ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعًا﴾ [المائدة: ٣٢] .

إن الصدقات في هذا المجال تقوم بدور لا تقوم به الزكاة؛ لأن الزكاة حق معلوم محدود موجه للاستهلاك تقريبًا، ولكن الصدقات غير محدودة، فهي حق ولكنها غير محددة المقدار، ويترك تحديدها للضمير المؤمن، ولذلك أسماها الله في بعض الأحيان بمسمى القرض، فقال سبحانه وتعالى في سورة البقرة في آية (٢٤٥):

﴿من ذا الذي يقرض الله قرضًا حسنًا فيضاعفه له أضعافًا كثيرةً والله يقبض ويبصط وإليه ترجعون﴾ [البقرة: ٢٤٥] .

وقال في سورة الحديد في الآية (١١):

﴿من ذا الذي يقرض الله قرضًا حسنًا فيضاعفه له وله أجرٌ كريمٌ﴾ [الحديد: ١١] .

وقال في سورة المزمل في الآية (٢٠): ﴿وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأقرضوا الله قرضًا حسنًا وما تقدموا لأنفسكم من خيرٍ تجدوه عند الله هو خيرًا وأعظم أجرًا واستغفروا الله إن الله غفورٌ رحيمٌ﴾ [المزمل: ٢٠] .

فالصدقات إذا انتظمت تحصيلاً وجمعًا وصرفًا تعطي نفقات المشروعات التي تعالج مشكلة الجوع بمبالغ الضرائب ومبالغ الزكاة.

والشعب المصري شعب معطاء، والسبب في ذلك أنه شعب متدين، والمشروعات العظيمة التي أنشئت في السنوات الأخيرة تشهد على ذلك، ومستشفى الأطفال في كبد القاهرة دليل على ذلك، يتكلم بكل اللغات، وينطق بكل لسان، على أن هذا الشعب لديه ذخيرة من الإيمان تدفعه لأعمال البر والإحسان مما يكفي للقضاء قضاءً تامًا على ظاهرة الجوع التي أصبح الحديث عنها في الصحف والمجلات والتلفاز والمذياع يؤرق أصحاب الضمائر المؤمنة ويقلقهم.

سيقول البعض: إن التغلب على مشكلة الجوع في مصر يلزمه مشروعات كبيرة تتكلف مبالغ كبيرة، وأقول: إن الشعب المصري أكبر، واستعداد الشعب لخوض هذه المعركة أكبر، واستفزاز هذا الشعب شيء بسيط لا تعب فيه ولا نصب. هو فقط يحتاج القدوة الحسنة، ويحتاج الشفافية، وهما لا يوجدان إلا بالإخلاص.

وأقترح لتحصيل الصدقات أن يقع التكاتف والتعاون بين مؤسسة الرئاسة والأزهر الشريف ووزارة التضامن الاجتماعي، ووزارة الإعلام، ووزارة التخطيط، ومؤسسات المجتمع المدني:

١- الأزهر الشريف: يقوم بتجنيد قوافل من العلماء يجوبون البلاد شمالاً وجنوبًا، وشرقًا وغربًا يخاطبون الناس في أماكن تجمعهم في المساجد ودور المناسبات للدعوة لهذا المشروع العظيم، وهو محاربة الجوع والفقر، واعتبار هذه الجهود جهادًا في سبيل الله.

٢- وزارة الأوقاف: تخصص عامًا يطلق عليه عام القضاء على الجوع أو عام مشروعات الخير.

وتجند وزارة الأوقاف علماءها من الخطباء والوعاظ والمفتشين للدعوة لمحاربة الفقر والجوع عن طريق المشروع القومي.

٣- دعوة كل من بابا الأرثوذكس وبابا الكاثوليك لبذل الجهد لتحقيق الهدف نفسه، مع اعتبار أن هذا المشروع هو طوق النجاة لمصر والمصريين.

تعاون القوات المسلحة:

إن قوات مصر المسلحة المظفرة لها دور عظيم ينتظرها لتقوم به من حيث:

١ - تحديد المساحة التي يقوم عليها هذا المشروع العظيم بمعرفتها؛ لأن قرارها في هذا الشأن له الأهمية القصوى، فلا أحد يجهل اختصاصها فيه؛ لأن تحديد المناطق العسكرية، وما يلزم القوات المسلحة للتحرك فيها حفاظًا على الأمن القومي هو من صميم اختصاصها، بل من حقها المسلم لها به.

٢- إنها تملك من الأدوات اللازمة والضرورية لهذا المشروع والتي يتحقق بها نجاحه متوفرة لديها. ونحن نعقد الأمل عليها باعتبارها حارسة الأمن القومي وعُدة الشعب في المحافظة عليه في حالة الحرب، كما أنها معقود عليها الأمل في مساعدة المشروعات التي تتعلق بالأمن الغذائي في حالة السلم.

❁❁❁

أرض هذا المشروع القومي (سيناء)

وقبل أن نذكر ما قاله البشر في حق سيناء علينا أن نذكر ما قاله الله خالق البشر، وخالق الأرض والسماء.

سيناء في القرآن الكريم:

نذكر السياق الذي ذكرت فيه سيناء من سورة المؤمنون من الآية (١٨-٢٠) يقول الله تعالى فيها: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِ جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَّكُمْ فِيهَا

فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ تَنبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ﴾ [المؤمنون: ١٨-٢٠] .

تفسير هذه الآيات : من تفسير ابن كثير: الجزء (٣) (ص٢٤٢-٢٤٣): «يذكر الله تعالى نعمه على عبيده التي لا تعد ولا تُحْصى، في إنزاله القطر من السماء بقدر، أي بحسب الحاجة، لا كثيراً فيفسد الأرض والعمران، ولا قليلاً فلا يكفي الزروع والثمار، بل بقدر الحاجة إليه من السقي والشرب والانتفاع به حتى إن الأراضي التي تحتاج ماءً كثيراً لزرعها ولا تحتمل دمنتها إنزال المطر عليها، يسوق إليها الماء من بلاد أخرى كما في أرض مصر، ويقال لها الأرض الجرز يسوق الله إليها ماء النيل معه طين أحمر يجترفه من بلاد الحبشة في زمان أمطارها، فيأتي الماء يحمل طينًا أحمر فيسقي أرض مصر، ويقر الطين على أرضهم ليزرعوا فيه؛ لأن أرضهم سباخ، يغلب عليها الرمال، فسبحان اللطيف الخبير الرحيم الغفور، وقوله: ﴿فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: جعلنا الماء إذا نزل من السحاب يخلد في الأرض، وجعلنا في الأرض قابلية له، وتشربه ويتغذى به ما فيها من الحب والنوى. وقوله: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ﴾ أي: لو شئنا أن لا تمطر لفعلنا، ولو شئنا لجعلناه أجاجًا لا ينتفع به لشرب ولا لسقي لفعلنا، ولو شئنا لجعلناه لا ينزل في الأرض، بل ينجرّ على وجهها لفعلنا، ولو شئنا لجعلناه إذا نزل فيها يغور إلى مدى لا تصلون إليه، ولا تنتفعون به لفعلنا، ولكن بلطفه ورحمته ينزل عليكم الماء من السحاب عذبًا فراتًا زلالاً فليسكنه في الأرض، ويسلكه ينابيع في الأرض، فيفتح العيون والأنهار، ويسقي به الزروع والثمار تشربون منه ودوابكم وأنعامكم وتغتسلون منه، وتتطهرون منه، فله الحمد والمنة.

﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ﴾ يعني الزيتونة، والطور هو الجبل، وقال بعضهم: إنهم يسمى طوراً إذا كان فيه شجر، فإن عري منها سمي جبلاً لا طوراً، والله أعلم. وطور سيناء هو طور سنين، وهو الجبل الذي كلم الله عليه

موسى بن عمران عليه السلام وما حوله من الجبال التي فيها شجر الزيتون، وقوله: ﴿تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ﴾، قال بعضهم الباء زائدة، وتقديره تنبت الدهن. ولهذا قال: ﴿وَصِبْغٍ﴾ أي أدم، قال قتادة ﴿لِّلآكِلِينَ﴾: أي فيما ينتفع به من الدهن والاصطباغ. قال الإمام أحمد رحمه الله، عن ابن ربيعة الأنصاري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كلوا الزيت وادهنوا به، فإنه من شجرة مباركة» انتهى ما نقلته من تفسير ابن كثير والحمد لله.

وقد جاء في تفسير زهرة التفاسير لشيخنا الجليل الإمام محمد أبو زهرة رحمه الله رحمة واسعة، في الجزء (١٠)، (ص٥٠٦٠) ما يأتي:

«وإن ذكر طور سيناء منسوبة إليها شجرة الزيتون لتوجيه عقول المسلمين إليها، إذ الزيتون شجرته في كثير من أرض الله تعالى، وقد وصف الله تعالى شجرة الزيتون بقوله: ﴿تَنبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلآكِلِينَ﴾ أي: تنبت هذه الشجرة المباركة مصاحبة للدهن، أي تنبت وقد أودعها الله تعالى الدهن، وأن الذي ينبت هو أخشاب الشجرة، ولكن لأن الدهن خلقه الله تعالى فيها وتفيض به جعلت كأنها أنبتت الدهن ذاته، أو أن الدهن ينبت من أشجارها والدهن هو الزيت، وإن فيه شفاء للناس، وقد وصف الله تعالى شجرته بأنها مباركة، فقال تعالى في سورة النور: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٣٥].

والصبغ: وهو إدام الطعام، وإنه يؤخذ من زيتون الشجرة إذا لم يعصر زيته إدام للطعام، يسهل تناوله، وذكر سبحانه بعد ذلك نعم الله تعالى التي تجيء ثمرة للنبات الذي أنتجه الله تعالى بالماء» انتهى ما نقلته من كتاب (زهرة التفاسير) لشيخنا الجليل الإمام محمد أبو زهرة.

سيناء في ضمير المصريين:

في قلوب المصريين جميعًا تقع شبه جزيرة سيناء قبل أن تقع في موقعها الجغرافي على أرض مصر المحروسة.

وفي وصف سيناء الهيكل العام بين الشكل والموقع يقول العالم الجليل الدكتور جمال حمدان عاشق مصر وعالمها النحرير رحمه الله رحمة واسعة في سفره الضخم (شخصية مصر) في الجزء الأول (صفحة ٥٣٩):

«سيناء ٦١ ألف كيلو متر مربع، حوالي ٦٪ أو (١ ÷ ١٦) من مساحة مصر، أو نحو (٣) أمثال الدلتا، تبدو على الخريطة كمثلث منتظم بدرجة أو بأخرى، ارتفاعه من رأس برون حتى رأس محمد نحو ٣٨٠-٣٩٠كم، وأقصى عرضه بين السويس والعقبة نحو ٢١٠كم، أي أن طوله نحو ضعف عرضه إلا قليلاً، قل بالأرقام المدورة ٤٠٠، ٢٠٠ كم على الترتيب لعل الأدق لهذا أن نقول: مثلثًا مائلاً قليلاً في الجنوب، يرتكز على قاعدة عريضة كالمستطيل تقريبًا في الشمال المستطيل الشمالي أو (شمال سيناء)، أضلاعه قناة السويس غربًا، والحدود السياسية مع فلسطين شرقًا، ثم ساحل المتوسط شمالاً، وأخيرًا الخط المائل بين رأس خليجي السويس والعقبة جنوبًا، أو قل تجاوزًا خط عرض ٣٠ درجة، ومتوسط طول هذا المستطيل نحو ٢٠٠-٢١٠كم، وعرضه ثلثا ذلك تقريبًا، أي نحو ١٥٠كم، أما المثلث الجنوبي أو جنوب سيناء فرأسه عند رأس محمد جنوب خط عرض ٢٨ْ بقليل، وارتفاعه زهاء ٢٣٠كم، أما ضلعاه فخليجا السويس والعقبة، الأول طوله ٢٧٥كم، والثاني ١٨٠كم.

بهذا الشكل تبدو سيناء، بكتلتها المندمجة المكتنزة كثقل معلق أو كسلة مدلاة على كتف مصر الشرقي في أقصى الشمال لا تلتحم بها إلا بواسطة برزخ السويس، ولقد ألفنا لذلك أن ننظر إلى سيناء على أنها تمثل أقصى

شمال شرق مصر. وهذا صحيح أساسًا بالطبع، ولكن مع تصحيحين ثانويين، فلأنها أكثر طولاً منها عرضًا نجد ثمة مفارقتين مثيرتين:

فأولاً: رغم أنها من أكثر أجزاء مصر امتدادًا وتطرفًا نحو الشرق، إلا أنها ليست الأكثر في هذا المضمار، فهذا الموقع إنما يذهب كما رأينا إلى منطقة علية في أقصى جنوب الصحراء الشرقية، فأقصى نقطة شرقية في سيناء عند رأس خليج العقبة تقع على خط طول ٣٥ شرقًا، بينما تتجاوز منطقة عليه خط ٣٧ شرقًا .

ثانيًا: فرغم أنها من أكثر أجزاء مصر شمالية وتمددًا نحو الشمال، إلا أننا قليلاً ما نذكر أنها أيضًا بالغة التعمق نحو الجنوب أكثر بالتأكيد مما نتصور، فبينما هي تبدأ من ساحل مصر الشمالي حوالي خط عرض ٥ ,٣١ْ إذ بها تنتهي عند رأس محمد بعد خط ٢٨ْ تقريبًا على عروض ملوي في وسط محافظة أسيوط. أي أنها تتعمق حتى عروض قلب الصعيد الأوسط، وأنت عند رأس محمد تكون أقرب إلى قنا وثنية قنا منك إلى القاهرة ورأس الدلتا، وذلك بأي الطرق البحرية أو البرية المطروقة.

وبعبارة أخرى فإن سيناء تترامى عبر نحو ٥ ,٣ درجات عرضية، لتبلغ بذلك أكثر من ثلث امتداد أو عمق مصر من الشمال إلى الجنوب، وبالاختصار الشديد سيناء (١ على ١٦) من مساحة مصر، ولكنها أكثر من (ثلث) مصر عمقًا. [شخصية مصر، جمال حمدان، الجزء الأول ص٥٣٩-٥٤٠].

حوافز تحتم الاهتمام بسيناء واستثارتها لتكون ركيزة اقتصادية في أقصى ما تكون من الأهمية:

أولاً: يشهد كل من التاريخ والجغرافيا في وقت واحد بأن سيناء بوابة مصر الشرقية: منذ عهد الفراعنة كان الغزاة المتدفقون من الشمال يهاجمون مصر مقتحمين هذه البوابة الشرقية سيناء، مما حفز ملوك مصر القديمة إلى

الاهتمام بها، وإقامة معسكرات مستديمة من الجيوش المصرية لحراسة هذه المنطقة الاستراتيجية، والدفاع عنها باعتبارها خط الدفاع الأول عن مصر.

وقد شهدت أرض سيناء جيش الإسلام بقيادة عمرو بن العاص يدخل مصر لطرد الروم المحتلين ونشر الإسلام بين المصريين مع احترام الأديان الأخرى، وبكل أسف فإن التاريخ الحديث شهد هجوم إسرائيل على مصر عدة مرات كانت إسرائيل في كل منها تقتحم مصر قادمة من سيناء.

ثانيًا: إن إسرائيل حتى هذا التاريخ لم ترسم حدودها، فقط رسمت خريطة علقتها على جدران الكنيست تقول: إن مملكتها العزبية من النيل إلى الفرات وحتى يومنا هذا، فإن سيناء ليست بعيدة عن الأبعاد الأربعة للصراع العربي الإسرائيلي، مما يلزم شعب مصر بأن يتحرك لبناء قرى داخل سيناء تستوعب عشرة ملايين نسمة على الأقل، مما يشكل حاجزًا بشريًا يصد التمدد الإسرائيلي الذي يتسرب (من تحت لتحت) بالخبث الصهيوني المعروف.

ولن يتأتى ترحيل هذه الملايين من الشعب المصري لأراضي سيناء إلا بزراعتها وإقامة مشاريع اقتصادية قوامها الزراعة أولاً، وثانيًا، وثالثًا، ثم تقوم الصناعة بدورها لتكمل السد المنيع الذي يحجم الحلم الصهيوني ويحبطه.

❁❁❁

عودة الفأس والمغزل

إن مصر بلد زراعي من الدرجة الأولى، وشعب مصر شعب زراعي من الدرجة الأولى، أراد الله لهما ذلك، فمنذ أن أجرى بأرض مصر نهر النيل إن مصر بدون نهر النيل هي أرض جرز، وإن من آيات الله أنه يحيي هذه الأرض بالماء، قال سبحانه وتعالى في سورة السجدة في الآية رقم (٢٧): ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ [السجدة: ٢٧]. لدرجة أن هيرودوت المؤرخ اليوناني قال: «إن مصر هبة النيل».

وللأسف إننا في هذه الأيام نشهد غيابًا للفلاح، وغيابًا للقرية التي هي الدعامة الأولى في بناء حضارتنا، وهي النافذة المضيئة لخروجنا من هذه الأزمة المحيطة بنا.

أزمة الأرض:

الأرض في مصر أصبحت مريضة عليلة مجهدة، وأصبحت غير قادرة، ولا أقول عاجزة عن إخراج الزرع والثمار. والسبب الحقيقي هو غياب الطمي- الغرين- الذي كان يحمله النيل ثلاثة أشهر هي يوليه وأغسطس وسبتمبر يجدد شباب التربة، ويعطيها الخصب والنماء، وهو الآن محجوب وراء السد العالي، تاركًا الأراضي الزراعية تعاني الضعف والمرض، وتشكو حالها لله الذي ينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام.

إن حجب الطمي عن أرض مصر الزراعية يقع في قائمة سلبيات السد العالي، يقول الدكتور رشدي سعيد في كتابه «نهر النيل» الطبعة الثانية (دار الهلال) (ص٢٦٢) ما أنقله بالحرف الواحد:

«يحجز السد العالي الطمي الذي كان يحمله النهر كل عام مع الفيضان، ويمنعه من الوصول إلى أرض مصر الزراعية أو إلى البحر الأبيض، فمنذ عام ١٩٦٤م عندما بدأ حجر المياه وراء السدّ، بدأ هذا الطمي في الترسيب في بحيرة ناصر، وفي ملء ذلك النطاق من الخزان الذي كان مخصصًا له والمسمى بالمخزون الميت، والذي ينتظر أن يملأ لتمامه في غضون أربعمائة عام، وقد أظهرت الدراسات الميدانية أن الطمي الذي دخل البحيرة لم يوزع بانتظام على طول قاعها كما كان متوقعًا، بل تكدس معظمه عند مدخلها عند موقع الشلال الثاني حول مدينة وادي حلفا القديمة، حيث بلغ سمكه حتى عام ١٩٧٧ حوالي ٢٥ مترًا، ويقل سمك عمود الطمي تدريجيًا ناحية الشمال حتى يصبح أقل من المتر عند أبو سمبل، ثم يكاد ينعدم وجود الطمي أصلاً إلى الشمال من تلك النقطة. ومما يلفت النظر أن منسوب الطمي قد وصل في

أجزاء كثيرة من حبس الشلال الثاني إلى منسوب أعلى من منسوب التخزين، وارتفع عنه، وكوّن جزراً منعزلة انتشرت على طول هذا الحبس، وطبقًا لدراسات هيئة السدّ العالي، فإن مكان ترسيب الطمي يتقدم عامًا بعد آخر ناحية الشمال، وتقدر جملة الرواسب التي تراكمت في الفترة بين ١٩٧٨م وسنة ١٩٩٠م بحوالي ١٤١٨ مليون متر مكعب، أي بمعدل (١٠٩) ملايين متر مكعب في السنة.

وقد سبب حجز الرواسب في بحيرة السد وصول المياه إلى مصر وهي رائقة، ودون رواسب عالقة، وكان لهذا التغيير الملحوظ في دجيم النهر أثره في تشكيل مجرى النهر، فقد أصبحت للمياه الآن قدرة أكبر على نحر مجرى النهر وجوانبه، بعد أن انطلقت منها تلك الطاقة التي كانت تتبدد في نقل الرواسب التي كانت تحملها، وقد اختلف تقدير الفنيين لمقدار النحر المنتظر، ولما كان معدل النحر يتزايد طرديًا مع كمية الماء التي يحملها النهر، فقد تقرر ألا يطلق من الخزان إلا كمية المياه التي لا تسبب نحراً ملحوظًا، في مجرى النهر، وتعمق مجراه تحت أساساتها بصورة كبيرة، وقد أدت سياسة التحكم في كمية المياه الداخلة إلى مصر إلى الإقلال من هذا الخطر، فمنذ ١٩٦٦م عمق النهر مجراه إلى الإقلال من هذا الخطر، فمنذ سنة ١٩٦٦م عمق النهر مجراه بما لا يزيد عن ٢,٢ سنتيمتر سنويًا في الحبس ما بين أسوان وإسنا (١١٧كم)، و٣ سنتيمترات سنويًا في الحبس بين إسنا ونجع حمادي (١٩٤كم)، و٢,٥ سنتيمتر سنويًا بين نجع حمادي وأسيوط (١٦٨كم)، وأقل من نصف سنتيمتر سنويًا بين أسيوط والقاهرة (٣٥١) كيلو متر.

وبالنسبة لمشكلة منع الطمي يقول الدكتور رشدي سعيد في صفحة (٦٤):

«وقبل بناء السد العالي كان هناك الكثيرون الذين يعتقدون أن منع وصول الطمي إلى أراضي مصر سيقلل من خصوبتها، وربما كان لهذا الخوف بعض الصحة في حالة الأراضي التي كانت تروى بالحياض حتى ١٩٦٥م

بالصعيد (٠٠٠ , ٨٠٠فدان) والتي كان يصلها معظم الطمي، ولكنه لا يصدق على باقي الأرض الزراعية التي كانت تروى مدة طويلة ريًا مستديمًا، فهذه لم يكن يصلها إلا أقل القليل من رواسب النهر.

إن جملة ما يحمله النهر من رواسب هو في ١١٠ ملايين طن يأتي أكثر من ٩٣٪ منها في شهري أغسطس وسبتمبر من كل عام، كانت بعد إدخال الري المستديم تندفع في معظمها إلى البحر الأبيض المتوسط، ولا يصل الحياض التي كانت باقية في أوائل الستينيات أكثر من ٢٠٪ من جملتها، ولم يكن بهذه الكمية الضئيلة من الطمي إلا كمية صغيرة من النتروجين (١٣,٪) من جملة وزنها.

وكان لتوقف وصول الطمي إلى أراضي الحياض أثره على صناعة الطوب في مصر، فقد حرم هذه الصناعة من خامتها الأساسية، مما اضطر أصحاب هذه المصانع إلى تجريف الأرض الزراعية مما أدى إلى إتلاف ما لا يقل عن ٠٠٠ , ٣٠٠ فدان من الأراضي الزراعية». [انتهى ما نقلته من كتاب الدكتور رشدي سعيد، نهر النيل].

وما ذكره في شأن حرمان التربة في مصر من الغرين (الطمي) يجافي الحقيقة، ذلك لأن هذه التربة قد أجهدت وضعفت وأصبحت غير قادرة على إنبات الزرع، وذلك لسببين:

أولاً: السبب الجوهري، وهو فقدانها للغرين (الطمي).

ثانيًا: وسبب عارض هو اعتمادها الكلي على الكيماويات سواء في تسميد الأرض أو مقاومة الآفات بالمبيدات الكيماوية، والتركيز عليها في هذا الشأن.

ثالثًا: وسبب متفرع هو اختفاء الطيور صديقة الفلاح (الغراب وأبو قردان والهدهد)، فقد كانت هذه الطيور تخلص الأرض والفلاح من هؤلاء الحشرات الأعداء بدون حاجة إلى المبيدات الكيماوية.

رابعًا: أن السد العالي باحتجازه الماء خلفه لم يمنع تسرب هذا الماء خلال المسام الأرضية، إن صح هذا التعبير، مما أصاب التربة بالتطبل، الناتج عن غزارة المياه الجوفية، وهذا يصيب النبات بالأمراض والعلل، ويفقده الكثير من قيمته الغذائية.

خامسًا: حجب السد العالي عن الأراضي الزراعية في سائر أنحاء القطر المصري القدر الكافي من ماء الري الذي يجري في عروق هذه الزراعات فيثير فيها الحياة والنضج، وذلك في حالة غياب الرقابة الزراعية، مما يهدد بانهيار الزراعة وقلة الناتج.

ولقد ترتب على كل ذلك انفصام العلاقة بين الفلاح والأرض، فقد أصيب هذا الفلاح الذي كان بالأمس يحوز إعجاب العالم بأسره، وثقة أهل العلم من علماء الزراعة، أصيب بنكسة الإحباط الذي ساقه إلى كراهية مهنة الفلاح، وعدم الرضا عن العائد عليه من هذه المهنة التي أصبحت غير مجدية وغير مرضية، فهو الآن يستغيث لإنقاذه من هول ما يعانيه من فقر، ومن دين يطارد بالهم بالليل، وبالمذلة بالنهار، وقد دفع هذه الحكومة إلى جدولة الديون المتراكمة على أم رأسه مرة، وإلى إقالته منها مرة أخرى، وهذا ما لم يحدث أبد الدهر.

العلاج:

في هذه المرحلة التي تمر بها البلاد فلابد من سحب الطمي من البحيرة بأي وسيلة كانت، ولاسيما وأن العلم في هذا العصر أثبت أنه يقدم للإنسان المعاصر حلولاً لكل ما يعترضه من مشاكل.

إن مصر لا تخلو من رجال من بين أبنائها البررة من العلماء النجباء الذين تتوافر فيهم الخبرة والحكمة والعلم بجانب الإخلاص ونكران الذات، ويستطيعون بإذن الله أن يقدموا الدراسات العلمية اللازمة لتوصيل الطمي إلى الأرض الزراعية، فإن في ذلك إعادة لشبابها لتتمكن من إنبات من كل زوج بهيج.

إن الطمي للأرض العنصر الفعال في التربة في وجود الخصب والنماء، وفي عدم وجود القحل والجدب والفناء.

إن الأرض الزراعية بحالتها الماثلة تنذر بالشر الوبيل، شر الجوع الذي يدق أجراس الخطر عندما يفرغ الصبر، ويهب جيش الجياع يحطم الأسوار.

إن الثورة الفرنسية لم تقم برغبة الحصول على الذهب والفضة، بل قامت من أجل الحصول على الخبز والملح، فاعتبروا ياأولي الأبصار.

ولنا في تجارب الأمم من حولنا دروس يجب أن نستفيد منها، وعبرة يجب أن نعتظ بها، لا أقول أن نقلدها تقليدًا بغير تعرف، فلكل شعب ظروفه الخاصة، ولكني أقول بدراسة تجارب هذه الشعوب، فما كان فيه نفع لنا فلنسلك طريقه، وما لا يناسبنا فلنعرض عنه إلى ما يتلاءم مع مرحلتنا التي نمر بها، ويعود علينا بالنفع للخروج من هذه الأزمة التي نعاني منها جميعًا، وبالله سبحانه وتعالى التوفيق.

لقد وقع في يدي كتاب من سلسلة عالم المعرفة التي يصدرها في مطلع كل شهر ميلادي المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب بدولة الكويت، وهذا الكتاب يحمل رقم (٣٥٩) يناير سنة ٢٠٠٩، ويحمل اسم (الفيل والتنين) صعود الهند والصين، ودلالة ذلك لنا جميعًا. تأليف «روبين ميرديث»، ترجمة شوقي جلال.

وهذا الكتاب كما يقدم نفسه في المقدمة:

«هذا الكتاب إجمالاً رؤية أمريكية ديمقراطية كاشفة عن السياسة المحتملة للولايات المتحدة بعد نجاح أوباما، وينوه عن الأزمة المالية العالمية التي اندلعت شرارتها في الولايات المتحدة، وعصفت بالعالم، وصورة واقعية عن العولمة في التطبيق تتهاوى الحدود القومية، ولكن فقط لحرية حركة رأس المال الاحتكاري العالمي الذي وسع من إفقار البلدان النامية، وصورة لمنهج استجابة الصين والهند للعولمة ليظهر عملاقان على الساحة الاقتصادية العالمية إلى

جانب الولايات المتحدة، وليمثل تطورهما إعصاراً آخر يغير من بنية المنظومة العالمية، وتصبح المنافسة والصراع والشراكة عالميًا بين القمم القوى الثلاث» يكفيني هذا بالتعريف بالكتاب.

وانتقل إلى تجربتي الصين والهند على طريق الإصلاح لعلنا نستفيد.

وأقول من الآن: إن ما تملكه مصر من ثروات في باطن الأرض وعلى سطح هذه الأرض يكفيها للإصلاح المنشود، وعندما تتوفر الإرادة الشعبية لسلوك طريق الإصلاح ستجني مصر استقلالاً اقتصاديًا، وتجني معه ازدهاراً يتفوق على الازدهار الذي جنته كل من الصين والهند.

مازلت عند يميني الذي أقسمت فيه بالله على أن مصر المحروسة في أحضانها ثروات تكفي شعبها حتى لو بلغ تعداد هذا الشعب (سبعمائة مليون نسمة)، وسنرى في ذلك: الآيتين القرآنيتين رقمي (٩،١٠) من سورة فصلت يقول الله سبحانه وتعالى فيهما:

﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٩) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ (١٠) ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (١١) فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [فصلت: ١٢].

إن الله سبحانه وتعالى الحكيم الخبير عندما خلق الكون والأرض ضمن هذا الكون لم يكن في حاجة إلى وزير أو مستشار أو جيش من أهل المعرفة والعلوم قال سبحانه وتعالى في سورة الكهف في الآية رقم (٥١):

﴿مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ [الكهف: ٥١] . وكذلك إن الله ليس في حاجة إلى من يدبر معه رزق عباده، فهو وحده المدبر الذي يقول في محكم كتابه في الآيتين رقمي (٥،٦) من

سورة السجدة: ﴿يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ۝ ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [السجدة: ٥، ٦].

وهو سبحانه وتعالى القائل في سورة الذاريات من (٥٦-٥٨):

﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ۝ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٦-٥٨].

فقط المطلوب من الناس جميعًا تنفيذ أمر الله سبحانه وتعالى وحكمه في هذه الآية رقم (١٥) من سورة الملك: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥].

وفي تجربة الصين والهند لم يفعل الشعبان سوى أنهما مشوا في مناكب أرضيهما وأكلا من رزق الله.

وقد لخص الكتاب المذكور قصة نجاح التجربتين في سطرين اثنين:

ففي صفحة (١٧): «بحلول العام ٢٠٠٣ تجاوز ٨٧ في المائة من الصينيين خط الفقر المقدر بدولار في اليوم، بينما لم يتجاوز سوى (٦٩) في المائة من الهنود حد الفقر».

وفي صفحة (١٨) نجد النتيجة تحركها في: «وهاهنا قصة تحكي كيف تغير الهند والصين مصيرهما، وكيف يغيرن بفضل هذا كله مصير العالم، فبينما تنتقلان من بين صفوف بلدان العالم النامي لتحتلا موقع القوى العظمى، نجد الهند تتحرك ببطء، ولكن في ثبات مطرد، على عكس الصين التي تصعد بسرعة الصاروخ.

وفي (ص٢٢) يقول الكتاب: يحاول هذا الكتاب جاهدًا مساعدة القارئ على فهم كيف يتشكل عالمنا الآن من جديد نتيجة صعود الهند والصين، هذان البلدان بتأثيراتهما المحتملة على مدى العقود المقبلة والتي يخافها البعض أو يقلل من تقليرها، ومن ثم فإن كتاب الفيل والتنين سوف يبين أن سائر العالم بوسعه أن يوفق أوضاعه مع صعود الهند والصين» إنتهى.

مصر تملك أسبابًا للنهضة
تجعل في استطاعتها أن تشترك في إدارة شئون العالم

الركيزة الأولى: شبه جزيرة سيناء:

في النشاط الزراعي: الثروة الزراعية: التخطيط أساس النجاح:

يقول الأستاذ الدكتور جمال حمدان (شخصية مصر، جـ١، ص٥٤٣):

«وهاهنا يأتي دور التخطيط القومي الواعي الفاعل كمذيب للعزلة، فبعد درس العدوان الإسرائيلي المتكرر وتجربة احتلال العدو النفسية، أصبح ربط سيناء بالوطن الأم ودمجها في كيانه العضوي وإدخالها في دائرته الكهربائية والحيوية والحياتية البديهية لأولية البقاء، والمواصلات، والتصنيع، والزراعة، والتعمير، هي أدوات هذا التخطيط الحضاري الرئيسية» انتهى.

الزراعة: هي السبيل الأمثل لجذب السكان وتكثيف العنصر البشري في شبه جزيرة سيناء، حيث كان خلوها منه يجعل غزو مصر من السهولة بمكان، لذلك يتعين أن تنشأ بها قرى تزداد فيها الكثافة السكانية، وهي التي تمثل أعظم جدار عازل لحماية مصر من العدوان، لاسيما وأن إسرائيل لم ترسم حدودها حتى الآن، ولا يستطيع أي إنسان أن يأمن نشاطها الإجرامي بعد أن حذر الله من غدرها بالعهود في قوله سبحانه وتعالى في الآية رقم (١٠٠):

﴿أَوَ كُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ١٠٠].

والمشاهد الآن أنهم يعيدون إلى الأذهان مجازر دير ياسين، ودير البلح، وجنين بما يفعلونه في القدس الشريف من هدم المباني وقتل البشر وتجريف الأراضي وإتلاف الزروع، ومنهم من هدد بنسف السد العالي. كل هذا يحفزنا لتعجيل المشروعات الزراعية لتوفر الغذاء الذي هو العنصر المؤثر في نقل السكان من الوادي إلى أرض سيناء.

في السابق فمثل هذا منطق تبرير سقيم فجّ ومُعْوجّ إلى القلب لا مراء.

بالمثل أزمة خامة الطوب التي تفاقمت حتى وصلت إلى حد تجريف التربة الزراعية نفسها، يمكن حلها كما هو الاتجاه العالمي الحديث، بدائل الطوب الرملي والطفلي، وكذلك الحجر، وكلها خامات متوافرة في مواضع عديدة مناسبة على امتداد جانبي الوادي، وأطراف الصحراء، بل إن البعض يعتبر طمي النيل عبء على صناعة الطوب في مصر مثلما هو على الزراعة المصرية، حيث إن الطوب الطفلي والرملي يفضل الطوب الطيني قوة وتحملاً، ولقد بدأ بالفعل إنشاء عدة مصانع لإنتاج الطوب الرملي والطفلي، فضلاً عن المساكن الجاهزة، كذلك تبين إمكانية استغلال طمي شواطئ بحيرة ناصر العليا في تصنيع الطوب الأحمر وتصديره إلى الوادي».

هل يمكن استعادة الطمي؟

حسنًا وماذا بعد أن قيل وعمل كل ما يمكن أن يقال ويعمل، ففي شأن الآثار الجانبية وحلولها الجزئية؟ أما من حل كلي، حاسم وشامل للمشكلة الأمّ.. وهي مشكلة الطمي؟ هل ثمة من شيء كالحل المطلق، مادامت هي المشكلة الجذر؟ ألا يمكن بضربة واحدة، بطريقة أو بأخرى تحرير الطمي وفك إساره من البحيرة الأم ناصر، واستعادته وإطلاقه إلى مجراه الأب النيل؟

فعلاً، لم يكف البحث الهندسي والتكنولوجي، منذ بدأ إنشاء السد العالي عن إثارة هذا السؤال الطموح والصعب، ولا نقول الحالم، وعن مخامرة أبعد الحلول تصورًا ولا نقول خيالاً، وهناك إلى الآن خطان فكريان أساسيان: - نقل الطمي من أمام السد إلى خلفه بواسطة مواسير ضخمة تخترق جسم السد، أو نقله بواسطة قناة تحويل جانبية تدور حوله وتتخطاه. فأما فكرة المواسير فليست بدعًا ولا محض نظرية، فهي مطبقة بالفعل في بعض سدود أنهار خليج المكسيك في الولايات المتحدة، وفيها ينتقل الطمي من قاع البحيرة، وذلك تلقائيًا وبلا محركات صناعية، وإنما بقوة تيارات الحمل الطبيعية وحدها، مع ملاحظة أن عمل هذه المواسير أو الأنابيب المدفونة يقتصر

على موسم الفيضان فقط، ولن يخفى هنا أن جوهر فكرة المواسير أو الأنابيب إنما يمثل فكرة مستعارة، ميكروسكوبية نوعًا وغير طبيعية تمامًا، من أصل مبدأ السدود ذات الفتحات والعيون، وكأنما هي تعود بنا تحت مظلة الضرورة إلى حل وسط يجمع بطريقة ما توفيقية، ولكنها ترقيعية، بين مبدأ السد المصمت والسد ذي الفتحات، أي بين نمطي السد العالي نفسه، وخزان أسوان القديم.

ومهما كان الأمر، فلعل هذا الحال في حالتنا كان ممكنًا قبل أو أثناء السد، أما الآن فإن المشكلة هي استحالة وضع مثل هذه المواسير في جسم ضخم ضخامة السد العالي، هذا فضلاً عن ضعف تيارات الحمل في بحيرة راكدة ركود بحيرة ناصر.

من هنا لا مفر من الانتقال إلى فكرة قناة التحويل الجانبية كبديل.

هيكل الفكرة قناة جانبية أو تحويلية تستدير حول البحيرة بادئة أمام السد في النقطة التي يتكدس بها الطمي أغزر ما يتكدس في قاع البحيرة، لتنتهي خلفه بعد أن تكون قد تحاشت مصيدة السد، حاملة بذلك الطمي مثلما هناك قناة تحويل للماء نفسه، إذ لا ننسى أن الماء أصلاً يستدير حول السد من الأمام إلى الخلف في قناة جانبية خاصة قصيرة، وبعبارة أخرى قناة تحويل للماء، وأخرى للطمي هذه على الضفة اليمنى، وهذه على الضفة اليسرى.

مهما يكن فلقد وجد أن أنسب نقطة بدء لمثل هذه القناة في منطقة جوجيا غير أن هذا يعني أن يكون طول القناة بطول بحيرة ناصر أي ٥٠٠ كم وهذا بدوره يعني أن نشق نهراً جديداً صناعيًا بالصحراء الغربية في الواقع لا تقل تكاليفه عن ٥٠٠ مليون جنيه، أي ضعف تكاليف السد العالي نفسه وزيادة، أيكون الخروج من هذا المأزق بالبحث في ربط الفكرة بمشروع مفيض توشكي والذي يبدو قطاعًا جزئيًا من جوهر الفكرة مجرد اقتراح.

التكاليف لا تقف عقبة أمام سحب الطمي وتوزيعه على الوادي:

شعب مصر شعب زراعي كما هو متفق عليه، ومازال الفلاح المصري مرتبطًا وجدانيًا بالأرض الزراعية، وأمام ضعف التربة وحالة الإعياء التي

أصابتها بعد حرمانها من الطمي، وأمام الخسارة التي تحققت من وراء هذا الحرمان وعندما يجد الفلاح المصري وجموع المصريين من حوله أن لا سبيل إلى إعادة الخصب إلى التربة سوى سحب الطمي من وراء السد وتوزيعه على التربة في الوادي، فإن الفلاح المصري سواء في الصعيد أو في الوجه البحري سيبادر بالتضحية من أجل استعادة التربة شبابها؛ لأن مصلحته في ذلك، وكذلك جماهير الشعب المصري من غير الفلاحين، فإنهم يشعرون أن حاجتهم إلى دعم التربة بطمي النيل أشد من حاجة الفلاح، وبالتالي سيصبح هذا المشروع مشروعًا قوميًا يلتفت حوله الشعب المصري، ليتخلص من الزروع المريضة من خضروات وبقول ومحاصيل عادية، وخاصة القمح والأذرة، وفي وقت وشيك ستمتلئ خزانة الصدقات بالأموال اللازمة لذلك.

إن شعب مصر من مسلمين وأقباط يجري الدين في شرايينه مجرى الدم، وبهذا توجد ضمانة النجاح لهذا المشروع بإذن الله.

لقد بحَّ صوت المصلحين الصالحين من أبناء الشعب المصري، وضمن هؤلاء العلماء النجباء الصالحين المغفور له الأستاذ الدكتور جمال حمدان الذي أشار إلى خطورة حرمان التربة في الوادي من الطمي، وإني للأمانة أنقل بالحرف الواحد ما كتبه في (ص١٠٠٨) من الجزء الثاني من كتابه (شخصية مصر) وأعتبره وصية أمينة لرجل من أبر أبناء مصر:

مشكلة الطمي:

«إذا انتقلنا الآن إلى مشكلة الطمي وغيابه، فإن قضية خصوبة التربة تأتي في الصدارة، فالبعض يخشى على خصوبة أرض مصر مضرب الأمثال من حرمانها من الغرين، إكسير الخصوبة ومجدد شباب التربة، وإلى غيابه يرجع البعض بالفعل تدهور الأرض والمحاصيل الذي لوحظ أخيراً. وهكذا يثير السد العالي من جديد قضية (أنيميا الماء أو الماء الأنيمي) كما لم يحدث قط

من قبل؛ حتى لقد ذهب البعض إلى حد القول بأن حرمان التربة المصرية من الطمي تلك الكمية الهائلة التي يمكن أن تزيد من ثروة التربة الأرضية في أي مكان من العالم سوف يطعن الزراعة المصرية في الصميم. ومن الناحية الميكانيكية، فإن المحقق أن غياب الطمي سيؤثر على تركيب التربة وقوامها بما قد يغير خصائصها، ليس بالضرورة إلى الأسوأ في نظر البعض إن لم يكن حقًا إلى الأحسن، كذا حيث إن الطمي هو مصدر مشكلة النعومة واللزوجة وضعف المسامية في تربتنا تقليديًا أما عن القيمة المخصبة أو السمادية للغرين فليس متفقًا عليها، فمعظم الزراعات الفيضية فضلاً عن كل الزراعات المصرية لا تعرف طميًا ولا تعرف إلا ماءً رائقًا.... فإن ما فقدته الأرض من الطمي يمكن تعويضه بجرعة من السماد لا تتجاوز قيمتها كما وجد بضعة ملايين من الجنيهات لا أكثر، ولن نذكر هنا ما يبديه البعض من الترحيب بانقطاع الطمي واعتباره من مزايا السد الإيجابية، وذلك بمقولة: إنه يحل مشكلة تطهير الترع والمجاري السنوية وتكاليفها الباهظة.

على إني أرى أن هذا الحل هو حل مؤقت إلى أن يُعاد النظر في أمر السد العالي بدراسة علمية تتوفر فيها النزاهة والحيدة، فإذا أسفرت هذه الدراسة عن ضرورة الإبقاء عليه فيها، وإن كانت المصلحة في استبداله بمشروع وادي النطرون لتوفير الطاقة الكهربائية بالتعاون مع الطاقة الذرية السلمية فمرحبًا بهما مهما أرهقتنا التكاليف، فإن مشروع السد العالي لم يكن يتغيا إلا مصلحة مصر، وأي مشروع آخر لا يتسنى إقراره والسير في تنفيذه إلا إذا كان ممحضًا لخير مصر.

ياما أنفقت الأموال الغزيرة سواء على مستوى الأفراد أو الجماعات أو الحكومات في أبواب لا خير فيها، أو لو كان الإنفاق من أجل مصر وسلامة أرضها وشعبها يدخل الناس في جدل بيزنطي ليس وراءه خير يرتجى ولا شر يتقى؟!!

الاستثمار العربي والأجنبي، ودوره في هذا المجال:

يجب أن يفهم المستثمرون العرب القادمون من الخليج أن مصر ليست في حاجة إلى قنوات فضائية تشيع العهر والفساد ومعهما التعصب المقيت والجدل الأجوف والحوار المريض. إنما مصر والعرب جميعًا في حاجة إلى تطوير الاقتصاد، سواء الاقتصاد الزراعي أو الصناعي أو الخدمي، فعلى من يدير الاستثمار في مصر أن يعي ذلك جيدًا وأن يوظف ماله فيما يعود بالخير على الشعب العربي في مصر والوطن العربي.

ومجال الاستثمار في هذه المشروعات الحيوية ليس فيه إلا الكسب، ويمكن ضمه لبند الصدقات، وفي هذا تعجيل جني الثمرات الطيبة لمشروع سحب الطمي لدعم التربة المصرية، ويتحقق الخير من غير مزاحمة الشر له، ومن غير تكديره بالخبيث من الكلام، قال الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم في سورة إبراهيم الآيات من (٢٤ إلى ٢٧):

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (٢٤) تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٥) وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ (٢٦) يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

كذلك يمكن توجيه الاستثمار الأجنبي لهذه المسيرة مهما كانت التكاليف بأن تقدم الأمة المصرية جوائز للمستثمرين الأجانب تحفزهم لمواصلة الجهود وبذل الأموال بتحقيق نتائج جيدة تخدم مسيرة تعمير سيناء، ودفع الطمي في مواسير تغذي التربة في الوادي وفي سيناء، فإن هذا يعد من أعلى وأسمى المشاريع التي عرفتها مصر.

إن سيدنا عمرو بن العاص ﷺ لم يكن فلاحًا. وكذلك محمد علي باشا رحمه الله رحمة واسعة لم يكن فلاحًا، ولكنهما تركا في مصر آثاراً تدل على أنهما قد أحبّا هذا البلد الأمين مصر المحروسة.

فأما سيدنا عمر ﷺ فقد قام بحفر خليج أمير المؤمنين الذي وصل ما بين النيل وسيناء الحبيبة أوله من فم الخليج وآخره شرق الإسماعيلية وتقول بعض الروايات التاريخية بأنه زرع الأرض في داخل سيناء شرق الإسماعيلية قمحًا كان منه ما أرسله إلى المدينة المنورة في عهد سيدنا عمر بن الخطاب ﷺ، وقد كان هذا القمح (البُر) سببًا في تفريج كُرَب سكان الجزيرة العربية في عام الرمادة حيث نشبت المجاعة أظفارها في مجتمع الجزيرة العربية، وكان هذا بناء على طلب أمير المؤمنين من موالي مصر عمرو بن العاص الذي ردَّ عليه قائلاً: سأبعث إليك قافلة من البر، يكون أولها عندك وآخرها عندي.

وأما محمد عليّ باشا فلا ننسى له أنه تسلم مصر ورقعتها الزراعية أربعة ملايين فدان، وتركها وهي ستة ملايين فدان، بعد أن بنى القناطر الخيرية، وبنى سد أسوان، ورشد سياسة الري في مصر جزاه الله خيراً، ولم يكن هذا الرجل المصلح الكبير مصريًا ولم يكن فلاحًا.

إن مسئولية هذا الجيل من أبناء مصر أن يسترد لمصر مكانتها السامقة ومنزلتها الرفيعة بين الأمم، فهي في عالم لم يعد فيه مكان لضعيف، ولم يعد فيه مكان لعاجز، ولم يعد فيه مكان لمتخلف، فكل هؤلاء محرومون مستضعفون، فالمجتمع مطالب بالنشاط ونبذ الكسل، ومطالب بالحيوية ونبذ العجز، مطالب بالصفاء وترك الهم، مطالب بتحقيق الثراء ونبذ الفقر، ونبذ الدين والاعتماد بعد الله على نفسه لتحقيق ذاته، وحيازة مكانة تحت الشمس.

فإنَّ الهمَّ والحزن والعجز والكسل والجبن والبخل وغلبة الدين وقهر الرجال، كل هذه الآفات هي أسباب التخلف، استعاذ منها أشرف الخلق سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم في دعائه لله عز وجل الذي قال

فيه: «اللهم إني أعوذ بك من الهمِّ والحزن، وأعوذ بك من العجز والكسل، وأعوذ بك من الجبن والبخل، وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال».

سيناء تطوي في باطنها خيرات تكفل الطعام لكل فم:

تلونا معًا الآية القرآنية الشريفة رقم (٢٠) من سورة المؤمنون التي يقول الله سبحانه وتعالى فيها: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ﴾ [المؤمنين: ٢٠].

وفهمنا منها بتوفيق الله أنها تشير إلى معنيين اثنين:

المعنى الأول: إن الله يذكر سيناء نفسها على أنها نعمة من نعم الله، وآية من آيات الله الشاهدة بقدرته ورحمته بالناس.

المعنى الثاني: إنها تشير إلى أن الشجرة التي تخرج من طور سيناء تنبت بالدهن وصبغ للآكلين، تحل مشكلة الطعام. فإن هذا الزيت في نفسه طعام ودواء، وأنه يدخل مع غيره من عناصر الغذاء، ويدخل في عناصر الغذاء فيكفل في جميع الأحوال حلاً لمشكلة الطعام، ويحقق الهدف السامي الذي نسعى لتحقيقه وهو «الطعام لكل فم».

ولا يجوز أن نتكلم فيما ينتظر أن تقدمه سيناء في هذا المجال دون أن نتذكر ما يضمره الوجدان الصهيوني من تشوفات وتطلعات وقحة تصيب بشررها سيناء بوابة مصر الخالدة والجزء الحميم من أرضها العزيزة الغالية في كتابه (ملف إسرائيل - دراسة للصهيونية)، طبعة دار الشروق، يقول روجه جارودي (رجاء جارودي، العالم المفكر الفرنسي في صفحات ١٧، ١٨) ما أنقله بالحرف الواحد:

ثالثًا: إسرائيل التوراتية (كما وردت في التوراة)، وإسرائيل دولة إسرائيل الحالية: في المرحلة الجديدة من تاريخ الدولة الصهيونية - وهي مرحلة يمكن

تسميتها بالصهيونية العسكرية أخذ الاستغلال لما ورد في التوراة صورة جديدة واسعة النطاق.

ففي الوقت الذي راحت إسرائيل فيه. كما ورد في تقرير البنك الدولي تنفق أكثر من ٥٠٪ من ميزانيتها على تسليح جهازها العسكري، وفي الوقت الذي أصبح لهذا التسليح هدف معلن، كما اعترف بذلك صراحة إريل شارون، وكما ورد في مشروع الحركة الصهيونية الذي سننشره في صفحات قادمة من كتابنا هذا، في هذا الوقت بالذات يستشهد الصهيونيون بنصوص من التوراة، ليبرروا بها التوسع الدائم لحدودها، بل ولوسائل القتل والإرهاب التي تتم على مستوى الدولة.

وليست هذه أول مرة يفعلون فيها ذلك، فقد سبق بن جوريون عام ١٩٣٧ أن رسم حدود إسرائيل استنادًا إلى نصوص توراتية، وفي رأيه أن تضم إسرائيل خمس مناطق هي: جنوب لبنان، حتى الليطاني (ويسمى هذا الجزء شمال إسرائيل الغربي) وجنوب سوريا، وعبر الأردن (وهو ما يطلق عليه شرق الأرض)، وفلسطين وسوريا، وتمر الحدود الشمالية بخط عرض مدينة حمص بسوريا التي قال عنها: إنها مدينة حماة التي ورد ذكرها في سفر الأعداد (٣٤-١،٢، ٨) على أنها الحد الشمالي لكنعان.

وهنا صهيونيون آخرون من غُلاة (التوراتيين) يقولون: إن حماة التي وردت في التوراة هي مدينة حلب، بل هناك آخرون يدعون أنها في تركيا!!

ولقد طالب الحاخام آرن شتنسلاز خلال ندوة نظمها الكاتب الفرنسي سارتر، طالب بحقوق تاريخية في قبرص، وفي ١٩٥٦ صرّح بن جوريون في الكنيست- بين تهليل الأعضاء- بأن سيناء جزء من مملكة داود وسليمان، ولكن بعد عملية الإيقاف التي قامت بها الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي عند الهجوم على السويس خفت صوت تلك الجغرافيا التوراتية مؤقتًا ليعود للظهور مرة ثانية عام ١٩٦٧م، بل إن حدود الوعد اتسعت «من النهر الكبير الفرات إلى

نهر مصر «سفر الأعداد ٣٤- ٤،٥»، ولكن إلى أي فرع من فروع النيل؟ يقول بعضهم: إنه وادي العريش، ويقول آخرون: إنه النيل بذاته) انتهى.

ولابد لتكملة هذا الكلام من الإشارة إلى المعونة الأمريكية التي يحدثنا عنها روجيه جارودي في ص ١٧٦ من كتابه ملف إسرائيل فيقول:

(وبالاختصار يكفي أن نذكر رقمًا واحداً لكي نفهم طبيعة المعونة الأمريكية لإسرائيل: إن مجموع المعونة الرسمية الأمريكية التي تحصل عليها إسرائيل وحدها يعادل أكثر من ٧٥٠ دولاراً للفرد في أمريكا، وتضاف هذه المعونة إلى دخل إسرائيل القومي، أي أن هذه المنحة أو «البقشيش» تعادل ضعف الدخل القومي للفرد في مصر، ومع معظم البلدان الأفريقية، وهكذا تتلاشى كثير من الأساطير، وأولها وأخطرها أسطورة إسرائيل الصغيرة الضعيفة، إسرائيل التي تتعرض بصفة مستمرة إلى خطر عارم من جانب الدول العربية، إسرائيل التي فرض عليها القتال من أجل بقائها على قيد الحياة، على حين أنها تملك - بفضل الولايات المتحدة- إمكانات تعطيها القدرة على أن تبلغ خلال ٤٨ ساعة دمشق أو بغداد، أو عمان، أو القاهرة) انتهى كلام رجاء جارودي.

ولما كانت الوقاية خير من العلاج، فإن واجب إعلان مسيرة تعمير سيناء وتنميتها وإعدادها لاستقبال عشرة ملايين مواطن مصري.

وعلى ذلك فالعدل يقضي بأن يبادر الشعب كله رجالاً ونساءً وأطفالاً إلى تحقيق هذا الهدف الجليل الجميل.

على الشعب أن يهب لتحقيق هذا الهدف السامي:

رجال الأعمال:

إن تاريخ الكفاح في مصر يقدم لنا رجالاً يعتبرون رواداً على هذا الطريق منهم طلعت حرب باشا، وأحمد عبود باشا، والمهندس عثمان أحمد عثمان وغيرهم من الأبطال الذين سهروا الليل، وكافحوا بالنهار من أجل النهوض باقتصاد البلاد، ولا

ريب في أن مصر التي ولدت هؤلاء الأبطال مازالت تلد نظراء لهم هم حريصون على خدمة بلادهم حرصهم على تحقيق مصالح أسرهم وأولادهم.

وبالتأكيد هم يعلمون علم اليقين أن سيناء واعدة، وأن ما هو في باطن سيناء من الخيرات يكمن فيه الحل لجميع المشاكل الاقتصادية والاجتماعية التي تعاني منها مصر، في الوقت الذي يشعرون بالولاء لوطنهم، ويشعرون بالواجب الملقى على عاتقهم تجاه هذا البلد الأمين.

إنهم لن يتوانوا أبدًا عن بذل الجهد والمال في طريق تنمية سيناء عن طريق مشروعات زراعية وصناعية على أن تكون هذه المشروعات استثمارية وليست تطوعية لأن في ذلك ضمانين:

الضمانة الأولى: إشباع الرغبة في نموّ المال بطريق مشروع.

الضمانة الثانية: نجاح التجربة وترغيب الغير في الاستثمار في هذا المجال.

كما أن هذه الأعمال تدخل ضمن مفهوم الصدقة الجارية يتعاطون بها الثواب في الدنيا والآخرة.

مؤسسات المجتمع المدني:

من جمعيات وأحزاب سياسية وجمعيات تعاونية للإنتاج وللاستهلاك وللإسكان يزاولون نشاطهم الاجتماعي والاقتصادي على أرض سيناء، ويكون ذلك بخطة مشتركة يقوم بوضعها فريق متكامل من قيادات هذه الجمعيات والأحزاب يكون شعارهم معًا من أجل مصر.

ولعل هذا يكون سببًا في وجود المنافسة بين أعضاء الجمعيات والمؤسسات والأحزاب تتمخض عنها نجاحات سريعة وموفقة في تحقيق الأهداف المرجوة.

وإن الصدقات التي يقدمها الناس سواء كانت عينية أو نقدية ستشعل حماس المواطنين للاشتراك في هذه المسيرة كل حسب طاقته.

ويكون الهدف من هذه الجهود هو زراعة ثلاثة ملايين فدان وإقامة مصانع زراعية عليها، وعلى كل حال، فإن مشوار الألف ميل يبدأ بخطوة إن شاء الله.

الدولة:

أقصد بالدولة هنا السلطة التشريعية والسلطة القضائية والسلطة التنفيذية.

السلطة التشريعية:

يجب على السلطة التشريعية إصدار القوانين واللوائح التي من شأنها ضبط العمل في سيناء على مقتضى المصلحة العليا للبلاد، بما يكفل للمصريين المحافظة على حقوقهم والمحافظة على سيادة مصر، وبما يكفل حرية المواطن المصري في التنقل والإقامة على هذه الأرض الطيبة، وكذلك يجب فتح الطريق أمامه لتحقيق آماله العريضة:

١- بحيث تنص التشريعات على التيسير على المواطنين أن يتملكوا الأرض في سيناء، بدون حد أقصى بشرط واحد فقط هو زراعة ٧٥٪ من المساحة المخصصة لكل فرد منهم .

٢- وإقامة المباني على نسبة الـ ٢٥٪ الباقية.

٣- تقديم زراعة المحاصيل الاستراتيجية على غيرها حتى يتحقق الاكتفاء الذاتي لمصر من الغلال كالقمح والأذرة والأرز.

٤- التشريعات اللازمة لإقامة مشاريع للصناعة الزراعية، ومزارع الدواجن، ومحطات التسمين،وما يتبعها من صناعات غذائية تكفي مصر أولاً وبعدها التصدير للخارج .

٥- إبرام الاتفاقيات الدولية بين مصر والدول العربية بشأن الاستثمار الزراعي والصناعي، وتبادل الخبرات .

٦- إصدار التشريعات اللازمة في المرحلة الأولى من تعمير سيناء، واعتبار خدمة الشباب في مجال الزراعة والصناعة في هذه المرحلة تنوب عن الخدمة في القوات المسلحة باعتبار هذا العمل يرقى إلى الجندية كالتزام وطني.

٧- إصدار التشريعات اللازمة لتحديد المساحة المطلوب استصلاحها وإنجاز زراعتها باعتبارها حداً أدنى من الضرورة إتمام استصلاحها في زمن محدد وإلا حرم المخصصة له الأرض منها واستبداله بمواطن آخر أو مؤسسة أخرى كل منها يلتزم بالشروط.

٨- إصدار التشريعات اللازمة لحسن سير العمل بحيث يعتبر العمل على إنجاز المشروعات في أرض سيناء يتصل من قريب بأمن المجتمع المصري وأمن البلاد وأمن الاقتصاد. وإن أي تقصير أو تهاون، أو تقاعس يبدو من أي فرد أو مؤسسة يعتبر جريمة يعاقب عليها القانون، واعتبار أي تصرف في الأرض المخصصة يخرجها عن الغرض المخصصة له جريمة يعاقب عليها القانون واعتبارها جريمة ماسة بالشرف ومسقطة للاعتبار.

٩- وقبل كل ذلك يصدر تشريع من المؤسسة التشريعية بتعريف جامع مانع لشبه جزيرة سيناء بحدودها الشمالية والجنوبية والشرقية والغربية وتكليف هيئة من العلماء المتخصصين بمسح كل الثروات من معدنية وبترولية والحديد والنحاس والقصدير وخلافه من الكامن في تلالها وجبالها وتحت تربتها وإصدار أطلس للتعريف بها ليتسنى إحصاؤها وإصدار خطة لاستغلالها عن طريق قوى عاملة مصرية.

١٠- إصدار تشريع يحدد المساحة المرجو إصلاحها وإقامة مزارع فيها في وقت مبكر، مع وضع قواعد لحفز الأفراد والمؤسسات التي تعجل ذلك في وقت قصير مع دعم الناجحين في هذا الشأن .

١١- تشريعات بتحسين الخدمات لسكان سيناء ومن ينضم إليهم من أصحاب المشروعات والأراضي المستصلحة والقادمين إليها من الأقاليم من أجل إنجاز المشروعات ومنحهم الأولية في خدمات التعليم والصحة بحيث تظهر سيناء كمنطقة جذب للسكان والعمالة بصفة خاصة تجذب الشباب من جيش البطالة ويقدمها هؤلاء الشباب على غيرها من الجهات التي يهاجرون إليها طلبًا لفرص العمل.

١٢- تشريع بجعل مدة عشر سنوات كحد أقصى لنقل خمسة ملايين مواطن إلى أرض سيناء مستحقين العيش عليها، ممكنين من العمل، وتقدم لهم جميع الخدمات على أرقى مستوى، سواء في ذلك خدمة التعليم والصحة والاتصالات .

١٣- إصدار تشريع ينص على قصر استعمال مياه ترعة السلام على أهل سيناء وهم البدو والقادمون إليهم من أقاليم مصر في خدمة الأراضي المستصلحة والمنشآت الصناعية والعمال المصريين من زراعيين وصناع مع جواز انتفاع أهل الخبرة الذين تتعاقد معهم الدولة ويعملون في سيناء في المشروعات الاقتصادية.

١٤- إصدار تشريعات تنظم تمويل هذه المشروعات الزراعية من أموال الزكاة والصدقات بصفة أصلية وما يرد من أموال من المؤسسات المالية من قروض حسنة نقية من الربا، وبالنسبة لأصحاب المشروعات المستثمرين فهم يتكفلون بالإنفاق على المشروعات الخاصة بهم على أن يمنحوا الأراضي التي يصلحونها لمدة تسعًا وتسعين سنة بشروط تحقق الصالح العام وتضمن حقوق العاملين بها.

١٥- بخصوص البناء والتشييد لابد من وجود حوافز توفرها الدولة لمن يقوم بالبناء على أرض سيناء في حدود الخطة العامة بأن يمتلك هذه الأرض مع تيسير التعاقد معه ومساعدته على أن ينهض بإقامة المباني ويتحقق له ربح يكفيه ويمكنه من الاستمرار في هذا البناء، وذلك في ضوء حقيقة ملكية الشعب لهذه الأراضي دون أن تظهر الدولة بمظهر التاجر. يكفي أن يسدد المستثمر مبالغ رمزية مادام يساعد على تحقيق الغرض الذي تتغيّاه الحكومة من تعمير هذا الجزء العزيز من أرض مصر، إنها سيناء الحبيبة بوابة مصر الشرقية.

دور الوحدات الإدارية المختصة:

إن الوحدات الإدارية المختصة في هذا المجال يجب عليها أن تنسى تعقيدات الروتين، وأن تقبل بكليتها على التضحية بالوقت والمجهود في سبيل تحقيق هذا الحلم الكبير، الذي يحمل في طياته إصرار الشعب المصري على تخطي كل العقبات، وإزاحة كل المعوقات المادية والأدبية التي تحول دون الوصول إلى الغاية النبيلة، فإن مصر أن تثبت للعالم أنها أم الحضارة، وأنها قد ربّت هذه الحضارة على صدرها، وعلى مدار الزمن هي الحارسة الأمينة على هذه الحضارة تحميها وتحفظها من عوادي الزمن.

مصر في مسيرتها إلى سيناء وفي داخلها بين جبالها وتلالها تقدم للعالم أروع المثل، وأوضح السبل في المحافظة على قيمة الإنسان الذي اختاره الله سبحانه وتعالى خليفة له في الأرض.

فلتعلم هذه الوحدات الإدراية أنها جزء من كوكب خضاري مصري ينفخ في أبواقه... ليوقظ الضمير الإنساني، ليسترد عافيته، ويعلن للوجود كله انتصار الدعوة إلى الحياة الكريمة للحياة والأحياء (الطعام لكل فم).

وما ذكرته هو بعض ما يسمح بعرضه المقام، وإني أترك لغيري من أبناء مصر النبلاء، وبنات مصر الحرائر أن يدلي كل منهم بدلوه، وأن يقدم خالص فكره، وثاقب رأيه في تعمير سيناء، فمصر لكل أبنائها وبناتها، والمسئولية نحوها موزعة على كل المواطنين والمواطنات توزيعًا عادلاً، وبالله التوفيق.

سيسأل البعض سؤالاً: هل أخذت في الاعتبار «لعبة الأمم» وتأثيرها في هذا المجال، بمعنى هل أدخلت في حساباتك مخطط الدول الكبرى الهادف إلى إبقاء الشعوب النامية على ما هي عليه، حتى تكون دائمًا سوقًا لها تكون هي المبدعة المنتجة، والشعوب النامية تكون هي المستهلكة المتلقية؟ بمعنى آخر تكون الدول الكبرى هي الرائدة، والشعوب النامية هي التابعة؟

وأجيب على هذا السؤال: «إنني أفكر في مصر بلدي ووطني الغالي، وأختار أرضًا منها تكون منبعًا للخير في بلدي، ولم أفكر أبدًا في انتزاع جزء من أرض شعب آخر لكي يكون مسرحًا لنشاط شعب مصر.

إن أرض سيناء جزء عزيز من أرض مصر، وهي التي أود أن تكون مرفئًا حنونًا، يحقق الرخاء والرفاهية لشعب مصر، والله المستعان وعليه التكلان.

خاتمة:

إن مصر موصوفة في القرآن الكريم بما يدل على أنها تنعم بعناية إلهية خاصة، ورعاية ربانية سرمدية، وهذا الذي تنعم به من فضل الله سبحانه وتعالى قد لفت نظر الناس جميعًا سواء كانوا من أهل الدنيا أو من أهل الدين، فطوراً تراها مهبط للوحي الذي نزل على أنبياء الله إدريس ويوسف وموسى وعيسى عليهم وعلى نبينا أشرف الخلق سيدنا محمد أفضل الصلوات وأتم التسليمات، وطوراً تراها مزاراً للأنبياء، ومنهم أبوهم وأبونا سيدنا إبراهيم عليه الصلاة وأزكى التسليم.

ومرة أخرى لا تبرح عقل سيدنا رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وسلم لا تبرح وجدانه لدرجة أنه أوصى بها أصحابه الكرام لاسيما وأنه قد صلى على أرضها فباركها مرتين، مرة على قبر ماشطة بنت فرعون ومرة على أرض جبل الطور أرض سيناء، نعم حدث ذلك في ليلة الإسراء والمعراج، وهو عليه الصلاة والسلام أوصى بها أصحابه عند وفاته والتحاقه بالرفيق الأعلى من الجنة، وقد نفذ هؤلاء الأصحاب وصيته الشريفة فجاءوا إلى مصر، وسكنوا ديارها وسعدوا بها، وسعدت بهم، ولعل كل ذلك كان سببًا في حفظها من مؤامرات المغرضين أعداء الحياة وأعداء السلام!!!

هذه النعم الوافرة التي حَبَى الله مصر بها لفتت نظر كثير من الناس من خارج حدودها إليها، وأثارت أطماع أهل الغيّ وأهل البغي، ولكن الله سبحانه وتعالى حفظها وأهلك من اعتدى عليها.

هذه النعمة الوافرة بسطتها مصر على مائدة كرمها التي ورد عليها خلق كثيرون فطعموا وشربوا من ماء نيلها، ولم تمن مصر عليهم ولا بخلت عليهم بها يومًا من الأيام. ومصر وسط شعوب الوطن العربي على مدار الزمن لم تتوان لحظة عن تقديم ما لديها في يسر وسرور لجميع الشعوب العربية والشعوب الإسلامية، نقول هذا في غير منٍّ، بل نذكر به باعتباره نعمة من نعم الله سبحانه وتعالى على مصر، وعلى سائر الشعوب الإسلامية والعربية.

فعلت مصر ذلك في الماضي أيام رخائها وأيام يسرها، أما في هذه المرحلة التاريخية الخاصة بها والخاصة بالبلاد العربية، هذه المرحلة التي جمع الغرب قوته وبأسه وحشد قواه السياسية في وحدة اقتصادية وسياسية بهدف محاصرة الشرق كله بما فيه الدول العربية والإسلامية بقصد الإبقاء على حالته الاقتصادية والاجتماعية والتجارية على ما هي عليه من سوء التبعية لاقتصاد الغرب هذا السوء الذي يلد التخلف والانحطاط بحيث يبقى الاقتصاد العربي والإسلامي تابعًا لاقتصاد الغرب يلهث وراءه من أجل كسرة خبز تقيم أوده أو ثوب خلق يكشف من الجسم أكثر مما يستره. إن الشعوب الإسلامية والشعوب العربية مستهدفة من جانب الصهيونية العالمية والاستعمار وهما بكل أسف يخفيان أطماعهما بقناعين كثيفين يخفيان أنيابهما الحادة، وأفواههما المتعطشة لدماء العرب والمسلمين. وإن مصر لن تستطيع وحدها أن تحرر الاقتصاد العربي والإسلامي.

أيها العرب والمسلمون:

إنكم لن تستطيعوا أن تواجهوا المؤامرة الصهيونية الغربية إلا إذا توحدتم في وحدة اقتصادية تجمع بينكم، إن ما هو كامن في أرض الإسلام والعروبة، وما هو ظاهر عليها من الثروات كل ذلك فضل الله عليكم، ولن تقدروا على مواجهات المؤامرات والدسائس إلا بالاتحاد؛ لأن الغرب نفسه أدرك أنه لن يستطيع السيطرة عليكم إلا بالاتحاد.

أيها العرب والمسلمون:

مازال صوت سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم عاليًا فينا يتلو القرآن الكريم، يقول الله تعالى فيه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٠٢) وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٠٣) وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢-١٠٤] .

ومازال صوته صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه عاليًا يقول:

«مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى» [رواه الإمام البخاري في كتاب الأدب، باب رحمة الناس والبهائم ٥ / ٢٤٣٨، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم ٤١ / ١٩٩٩ رقم ٢٥٨٦].

إنني لا أطلب لمصر معونة أو صدقة من أحد سواء كان هذا حاكمًا أو محكومًا، ولكني أطالب حكام العرب والمسلمين بأن يتعاونوا معها في إحياء أرضها واستصلاحها، وإقامة المشاريع التي تكون في خدمة هذا الهدف النبيل بطريق الاستثمار المحقق للربح خاصة أرض سيناء، فإنها إن شاء الله أرض واعدة بالخيرات سواء في ذلك المشروعات الزراعية أو الصناعية، ويتم ذلك بعقد الاتفاقيات بين مصر وبين كل بلد يَغار على دينه، وبالنسبة للبلاد العربية يكون البلد يغار على دينه وعروبته فكل دولة تحث مواطنيها على استثمار أموالهم في مشروعات مصر بقصد الربح، بدلاً من استثمار أضعاف أضعاف هذه الأموال في الغرب في مشروعات كمالية كالرياضة، والسينما، والمسرح، والبلياردو وغيرها من المسليات.

إن اتحاد العرب والمسلمين في مواجهة الجوع فريضة فرضها الله عليهم والقيام بها يعلو على كل الأعمال الدنيوية. قال سبحانه وتعالى:

﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤١] صدق الله العظيم.

والله من وراء القصد وهو حسبنا ونعم الوكيل.

وصلِّ اللهم وسلم وبارك على سيدنا محمد النبي الأميّ وعلى آله وأصحابه أجمعين.



الخاتمة

في ساعة فراغي من هذا الكتاب وجدت أمامي عدد جريدة الشروق رقم (٣٠٩) الصادر يوم الأحد بتاريخ ٦/ ١٢/ ٢٠٠٩م مفتوحًا على صفحة (٥) أضاءتها مقالة للأستاذ فاروق جويدة عاشق مصر الولهان بحبها الحريص على حضارتها، وموضوع هذه المقالة التي تقطر حبًا لمصر وغيرة عليها هو (سيناء الخالية كلمة ليست أخيرة!!!)، وقد تصدرت هذه المقالة كلمات أنقلها حرفيًا:

(لا أتصور أن تقف الآن وبعد ٢٧ عامًا من عودة سيناء لنتحدث عن جوانب الإهمال والتقصير في تنمية هذا الجزء الغالي من الوطن، لا أتصور أن تضيع دماء الشهداء هباءً، وأن تبقى سيناء خطرًا يهدد أمن مصر وسلامتها.. كيف سمحت الحكومات المتعاقبة التي تولت مسئولية القرار في الدولة المصرية أن تبقى سيناء حتى الآن بلا حماية، ولا تنمية وبلا سكان، والأغرب من ذلك كله حالة اللامبالاة التي يعيشها القرار المصري تجاه سيناء، أين سيناء في مهرجانات الحزب الوطني واجتماعاته السنوية البراقة، أين سيناء في استجوابات مجلس الشعب، أين سيناء في ملفات مجلس الشورى؟ بل أين سيناء في أجندة مجلس الوزراء؟ إن كل ما نقرأه عن سيناء إما قضية مخدرات، أو عملية إرهابية في موقع سياحي، أو خلافًا بين الشرطة وبدو سيناء كما اعتادت أن تنشر الصحف رغم أني أكره بشدة إطلاق اسم بدو سيناء على سكانها؛ لأنهم قبائل مصرية عربية تحمل تاريخًا مجيدًا لا وجود لسيناء الآن على أجندة الحياة المصرية غير احتفالات شهر أبريل من كل عام وأغنية واحدة تنطق في الإذاعات وعلى شاشات التليفزيون، وبعد ذلك لا شيء على الإطلاق) انتهى.

وإني أوافق الأستاذ الكبير فاروق جويدة على أحقية شبه جزيرة سيناء في نظرة شعبية تكون فيها العناية المخلصة بها، ولكني لا أستطيع أن أحمل الدولة المصرية والحكومة المصرية وحدهما مسئولية النهوض بمشروع تعمير سيناء.

وأقولها بصراحة إن مسئولية القيام بهذا المشروع الجليل هي مسئولية تضامنية تقع في عنق كل مصري ينتمي للشعب المصري الذي يشرفنا أنا وأنت الانتماء إليه.

وتعمير سيناء الذي يجب أن يحقق الإنتاج الأمثل، يحتاج إلى آلاف الدولارات التي تتطلب الشعور بالمسئولية التضامنية عن نجاحه .

وهذه المسئولية التضامنية تقع على كاهل الشعوب العربية، واسمح لي أن أبين لهذه الشعوب أن مصر ليست وحدها التي تستفيد من نهضة سيناء الزراعية والصناعية والخدمية، ولكن الشعوب العربية تشاركها في هذا الانتفاع بقدر ٥٠٪ من الأمن الغذائي والأمن السياسي؛ إذ إننا يجب علينا أن ندرك أن هناك طريقًا بدايته في سيناء ونهايته في مكة المكرمة والمدينة المنورة والرياض العامرة وعمّان العزيزة، ثم في نهايته أيضًا اليمن السعيد وأريتريا والسودان، فإذا تعرضت سيناء والعياذ بالله لعدوان إسرائيلي في المستقبل فإن إسرائيل يومها ستلحق الضرر بكل هذه الشعوب، لاسيما وأن إسرائيل حتى الآن لم ترسم حدودها سواء الحدود السياسية أو الحدود الأمنية، أو الحدود الجغرافية، ومازالت خريطة الدولة العبرية مملكة داود معلقة على جدران الكنيست.

إنني كنت قد أتيحت لي فرصة للتجول في شمال سيناء في شهر يوليه ٢٠٠٨م وكان سائق السيارة يقوم بدور المرشد السياحي - جزاه الله خيرًا- فوجدناه قد توقف قرب شاطئ البحر الأبيض المتوسط عند رفح، فطلب منا صعود ربوة عالية تكاد تكون على الشاطئ فوجدنا تمثالاً لامرأة بدوية وقد كتبت عبارة على قاعدة التمثال بالعربية والعبرية تنص على أن الجيش الإسرائيلي مصمم على العودة إلى سيناء في المستقبل. فإذا كان هذا الخطر قائمًا، فعندما

يقع على الأرض لن ينجو منه شعب عربي يدخل أرضه أو جزء من أرضه في تكوين المملكة العبرية، وقد يُقْبل اقتراحي في هذا الشأن كالآتي:

بالنسبة للشعب: إن الدولة والحكومة تتحركان من خلال ميزانية ذات بنود محددة تجتمع فيها أموال محددة لتحقيق أغراض محددة، وميزانية تشبه ميزانية الأسرة كثيرة العدد كثيرة النفقات قليلة الموارد، فلا مناص من اشتراك الشعب عن طريق الصدقات بمفهومها الوارد في هذا الكتاب.

إذن مسئولية الشعب من خلال مؤسسات المجتمع المدني من جمعيات وأحزاب سياسية ومنظمات شعبية أن يعلن التعبئة العامة من أجل تحقيق هذا الهدف الجميل وهو تعمير سيناء وتسكين عشرة ملايين من أبناء وبنات الشعب المصري في سيناء العزيزة.

ويبدأ بالصدقات التي يطلق عليها البعض الجهود الذاتية أو التبرعات، ويتم ذلك بإصدار طوابع تبدأ بمبلغ جنيه واحد.

ويأتي دور رجال الأعمال والأغنياء بمساندة جهود الشعب بالمال والجهد والاستثمار وأن يتحركوا بإصرار على تحقيق الهدف بإذن الله.

ويتعين على الشعب أن يعطي سيناء الاهتمام بالواجب والتركيز عليها، ويترك وراءه كل الخلافات، وينبذ المصالح الشخصية.

وعلى علماء مصر كل فيما يتخصص فيه ريادة هذه القافلة، قافلة إعمار سيناء بتقديم المشورة الفنية والدراسات المتأنية الهادفة بحيث تصبح سيناء في المقام الأول من تفكير جميع أفراد الشعب المصري.

وليس على الدولة والحكومة إلا الإدارة الحسنة، والقيادة الرشيدة، والتنسيق مع الدول الخارجية.

وأما مسئولية الشعوب العربية فتتلخص في حث مواطنيها على الاستثمار على أرض سيناء وهي أرض واعدة بالخيرات بإذن الله.

وأترك لك يا أستاذ فاروق أن تكمل شرح أسباب الوصول إلى هذا الهدف النبيل، وهو تعمير سيناء أكرمنا الله وإياك.. ووفق دولتنا الجليلة وحكومتنا الرشيدة وشعبنا العزيز إلى ما فيه خير البلاد والعباد بتعمير سيناء وأخواتها صحراوات مصر. آمين آمين آمين.

وصلِّ اللهم وسلم وبارك على أشرف الخلق سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين.

❁❁❁

الفهرس

الموضوع	الصفحة



